# روحانيّة العبادات

## (دروسٌ في الأخلاق التعليميّة والواقعيّة)

من أبحاث سماحة المرجع الدينيّ

السيّد كمال الحيدريّ دام ظله

بقلم

الدكتور طلال الحسن

**مؤسسة الإمام الجواد عليه السلام**
**للفكر والثقافة**

**الكاظمية المقدسة ـ باب الدروازة**

**١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م**



**يطلب من**

- مؤسسة الإمام الجواد عليه السلام للفكر والثقافة؛ بغداد
  ٠٠٩٦٤ـ٧٧٠٧٩٠٠٨٤٢
  ٠٠٩٦٤ـ٧٨٠٠٢٣٠٠٢٩
- مؤسسة الثقلين للثقافة والإعلام؛ كربلاء
  ٠٠٩٦٤ـ٧٨٠١٤٢١١٩٤
- معرض الكتاب الدائم؛ النجف الأشرف
  ٠٠٩٦٤ـ٧٧١١٦٤١٦٦٩
- مكتبة زين العابدين
  البصرة ـ الطويسة
  ٠٠٩٦٤ـ٧٧٠٦٠٧٢٢٧١
- مكتبة دار الأمير
  الناصرية ـ الحبوبي
  ٠٠٩٦٤ـ٧٨٠٣٠٩٨٤٩١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿صِبْغَةَ اللّٰهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّٰهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾

(البقرة: ١٣٨)

# شكرٌ وتقدير

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين.

أمّا بعد، فمن الواضح أنّ الروحانيّة مأخوذةٌ من الروح، وأنّ الروح وجودٌ مجرّدٌ عن المادّة كما ثبت في محلّه، فالروحانيّة قد تطلق ويراد بها ما يقابل المادّيّة والجسميّة، وليست هي المقصودة هنا ـ وإن كانت جزءاً من حقيقتها ـ وإنّما نريد بها الجانب المعنويّ الذي يمثّل الحقيقة المطلوبة من وراء ظاهر الأشياء. فالصلاة ـ مثلاً ـ بأركانها المخصوصة لها روحانيّةٌ ومعنويّةٌ وراء صورتها وهيئتها، وهكذا سائر العبادات الأخرى، وفي هذه الدروس لا نريد تبيين الأركان والأجزاء والشروط المخصوصة لكلّ عبادةٍ، وإنّما نريد الوقوف على بيان الحقائق المعنويّة الكامنة وراء هذه الصور والأفعال الظاهريّة، ونورد مثلاً قول الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام: «الصلاة قربان كلّ تقيّ»، فهو لا يريد بقوله أركانها وأجزاءها الظاهريّة فقط، وإنّما المقصود الأصلي من الصلاة هو الجانب المعنوي الذي تشتمل عليه هذه الأفعال.

من هنا حاول عزيزي الدكتور طلال الحسن ـ وفّقه الله تعالى ـ أن يسلّط في هذه الومضات المعنويّة الضوء على الجوانب الخفيّة في العبادات والتي تمثّل روحها وحقيقتها، وأنّها هي المطلوبة أوّلاً وبالذات، ولكن لابدّ من الالتفات إلى أنّ هذه الحقائق المعنويّة لا يمكن تحصليها بدون الإتيان بالعبادات على أشكالها وصورها وهيئاتها الشرعيّة.

وفي الختام أرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفّقه لإكمال البحث في هذه السلسلة التي بدأها بهذه الحلقة، إنّه وليّ التوفيق.

كمال الحيدريّ

٧/ ذي الحجّة/ ١٤٣٤

# المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله الطاهرين.

والحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة الوجود، وجمّلنا بكمال المعرفة، وأكرمنا بعبادته. وبعد:

فإنّ في الإنسان جزءاً خالداً ومنفتحاً على الزمان والمكان، وهو الروح الإنسانيّة، وفي قبالها جزءٌ آخر فانٍ محدودٌ بالزمان والمكان، وهو البدن.

وقد سنّ الله تعالى أحكاماً وتكاليف قد روعي فيها الجزءان معاً، وما يهمّنا في المقام هو الجزء الأوّل المتّصف بالخلود؛ فقد سُنّت له العبادات في قبال المعاملات التي نُظر فيها إلى البعد المادّيّ؛ وهذا ما يدعونا إلى الوقوف مليّاً على المحطّة الأهمّ في تركيب الإنسان وحياته.

من هنا صحّ لنا إطلاق عنوان روحانيّة العبادات؛ بمعنى: أنّنا إن لم نتعاطَ مع العبادات روحيّاً فإنّنا نكون قد أفرغناها عن محتواها الحقيقيّ؛ وهذا ما التفت له السيّد الأستاذ (دام ظلّه) في هذه الدروس التعبويّة باتّجاه الروحانيّة العباديّة، شعوراً منه بأهمّيّة هذه المحطّة في حياة الإنسان، بل على حدّ تعبيره: إنّ الإنسان بلا روحانيّةٍ ـ وليس بلا روحٍ ـ لا يفترق كثيراً عن العجماوات، التي لا تجيد نطقاً ولا تفكّراً ولا سلوكاً، بل لا تجيد إلّا تكرار نفسها على مرّ العصور.

إذن نحن بصدد الوقوف على دروسٍ تبرِّز البعد الأهمّ في تركيبة الإنسان

ـ وهو الروحانيّة ـ وذلك من خلال ما يسانخها ويوافقها، وهي العبادات؛ فكانت «روحانيّة العبادات» العنوان الجامع لهذه الدروس التعليميّة الواقعيّة.

والمراد من التعليميّة: أنّها كُتبت بطريقةٍ ممنهجةٍ؛ ففي كلّ درسٍ نجد أهدافاً خاصّةً، ومتناً تفصيليّاً محقّقاً لتلك الأهداف، ثمّ تذكيراً موجزاً بصورة أسئلةٍ يُختم فيها كلّ درسٍ، ليتأمّل القارئ مع نفسه في معاني الدرس من خلال الأسئلة المفتاحيّة لذلك المضمون.

وأمّا الواقعيّة، فالمراد منها هو الانطلاق ممّا هو موجودٌ في عمق الإنسان، أو ما يمكن التوفّر عليه؛ فالبحث ليس نظريّاً، وإن كان يبدو بظاهره كذلك، إلّا أنّه في واقعه قد تجاوز الجانب النظريّ لينتقل بالقارئ إلى محطّاتٍ وومضاتٍ عملانيّةٍ يرتقي المستجيب لها من خلالها. وقد روعي من جهةٍ جانب الواقعيّة لتكون الكلمات والمضامين في تماسٍّ مباشرٍ مع حياة الإنسان وتفاصيله في بعدها المعنويّ، وليسدّ من جهةٍ أخرى الفراغ الهائل والملموس في مسيرة الإنسان، ونعني به الفراغ الروحيّ وهو يعيش مع هذا الركام المادّيّ الذي جفّف الكثير من منابع القلب والروح.

إذن فالكتاب بدروسه العملانيّة يستجيب لحاجةٍ ماسّةٍ وضروريّةٍ، نرجو من الله تعالى التوفيق لعرضها على أكمل وجهٍ، كما نرجو أن يستفيد منها القرّاء بالنحو المطلوب، لاسيّما الأساتذة المعنيّين بنشر الحقّ والفضيلة والأخلاق.

وقد حرصنا كثيراً على حفظ خصوصيّات الدروس وعرضها بلغتها الروحيّة الثريّة بالمعاني الأخلاقيّة الرفيعة؛ فإنّ للروح لغةً ساميةً، وهي الأخلاق، وإنّ للروح كتاباً مسطوراً، ظاهره الشريعة وباطنه العرفان؛ ومن بين طيّات وظلال الأخلاق والشريعة والعرفان ترتسم ملامح حركة الإنسان ـ فرداً ومجتمعاً ـ على مستوى المعرفة والفكر والرؤية والسلوك.

هذا ما حاولنا عرضه بأمانةٍ على مستوى الفكرة والمضمون والكلمات، وبالقدر المتاح الذي تسمح به الصنعة والجانب الفنّيّ للكتاب؛ فكان التركيز منصبّاً على بيان حقيقةٍ في غاية الأهمّيّة، وهي أنّ السلوك الفرديّ القويم ترجمةٌ عمليّةٌ لحقيقة المعارف الإلهيّة، كما يمثّل الانحراف ترجمةً عمليّةً لواقعيّة الجهل الذي عليه الإنسان؛ وهذا السلوك ـ مطلقاً ـ هو الوجه الحاكي عن باطن الإنسان وصورته الفعليّة، فالسلوك مرآةٌ تحكي باطنه وسريرته؛ وهذا ما يؤكّد عمق العلاقة بين الظاهر والباطن، فلا ظاهر بلا باطنٍ، ولا باطن بلا ظاهرٍ.

فالكتاب قد جمع بين المنهجيّة العلميّة في العرض، والعمق في الفهم والتطبيق، واليسر واليسار في البيان؛ إيماناً منه بضرورة إفشاء الجانب التعليميّ، وما هذا إلّا غيضٌ من فيضٍ في أصل المشروع المعرفيّ الذي تبنّاه السيّد الأستاذ (دام ظلّه) في إلزاميّة التفقّه في الدين، فقهاً وعقيدةً وتفسيراً وحديثاً وأخلاقاً وعرفاناً، لتكتمل المنظومة الإسلاميّة في ذاكرة كلّ مكلّفٍ.

من هذا المنطلق تسجّل هذه الدراسة الأخلاقيّة في تقصّي بحوثها ومحاورها ـ على المستويين الفرديّ والاجتماعيّ للإنسان في أخلاقيّاته الواقعيّة، وعلى مستوى الظاهر والباطن ـ سابقةً مهمّةً تصطفّ مع ذلك الرصيد العلميّ والتعليميّ الذي نهض به السيّد الأستاذ (دام ظلّه) منذ أربعة عقودٍ من الزمن.

نعم، إنّها تجربةٌ حاولت أن تعتق نفسها من الاستغراق في الجانب النظريّ، كما حاولتْ أن تتجنّب الصور العمليّة التي ليس لها منشأٌ نظريٌّ أو علميٌّ؛ وبعبارةٍ أخرى: إنّها محاولةٌ تمسّ الواقع ولا تتنكّر للمثاليّة، إلّا أنّها بمجسّاتها الوجدانيّة نأتْ بنفسها عن المثاليّة الصوريّة، الّتي جعلت الأخلاق العمليّة طائراً غريباً لا عشّ له في قلوبنا، ولا صدى له في عقولنا.

وقد حرصتْ هذه الدراسة على احترام قرّائها على اختلاف مشاربهم

ومستوياتهم الثقافيّة والعلميّة؛ فوضعتْ نصب عينيها المساحات المختلفة في استيعاب مخاطبيها وقدراتهم وعياً وفهماً، كما حرصتْ كثيراً على عدم التخندق، ورفع الغموض بالوضوح الممكن، وتجاوز التصنّع بالعفويّة والاسترسال بالقدر الممكن؛ فكانت دراسةً عمليّةً أعتقت سطورها من آفة التصنّع؛ وهذا ما سيجده القارئ بصورةٍ عمليّةٍ ويتحسّسه بصورةٍ وجدانيّةٍ، وهذا ما يسهم إسهاماً ملحوظاً في الخروج من دائرة الشكّ إلى دائرة اليقين، ومن التصوّرات إلى التصديقات، والعمل على طلب الكمال وحبّ الخير.

بعبارةٍ أخرى: إنّها تتحرّك وتصوّب بوصلة القلب باتّجاه حلم الأنبياء في صناعة باطن الإنسان وتسويته حقّانيّاً؛ فإنّ الأنبياء ينشدون تربية إنسانٍ لا تختلف خلوته عن علانيته[1].

وقد عرفت أنّ الهدف الذي تسير باتّجاهه هذه الدراسة هو نفس الأخلاق العملانيّة التي يُلحظ فيها البعدان الواقعيّ والتطبيقيّ؛ ولذلك فهي دراسةٌ عملانيّةٌ تسير بقرّائها نحو أهدافٍ واضحةٍ، مقصودةٍ بالذات، وقابلةٍ للتطبيق؛ وهذا ما دفعها إلى توخّي آليّة التمثيل والتقريب، والإجمال والتفصيل، والعرض والتذكير، لتكون أكثر حيويّةً وتأثيراً وتعايشاً في واقع القارئ الكريم، ولتكون أيضاً مشروع درسٍ في أروقتنا الإنسانيّة والدينيّة؛ وهنا تكمن فلسفة الأخلاق.

إنّها دروسٌ قد مزجتْ بين اللغتين المدرسيّة والمسجديّة؛ لأنّ الحاضر فيها هو الإنسان أينما كان، والإنسان لغةٌ جامعةٌ بين الشهادة والغيب، بين الملك والملكوت، بين الجسد والروح، وبين اللفظ والمعنى. والغيب والملكوت والروح والمعنى أصواتٌ تخترق مساحات الزمان والمكان؛ لتطلّ به آماله العريضة في السياحة على مرافئ الكمال المطلق.

---

(١) انظر: صحيفة الإمام، للسيّد الإمام الخمينيّ قدس سره: ج٨، ص٤١٦.

نعم، هكذا هو الإنسان....
تخنقه الطرقات الموصدة، وتُحزنه الجدران....
يضيق به حتّى الليل والنهار....
(فالليل والنهار للآمال لا يتّسعان
فاطلب مقاماً للعلا فوق الزمان والمكان).

وليس هنالك ما يعتق النفس من ماضٍ أرهقته تبعاتٌ مؤلمةٌ، ويؤمّنها من مستقبلٍ مجهولٍ، سوى الكينونة في الأخلاق الكريمة، فإنّها مصفاةٌ من الماضي، ومنجاةٌ من الآتي، وهي ـ كما ألمعنا ـ اللغة السامية للروح، بل هي أرضيّة الظاهر والباطن في ذلك الكتاب المسطور؛ والحمد لله وحده على مواهبه وعطاياه.

## هذا الكتاب

حاول هذا الكتاب الأخلاقيّ التعليميّ أن يقدّم مضموناً مُزجت مطالبه بلغاتٍ ثلاثٍ: الفلسفة والأخلاق والعرفان، ضمن طوليّةٍ بين النظريّة والتطبيق، حيث ركّزت دروسه على بيان البعد الروحيّ والمعنويّ في الجانب العباديّ بصفته الجديدة التي يتبنّاها الكتاب، وهي صفة الأخلاق؛ فهي الأخلاق العباديّة. فالمسجديّة مثلاً هي تعبيرٌ عميقٌ عن أخلاقيّات العبادة ـ كما يأتي توضيح ذلك في الدرس السادس (أخلاقيّات المسجد والأماكن المقدّسة) ـ وهذه الرؤية (أخلاقيّة العبادات) مستلّةٌ من أبعادٍ عقليّةٍ (عقيدةٍ وفلسفةٍ وعرفانٍ نظريٍّ) ونقليّةٍ أثريّةٍ (قرآنٍ وحديثٍ وعرفانٍ عمليٍّ) وسلوكيّةٍ كشفيّةٍ ضمن حدودها المقبولة والصحيحة، لتنطلق أبحاثها في عالم القلوب والوجدان والعمل، ولتشكّل مجموعة دروس وبحوث هذا الكتاب مساراً جامعاً بين منطقة العقل ومنطقة القلب.

كما أنّ هذا الكتاب ـ كما أشرنا ـ قد اعتمد أسلوباً تربويّاً تعليميّاً هادفاً من خلال المداخل والمخارج لكلّ درسٍ فيه؛ ورغم أنّ البساطة في الطرح كانت شعاراً معتمداً في هذه الدراسة، بيد أنّها لم تخلُ من مطالب عميقةٍ جدّاً، نراها بحاجةٍ إلى تدبّرٍ وتأمّلٍ ومطالعةٍ لأكثر من مرّةٍ، ولم يكن الهدف من وراء ذلك خلق حواجز أمام القارئ، بل إنّ طبيعة هذه الأبحاث تفرض نوعاً خاصّاً من العرض.

وقد اشتملتْ هذه الدراسة على اثني عشر درساً نظِّمت بنحوٍ طوليٍّ؛ فلا ينبغي التقديم والتأخير فيها خلافاً لما جاء فيها؛ فإنّ نظمها قد لوحظ فيه عمليّة التدرّج في التلقّي، سواءٌ في البحوث النظريّة أو في البحوث العمليّة.

**د. طلال الحسن**

**غرّة شهر رمضان عام ١٤٣٤هـ**

**قمّ المشرّفة**

# دروسٌ في روحانيّة العبادات

- الدرس الأوّل: واقعيّة العبادات وموقعها في السلّم الكماليّ.
- الدرس الثاني: العبادات في رسومها القرآنيّة.
- الدرس الثالث: العبادات في رسومها الروائيّة.
- الدرس الرابع: أهل البيت عليهم السلام مثلٌ أعلى في العبادات.
- الدرس الخامس: أخلاقيّات العبادات وبعدها العرفانيّ.
- الدرس السادس: أخلاقيّات المسجد والأماكن المقدّسة.
- الدرس السابع: صورٌ روحانيّةٌ للطهارة والصلاة.
- الدرس الثامن: المحافظون على الصلاة.
- الدرس التاسع: صورٌ روحانيّةٌ للصوم.
- الدرس العاشر: صورٌ روحانيّةٌ للحجّ والزكاة.
- الدرس الحادي عشر: أخلاقيّات القرآن الكريم.
- الدرس الثاني عشر: أخلاقيّات المحبّة والرفقة والصداقة.

## الدرس الأوّل

# واقعيّة العبادات وموقعها في السلّم الكماليّ

- أهداف الدرس
- واقعيّة العبادات
- العبادات في السلّم الكماليّ
- واقعيّة العبادات وفلسفة الكمالات الإلهيّة
- العبادات... طريقٌ وهدفٌ قريبٌ
- مذاكرةٌ

## أهداف الدرس

١. بيان حدّ واقعيّة العبادات.
٢. بيان كون واقعيّة العبادات نفياً للإفراط والتفريط.
٣. بيان معنى العبادات الخاصّة والعامّة.
٤. بيان أبعاد السلّم الكماليّ وعلاقة ذلك بموقعيّة العبادات.
٥. تحديد هويّة العبادات الخاصّة والعبادات العامّة.
٦. بيان الأصل الثابت الذي تقوم عليه فلسفة الكمالات الإلهيّة.
٧. بيان الحقيقة الثنائيّة التي لابدّ أن يتعايش معها الإنسان المؤمن.
٨. بيان علاقة كرم الله وفيّاضيّته بصدور الخلق منه.

## واقعيّة العبادات

للعبادات كافّةً شكلٌ معيّنٌ ومضمونٌ؛ فهي من حيث الشكل تعبّديّةٌ محضاً، لا تمسّها يد الوضع البشريّ البتّة، كما هو الحال في أجزاء الوضوء، والأركان المخصوصة في الصلاة، والطواف بالكعبة سبعاً، والوقوف بعرفة ورمي الجمرات، وغير ذلك ممّا هو معروفٌ ومدوّنٌ في الرسائل العمليّة.

وأمّا من حيث المضمون فإنّها ـ إجمالاً ـ مقدار ما يتوصّل إليه العابد من مراتب الكمالات الإلهيّة، والقرب من الله تعالى، والتمحّض في مقام العبوديّة.

والواقعيّة المشار إليها هي حاصل الجمع بين الشكل والمضمون؛ فلا واقعيّة للعبادة المبتدعة وإن اشتملت ـ على نحو الفرض ـ على كلّ رسوم المضمون، كما لا ثمرة في الشكل دون الاقتراب بالمضمون.

من هنا تبطل مقولة المتطرّفين (دائرة التفريط) في نعت الشكل بالقشور، كما تبطل مقولة المتطرّفين الآخرين (دائرة الإفراط) في تجاوز المضمون من خلال التمسّك بالشكل والتركيز عليه؛ فلا أولئك واقعيّون ولا هؤلاء واقعيّون، وكما يقال: «إنّ الله يحبّ أن يُعبد من حيث يريد، لا من حيث نريد»؛ فلا الشكل وحده يغني عن المضمون، ولا المضمون وحده يغني عن الشكل، بل إنّ كمال الشكل لا يُنال دون المضمون، وإنّ كمال المضمون لا يُنال دون الشكل؛ وقد جاء في الأخبار ما يرمي إلى بطلان واقعيّة العبادة إذا ما حصل خللٌ متعمّدٌ في الشكل أو المضمون؛ ومن ذلك ما روي عن زرارة عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «بينا رسول الله صلى الله عليه وآله جالسٌ في المسجد إذ دخل رجلٌ فقام يصلّي فلم يتمّ ركوعه ولا سجوده فقال صلى الله عليه وآله: **نقرٌ كنقر الغراب! لئن مات هذا وهكذا صلاته ليموتنّ على غير ديني**»[1].

## العبادات في السلّم الكماليّ

للسلّم الكماليّ ثلاثة أبعادٍ هي:

**البعد الأوّل**: يتعلّق بنفس الذات الإنسانيّة وحركتها الفكريّة والسلوكيّة.

**البعد الثاني**: يتعلّق بعلاقة الذات مع بارئها.

**البعد الثالث**: يتعلّق بعلاقة الذات مع سائر الموجودات الإمكانيّة.

وأمّا العبادات فلها مجالان أو مساحتان:

**المساحة الأولى**: العبادات الخاصّة بالمعنى الاصطلاحيّ، من قبيل الصلاة والصوم والحجّ والزكاة.

**المساحة الثانية**: العبادات العامّة بالمعنى الأوسع من الاصطلاحيّ،

---

(١) الفروع من الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٣، ص٢٦٨، ح٦.

الشامل للاصطلاحيّ والناظر لغيره بالاستعمال؛ من قبيل: طلب العلم عبادةٌ، والنصيحة عبادةٌ، والعمل على تحسين الأخلاق عبادةٌ، والنظر إلى الكعبة عبادةٌ، والنظر لوجه أمير المؤمنين عليٍّ ولوجه المؤمن ولوجه العالم عبادةٌ، بل مجالسة العالم عبادةٌ، وكلّ عملٍ قُصد به وجه الله فهو عبادةٌ وإن كان عملاً حرفيّاً.

إذا اتّضح ذلك فاعلم أنّ سلّم الكمالات الإلهيّة ـ الذي يدور حول نقطةٍ مركزيّةٍ، وهي: نيل القرب من الله تعالى ـ شاملٌ للعبادات الخاصّة والعامّة معاً، ولا يعلم تحديداً أيّ القسمين أكثر تأثيراً في تحقيق أكبر قدرٍ ممكنٍ من القرب؛ بيد أنّ القدر المتيقّن هو أنّ العبادات الخاصّة شرطٌ في قبول وتحقيق آثار العبادات العامّة، وهذان القسمان لشدّة ارتباطهما ـ لاسيّما قسم الخاصّة منهما ـ بسلّم الكمالات الإلهيّة في نيل القرب من الله تعالى فإنّه أصبح لهما بمثابة اللازم الذاتيّ أو الصفة العينيّة؛ فلا تكاد أن تفصل بين العبادة والسلّميّة.

وهذا الاندكاك هو الأنسب لطبيعة وفلسفة الكمالات الإلهيّة القائمة على أصلٍ ثابتٍ، وهو عدم الثبات نفسه، «فالإنسان مطلقاً إمّا في ارتفاعٍ أو في انحدارٍ، فلسفةٌ خلت أبجديّتها من التوقّف على كمالٍ ما؛ فالمقيم للصلاة في حالة ارتقاءٍ دائمة، والتارك لها في حالة انحدارٍ دائمة، وإن كان معذوراً في الترك، وهذه الصفة لا تقتصر على الأمر الواجب فعلاً والمحرّم تركاً في صورة الإيجاب، ولا في العكس سلباً، وإنّما تشمل كلّ تفصيلات الشريعة، فتدخل المستحبّات والمكروهات معاً، بل لا يبعد دخول المباحات أيضاً؛ فإنّ المباحات لا تمثّل صورةً عبثيّةً، وإنّما هي حلقةٌ في سلّم التكامل»[1].

---

(١) الدعاء؛ إشراقاته ومعطياته، من أبحاث المرجع الدينيّ السيّد كمال الحيدريّ: ص١٤٢.

إنّ الذنب ـ على سبيل الفرض ـ في فلسفة الكمالات الإلهيّة لا يعني ترك الارتقاء في السلم الكماليّ فحسب، بل يعني انحداراً وتسفّلاً بلا توقّفٍ، وبذلك يكون تارك المندوب وفاعل المكروه منحدراً متسفّلاً بلا توقّفٍ، وهذا الانحدار والتسفّل حاصلٌ حتماً، سواءٌ كان المذنب متعمّداً أم مجبوراً؛ فالمريض إذا ترك الدواء عمداً أو سهواً أو اضطراراً فالنتيجة واحدةٌ، وهي عدم الامتثال للشفاء.

وهذا ما يجعلنا ننظر إلى الطاعة والمعصية بصورةٍ تختلف تماماً عن النظرة السطحيّة للعبادات، بل سيحصل انقلابٌ عندنا في حركتنا التكامليّة، وعندئذٍ سوف نفهم بعمقٍ معنى ندم الإنسان في الدار الآخرة على كلّ نفَسٍ تنفّسه بغير ذكر الله تعالى[1]؛ ولنتأمّل في قول الإمام الصادق عليه السلام: «**ومن لم ير الزيادة في نفسه فهو إلى النقصان، ومن كان إلى النقصان فالموت خيرٌ له من الحياة**»[2].

إنّها كلمةٌ حكت بدقّةٍ فلسفة الكمالات التي خلت أبجديّتها من التوقّف على كمالٍ ما كما تقدّم، فإمّا إلى ارتفاعٍ أو إلى انخفاضٍ، لأنّها فلسفةٌ مليئةٌ بالحياة والحركة، فلسفةٌ نستجلي من خلالها معنى الخلود وعظمته، وهذا ما نأمل الوقوف عنده في مناسباتٍ أخرى.

## واقعيّة العبادات وفلسفة الكمالات الإلهيّة

إنّ واقعيّة العبادات وفلسفة الكمالات الإلهيّة تفرض علينا حالة السموّ والرقيّ؛ فدون ذلك يعني الابتعاد عن تحقيق واقعيّة العبادات من جهةٍ، والتسفّل في الكمالات من جهةٍ أخرى. وحيث إنّ واقعيّة العبادات تفرض

---

(١) انظر: الدعاء؛ إشراقاته ومعطياته: ص١٤٢.

(٢) معاني الأخبار للشيخ الصدوق: ص٣٤٢، ح٣.

على العابد تحصيلها فإنّها بنفسها ستكون داعيةً لتحقيق الكمالات، وحيث إنّ فلسفة الكمالات الإلهيّة تحفّز وتحرّض العابد على التواصل والرقيّ فإنّها بنفسها تشكّل ضمانةً لتحصيل واقعيّة العبادات وإبقائها وتعميقها.

## العبادات... طريقٌ وهدفٌ قريبٌ

أمّا كون العبادات طريقاً فلأنّها موصلةٌ إلى الكمالات الإلهيّة؛ فيكون الهدف المقصود هو نفس الكمال، وأمّا كونها هدفاً فلأنّها أحد وجوه سرّ الخلقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)، كما أنّ هدفيّة الكمال ليست نهائيّةً، فهنالك غايةٌ أبعد وأجلّ، وهي نيل رضوان الله تعالى، ونيل الرضوان صورةٌ حاكيةٌ عن واقعيّة الوصول.

ثمّ إنّ الله تعالى غنيٌّ عن الطريقيّة وعن الأهداف القريبة والبعيدة؛ فالطريقيّة إنّما احتيج لها لقصورٍ ظاهرٍ في الإنسان، والهدفيّة بمراتبها سبلٌ ترشيديّةٌ لضبط ونظم سير وسلوك الإنسان؛ فالإنسان بلا هدفٍ يسير نحوه سيعيش في تيهٍ وضياعٍ؛ فلابدّ إذن من توحيد حركته نحو هدفٍ واضحٍ ليتمكّن من الوصول، فمن لم يرسم له هدفاً فحركته الكماليّة في تخبّطٍ وضياعٍ.

من هنا لابدّ أن يتعايش الإنسان المؤمن مع هذه الحقيقة الثنائيّة: حقيقة الطريقيّة والهدفيّة، وحقيقة الغنى التامّ لله تعالى عن تلكم الطريقيّة والأهداف مهما كانت الطريقيّة والأهداف نبيلةً وعظيمةً، وإلّا لزم نسبة النقص لله تعالى. وهذا الغنى ذاتيٌّ وليس عرضيّاً، حتّى في إيصال الخير لخلقه هو في غنىً تامٍّ عنه، فضلاً عن غناه في إيصال الخير لنفسه.

قال شيخنا الأستاذ الآمليّ: «وحيث إنّ الخالق تعالى غنيٌّ عن العالمين، فليس بناقصٍ؛ فلا يفعل فعلاً لغرضٍ يتوخّاه وغايةٍ يطلبها، وإلّا لزم أن يكون بذاته ناقصاً ومحتاجاً، ويصير بغيره كاملاً ومستغنياً، وحاشا الغنيّ المحض

عن الفاقة، وسبحان الكامل الصرف عن النقص، ولا ميز في الغرض المنفيّ والغاية المسلوبة عنه تعالى بين أن يكون هو جلب النفع إلى نفسه أو إيصال الخير إلى الغير؛ إذ لو كان إيصال ذلك الخير إلى الغير فرضاً له وغايةً لذاته، يلزم أن يكون ذاته تعالى بدون ذلك الإيصال ناقصاً ومعه يصير كاملاً، وهو محالٌ، بل هو تعالى جوادٌ محضٌ، يهب ما ينبغي كما ينبغي، لا لعوضٍ ولا غرضٍ، وإن كان فعله تعالى متن الحكمة وينبوع الخير ومعدن البركة»[1].

وهذه الحقيقة سجّلها القرآن في أكثر من موردٍ، منها قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾ (إبراهيم: ٨)، وإنّما وقع الخلق منه لأنّه ذو الرحمة، حيث قوله: ﴿**وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ**﴾ (الأنعام: ١٣٣). ولأنّه كريمٌ وفيّاضٌ ومقتضى كرمه وفيضه العطاء، فلو لم يقع منه الخلق لقيل في حقّه: لم لم يقع منه ذلك وهو الكريم الفيّاض؟ وأمّا إذا وقع الخلق منه ـ كما هو الواقع ـ فذلك هو مقتضى القاعدة، وكما يقال في المباني الفلسفيّة: إنّ الذاتيّ لا يعلَّل؛ فلا يُسأل الله تعالى عن سبب صدور الخلق منه؛ لأنّ الذاتيّ لا يعلّل، وإنّما يُسأل عن ذلك من لم تكن فيّاضيّته ذاتيّةً.

فإذا ما تعايش المؤمن مع حقيقة غنى الله تعالى عن عبادته سيلتفت إلى أنّ الحركة والطريقيّة والهدفيّة القريبة والبعيدة تبدأ من الإنسان وتنهي إليه، والإنسان ـ ذاتيّاً ـ يتحرّك ذاتيّاً باتّجاه مصالحه؛ فلو علم بأنّ عبادته لله تعالى ليس هو المنتفع منها، وأنّ رضا الله تعالى كماله لله تعالى، سوف تعيش حركته نوعاً من الانقباض، لأنّ الإنسان ـ كما عرفت ـ يتحرّك ذاتيّاً باتّجاه مصالحه؛ وهنا أراد الله تعالى بمقتضى حكمته وإطلاقيّته في الكمال أن يجعل الحركة باتّجاه

(١) أسرار الحجّ، آية الله عبد الله جواديّ آمليّ: ص٥ و٦.

الكمال ذاتيّةً، ومزج معها نزعةً فطريّةً، وهي حبّ الكمال والسير ذاتيّاً باتّجاهه؛ وهذا كلّه يرسّخ فكرة الابتداء والانتهاء بالكمال للإنسان وحده، وأنّ الله تعالى غنيٌّ عن العالمين؛ فهو باقٍ على كماله سواءً عُبد من خلقه أم لم يُعبد؛ فالعبادة والمعرفة والكمال غايةٌ اقتضتها الحكمة الإلهيّة للإنسان لا لربّ الإنسان؛ ولهذا المعنى العميق مبانٍ فلسفيّةٌ وعرفانيّةٌ تُطلب في محلّها.

## مذاكرةٌ

١. ما معنى كون العبادات من حيث الشكل تعبديّةً محضاً؟
٢. هل نتحصّل على واقعيّة العبادات بإحراز الشكل أو المضمون فقط؟
٣. ما هو موقع العبادة المبتدعة المشتملة فرضاً على كلّ رسوم المضمون؟
٤. ما هي الأبعاد الثلاثة للسلّم الكماليّ؟
٥. ما نعني بالعبادات العامّة والعبادات الخاصّة؟
٦. ما هو الأصل الثابت لفلسفة الكمالات الإلهيّة، وما علاقة قول الإمام الصادق عليه السلام: «**ومن لم ير الزيادة في نفسه فهو إلى النقصان...**» به؟
٧. لمن عائديّة الأهداف القريبة والبعيدة للعبادات؟
٨. هل هدفيّة الكمال نهائيّةٌ، وما يمكن أن يتصوّر بعدها؟
٩. ما هي الحقيقة الثنائيّة التي لابدّ أن يتعايش معها الإنسان المؤمن؟
١٠. ماذا نفهم من كون الله تعالى غنيّاً حتّى في إيصال الخير لخلقه؟
١١. ما علاقة كرم الله وفيّاضته بصدور الخلق منه؟
١٢. حبّ الكمال أمرٌ ذاتيٌّ أم مكتسبٌ؟ وما أثر ذلك على تحقيق أهدافه؟

# الدرس الثاني

# العبادات في رسومها القرآنيّة

- أهداف الدرس
- قرآنيّة العبادات
- مذاكرة

## أهداف الدرس

١. بيان رسوم العبادة قرآنيّاً، وكونها حلقاتٍ مترابطةً لا تنفصل عن بعضٍ.
٢. بيان معنى التوحيد الذاتيّ والصفاتيّ والتوحيد في العبادة.
٣. بيان كون قصد الجنّة في العبادات، وأنّ الخلاص من العذاب ليس مذموماً شرعاً.
٤. توضيح كون قصد نيل الجنّة والخلاص من النار عادةً ما يقع عرضاً لا ذاتاً.
٥. إبطال دعوى بطلان العبادة إذا قصد بفعلها تحصيل الثواب.
٦. بيان أنّ تصوير الإخلاص على مرتبةٍ واحدةٍ مخالفٌ لمقتضى التحقيق.
٧. بيان أنّ التلبّس بمظاهر العبادات من أعظم رسوم العبوديّة.
٨. بيان أنّ الطاغوتيّة شاملةٌ لأتباع الشيطان والحاملين لصفاته والمدافعين عنه.
٩. بيان أنّ ديمومة العبادات تنسجم مع العبادة بالمعنى العامّ.
١٠. بيان أنّ للشكر معنىً إضافيّاً على العبادة.
١١. بيان أنّ التقوى والطاعة كمالان تمنحهما العبادة الخالصة لله تعالى.
١٢. بيان أنّ تمام رسوم العبوديّة في الوصول.

## قرآنيّة العبادات

تعرّض القرآن الكريم إلى موضوعة العبادات بشكلٍ مستفيضٍ، وحدّد لنا رسوم عبادته بشكلٍ تامٍّ، وهذه الرسوم القرآنيّة حلقاتٌ مترابطةٌ لا ينفصل بعضها عن بعضٍ أبداً، وإلّا وقع المحذور الذي أهونه عدم قبول العبادة، وأعظمه وقوع الشرك والعياذ بالله تعالى.

أمّا الرسوم القرآنيّة لعبادة الله سبحانه فهي:

**الرسم الأوّل: العبادة فرع التوحيد**

قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾ (الأنبياء: ٢٥)، فلا تُتصوّر عبادتنا التوحيديّة لله سبحانه دون الإقرار المسبق بألوهيّته ووحدانيّته، وإلّا كنّا على خطرٍ عظيمٍ من التعرّض لشبح الشرك الناشئ عادةً من شدّة الاقتران بالحسّ أو متابعة الوهم[1].

**الرسم الثاني: خلوص العبادة من مظاهر الشرك مطلقاً**

قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً**﴾ (الكهف: ١١٠)، وهذا الشرك المنهيّ عنه ليس الشرك الذاتيّ أو الصفاتيّ، وإنّما الشرك في العبادة، فهنالك من يعتقد بوحدانيّة الذات المقدّسة، وأنّها الوحيدة الموصوفة بالألوهيّة، وهذا هو معنى التوحيد الذاتيّ (الذي يقع في قباله الشرك في الذات) كما أنّ هنالك من يعتقد بعينيّة الصفات الذاتيّة الإلهيّة، فهي ليست زائدةً على الذات، وهذا هو التوحيد الصفاتيّ (الذي يقع في قباله الشرك في الصفات) ولكن مثل هذا الموحّد الذاتيّ والصفاتيّ قد يقع منه شركٌ في العبادة، وهذا الشرك العباديّ يكمن في قصد الغير أو إشراكه مع الله تعالى في العبادة، من قبيل الرياء المسمّى بالشرك الأصغر[2]، فإنّه يتنافي مع قصد عبادته، وإن

---

(١) إنّ من أعظم الأسباب المفضية للوقوع في حبائل الشرك: الاندكاك في عالم الحسّ، فتضيق دائرة التجرّد والمجرّدات عنده فيضفي صفة الجسميّة للإله المعبود، ويفترض له مصداقاً حسّيّاً في الخارج، كما هو حال سائر المشركين تاريخياً، وأمّا الوهم فإنّ الإنسان إذا لم يأنس بصناعة البرهان ويتغافل عن الفطرة الحاكمة بالتوحيد يفترض له الوهم شركاء، ويساق لوهمه شيئاً فشيئاً.

(٢) قال رسول الله ﷺ: «**إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**. قالوا: وما الشرك

كان المرائي ـ كما هو ظاهر الحال ـ لا يقصد في ريائه عبادة الآخرين، غير أنّ العمل العباديّ لا يصحّ أن يُقصد فيه إلّا الله تعالى، فإن قُصِد في التوجّه شيء ما ـ وإن لم تُقصد عبادته ـ عُدّ ذلك الشيء شريكاً في العبادة، وعُدّ عمله شركاً، ولكنّه شركٌ في العبادة وليس شركاً في الذات أو الصفات.

فإن قيل: إنّ الإنسان عادةً ما يقصد في عبادته نيل الجنّة والخلاص من النار، وهذا الأمر لا يخلو من الغيريّة؛ قلنا: هو كذلك، ولكنّه لا يُعدّ رياءً؛ فالرياء قصد الغيريّة في أمرٍ دنيويٍّ، وفي طلب الجنّة والخلاص من النار قصد الغيريّة في أمرٍ أخرويٍّ. هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى: فإنّ قصد الجنّة في العبادات ليس مذموماً شرعاً، وإن كان مثل هذه العبادة يعدّ عبادة التجّار كما جاء في الخبر[1]؛ بيد أنّ ذلك ليس ممنوعاً شرعاً، ولا يستلزم محذوراً كبيراً؛

---

الأصغر يا رسول الله؟ قال: **الرياء، يقول الله عزّ وجلّ يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الّذين كنتم تراءون في الدنيا هل تجدون عندهم ثواب أعمالكم؟»**. (عدّة الداعي ونجاح الساعي، أحمد بن محمّد بن فهد الحلّي الأسديّ: ص٢١٤)؛ وفي الحديث أيضاً: «**أنّه يؤمر برجالٍ إلى النار فيوحي الله سبحانه إلى مالك خازن النار: يا مالك، قل للنار: لا تحرق لهم أقداماً فقد كانوا يمشون بها إلى المساجد، وقل للنار: لا تحرق لهم وجوهاً فقد كانوا يسبغون الوضوء، وقل للنار: لا تحرق لهم أيدياً فقد كانوا يرفعونها إليّ بالدعاء، وقل للنار: لا تحرق لهم ألسنةً فقد كانوا يُكثرون تلاوة القران، فيقول لهم مالك: يا أشقياء، ما كانت أعمالكم في الدنيا؟ فيقولون: كنّا نعمل لغير الله؛ فيقول لهم: خذوا ثوابكم ممّن عملتم له**». (المصدر السابق: ٢١٥).

(١) روي عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أنّه قال: «**ما عبدتك طمعاً في جنّتك، ولا خوفاً من نارك، ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك**». (عوالي اللآلي، لابن أبي جمهورٍ الأحسائيّ: ج١، ص٤٠٤، ح٦٣) وقوله عليه السلام: «**إنّ قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجّار، وإنّ قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإنّ قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار**».

وإنّما ورد ما يشير إلى ضرورة استحضار تمام رسوم العبادة، والتي منها قصد الله تعالى وحده في العبادة في السرّاء والضرّاء، ففي ذلك القصد تتحقّق أكمل مراتب الإخلاص، فيكون قصد الغير ـ وإن كان أمراً مشروعاً ـ مخالفاً لتماميّة رسوم العبوديّة، بل ذلك يعدّ في الرؤية العرفانيّة من سوء الأدب في حضرته تعالى؛ لأنّه عزّ وجلّ مستحقٌّ للعبادة حتّى إن لم تكن هنالك جنّةٌ أو نارٌ.

جديرٌ بالذكر أنّ كلَّ من قصد نيل الجنّة والخلاص من النار إنّما يقع ذلك منه عرضاً لا ذاتاً؛ فهو قاصدٌ لوجه الله تعالى أوّلاً وبالذات، وبهذا القصد والتوجّه يطمع بنيل الجنّة والخلاص من النار، وإلّا لو كان القصد منحصراً بطلب الجنّة والخلاص من النار فإنّه لا تقع منه عبادةٌ؛ لأنّ أصل العبادة قصد وجه الله تعالى.

ولعلّ هذا ما عناه العلّامة الحلّيّ قُدِّسَ سِرُّهُ من قطع الأصحاب بأنّ قصد غاية الثواب والعقاب مفسدٌ للعبادة[1]؛ لأنّه لم يقع منه قصد وجه الله تعالى، وأمّا لو وقع منه ذلك وامتزج قصده بطلب الجنّة والخلاص من النار فلا ضير عليه، وعبادته صحيحةٌ، وهذا ما التفت إليه الشهيد الثاني قُدِّسَ سِرُّهُ حيث أجاب عن ذلك في قواعده قائلاً: «والظاهر أنّ قصدها مجزٍ؛ لأنّ الغرض بها في الجملة، ولا يقدح كون تلك الغايات باعثاً على العبادة، أعني: الطمع، والرجاء، والشكر والحياء؛ لأنّ الكتاب والسنّة مشتملان على المرهّبات: من الحدود، والتعزيرات والذمّ، والإيعاد بالعقوبات؛ وعلى المرغّبات: من المدح والثناء في العاجل، والجنّة ونعيمها في الآجل...»[2].

---

(نهج البلاغة، للإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام: ج٤، ص٥٣).

(١) انظر: المسائل المهنّائيّة، للعلّامة الحلّي: ص٢٩؛ (مخطوطٌ بمكتبة السيّد الحكيم العامّة في النجف، ضمن مجموعٍ برقم: ١١٠٧).

(٢) القواعد والفوائد (في الفقه والأصول والعربيّة)، تأليف الإمام أبي عبد الله محمّد بن

فمن قصد هذه الأمور دون وجه الله تعالى فلا عبادة له، وهو ما عناه الفخر الرازيّ من أنّ المتكلّمين قد اتّفقوا على أنّ مَن عبد ودعا لأجل الخوف من العقاب والطمع في الثواب لم تصحّ عبادته، فمن أتى بالدعاء وسائر العبادات لأجل الخوف من العقاب، والطمع في الثواب، وجب أن لا يصحّ[1]؛ فإنّه إنّما عنى بذلك قصد نيل الجنّة والخلاص من النار أوّلاً وبالذات؛ حيث لا تقع منه عبادةٌ؛ ولذلك مثّل لهذا المعنى في مطلع تفسيره في سورة الفاتحة، حيث يقول: «لو قال أصلّي لثواب الله، أو للهرب من عقابه، فسدت صلاته...»[2].

وأمّا ما نقله الشيخ البهائيّ من ذهاب الكثير من علماء الخاصّة والعامّة إلى بطلان العبادة إذا قصد بفعلها تحصيل الثواب، أو الخلاص من العقاب، وأنّ هذا القصد منافٍ للإخلاص ـ الذي هو إرادة وجه الله وحده ـ وأنّ من قصد ذلك فإنّه قصد جلب النفع إلى نفسه، ودفع الضرر عنها لا وجه الله سبحانه، فلا يعدّ مخلصاً في ذلك التعظيم والثناء، حتّى بالغ في ذلك السيّد ابن طاووسٍ قُدِّسَ سِرُّهُ[3]؛ فإنّه قولٌ ينبغي توجيهه، فلا يؤخذ على ظاهره الذي لا يمكن الركون إليه.

قال العلّامة المجلسيّ قُدِّسَ سِرُّهُ: «قال بعض المحقّقين: لا عمل يحسب من عبادة الله تعالى ويعدّ من طاعته بحيث يصحّ أن يترتّب عليه الأجر في الآخرة إلّا ما يراد به التقرّب إلى الله تعالى والدار الآخرة، أعني: يقصد به وجه الله

---

مكّيّ العامليّ (الشهيد الأوّل): ج١، ص٧٧. والغريب أنّ بعض الأعلام والمحدّثين قد نقلوا كلمة الشهيد الثاني حرفيّاً مع وقوع بعض التشويه في النقل، ودون الإشارة له!

(١) انظر: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، فخر الدين محمّدٌ الرازيّ: ج١٤، ص١١٨.

(٢) المصدر السابق: ج١ ص٢٢٣.

(٣) انظر: بحار الأنوار، للعلّامة المجلسيّ: ج٦٧، ص٢٣٤.

سبحانه أو التوصّل إلى ثوابه أو الخلاص من عقابه، وبالجملة امتثال أمر الله تعالى فيما ندب عباده إليه ووعدهم الأجر عليه، وإنّما يؤجرهم على حسب أقدارهم ومنازلهم ونيّاتهم، فمن عرف الله بجماله وجلاله ولطف فعاله فأحبّه واشتاق إليه، وأخلص عبادته له لكونه أهلاً للعبادة، ولمحبّته له، أحبّه الله وأخلصه واجتباه وقرّبه إلى نفسه، وأدناه قرباً معنويّاً ودنوّاً روحانيّاً... ومن لم يعرف من الله سوى كونه إلهاً صانعاً للعالم قادراً قاهراً عالماً، وأنّ له جنّةً ينعّم بها المطيعين وناراً يعذّب بها العاصين، فعبده ليفوز بجنّته أو يكون له النجاة من ناره، أدخله الله تعالى بعبادته و طاعته الجنّة وأنجاه من النار لا محالة، كما أخبر عنه في غير موضعٍ من كتابه، فإنّما لكلّ امرئٍ ما نوى؛ فلا تصغ إلى قول من ذهب إلى بطلان العبادة إذا قصد بفعلها تحصيل الثواب أو الخلاص من العقاب، زعماً منه أنّ هذا القصد منافٍ للإخلاص الذي هو إرادة وجه الله سبحانه وحده، وأنّ من قصد ذلك فإنّما قصد جلب النفع إلى نفسه ودفع الضرر عنها لا وجه الله سبحانه، فإنّ هذا قول من لا معرفة له بحقائق التكاليف ومراتب الناس فيها، فإنّ أكثر الناس يتعذّر منهم العبادة ابتغاء وجه الله بهذا المعنى؛ لأنّهم لا يعرفون من الله إلّا المرجوّ والمخوف، فغايتهم أن يتذكّروا النار ويحذّروا أنفسهم عقابها، ويتذكّروا الجنّة ويرغّبوا أنفسهم ثوابها، وخصوصاً من كان الغالب على قلبه الميل إلى الدنيا، فإنّه قلّما ينبعث له داعيةٌ إلى فعل الخيرات لينال بها ثواب الآخرة، فضلاً عن عبادته على نيّة إجلال الله عزّ وجلّ لاستحقاقه الطاعة والعبوديّة، فإنّه قلّ من يفهمها فضلاً عمّن يتعاطاها، والناس في نيّاتهم في العبادات على أقسامٍ أدناهم من يكون عمله إجابةً لباعث الخوف، فإنّه يتّقي النار، ومنهم من يعمل إجابةً لباعث الرجاء، فإنّه يرغب في الجنّة، وكلّ من القصدين ـ وإن كان نازلاً بالإضافة إلى قصد

طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله، لا لأمرٍ سواه ـ من جملة النيّات الصحيحة؛ لأنّه ميلٌ إلى الموعود في الآخرة وإن كان من جنس المألوف في الدنيا... فلو كان مثل هذه النيّات مفسداً للعبادات لكان الترغيب والترهيب والوعد والوعيد عبثاً بل مخلّاً بالمقصود؛ وأيضاً فإنّ أولياء الله قد يعملون بعض الأعمال للجنّة وصرف النار؛ لأنّ حبيبهم يحبّ ذلك، أو لتعليم الناس إخلاص العمل للآخرة، إذا كانوا أئمّةً يُقتدى بهم»[1].

ولا ينبغي الإغفال عن البيانات القرآنيّة الحاثّة على الحركة الكماليّة في ضوء الخوف من الله تعالى والطمع في رحمته، وإنّما الخوف يقع عادةً من عذابه، والطمع يتعلّق عادةً بجنّته؛ قال تعالى: ﴿**تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾ (السجدة: ١٦)؛ وقد كان ديدن الأنبياء والأولياء والصالحين المسارعة إلى فعل الخيرات طلباً لرضا الله تعالى وطمعاً بثوابه، ومن الشواهد على ذلك: ما عليه النبيّ زكريّا وأسرته؛ حيث يقول فيهم تعالى: ﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ**﴾ (الأنبياء: ٩٠).

وهذا أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام يصرّح في وصيّته بما يوافق ما قدّمناه، فقد روى الفضل بن شاذان عن صفوان بن يحيى عن عبد الرحمن بن الحجّاج قال: «بعث إليّ أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام بوصيّة أمير المؤمنين عليه السلام وهي: **بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به وقضى به في ماله عبد الله عليٌّ ابتغاء وجه الله ليولجني به الجنّة ويصرفني به عن النار، ويصرف النار عنّي يوم تبيضّ وجوهٌ وتسودّ وجوهٌ**»[2].

---

(١) مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول: ج٨، ص٨٨ ـ ٩٠، (باب النيّة).

(٢) بحار الأنوار، للعلّامة المجلسيّ: ج٤١، ص٤٠، ح١٩.

نعم، يبقى الكلام في مسألة الإخلاص ـ وقد تقدّمت الإشارة لذلك ـ فهنالك من يرى أنّ قصد نيل الجنّة والخلاص من النار مخرجٌ من دائرة الإخلاص، ولكنّ الصحيح في المقام أنّ ذلك مخرجٌ عن المراتب العليا للإخلاص، فمن قصد وجه الله تعالى دون أن يكون طالباً للأجر والثواب والجنّة، ارتقت به نيّته إلى أعلى مراتب الإخلاص؛ ومن قصد وجه الله تعالى وطلب الأجر والثواب والجنّة نال مرتبةً من الإخلاص بحسبه.

وأمّا من صوّر الإخلاص على مرتبةٍ واحدةٍ فإمّا أن يكون قد خانه التعبير أو غاب عنه التحقيق، والله أعلم بسائر الأمور.

## الرسم الثالث: الاعتقاد الراسخ بأنّ عبادته هي الصراط المستقيم

قال تعالى: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (يس: ٦١)، فعبادته وحده، وطرد الأغيار عن محضر عبوديّته سبحانه هو الصراط المستقيم الذي يكون معه كلّ خيرٍ، والخير منازل ومراتب، وبدونه يكون كلّ شرٍّ، والشرّ منازل ومراتب، ومنازل الخير تصاعديّةٌ، ومنازل الشرّ تسافليّةٌ.

## الرسم الرابع: أن لا يقع شكٌّ أو استهزاءٌ بفاصلٍ أو منسكٍ عباديّ

قال تعالى: ﴿...وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً﴾ (النساء: ١٧٢)، فالمناسك عموماً نجهل علل وأسرار الأمر بها بهذه الكيفيّة المعيّنة، كما في الوضوء والتيمّم ورمي الجمرات، بل وكلّ مناسك الحجّ؛ غير أنّ الهدف الحقيقيّ الذي نعلمه إجمالاً هو أنّ التلبّس بمظاهرها من أعظم رسوم العبوديّة، فلا يصحّ وقوع الاستهزاء أو الاستهجان بها، بل لا يجوز أن يخطر خاطرٌ في القلب عن جدوائيّة ذلك، حيث يكفي في امتثالها أن يكون الآمر بها السيّد المطاع، وهو الحكيم الخبير. ومن المعلوم أنّ تجرّع الدواء

المرّ واستئصال العضو الفاسد، من الأمور المقبولة عقلائيّاً، بل ترك الدواء وترك استئصال العضو الفاسد أمران مستهجنان جدّاً؛ ونحن لا نعلم ما تتضمّنه هذه العبادات من أسرارٍ، إلّا أنّها جعلت لحكمةٍ غير أمر تحقيق العبوديّة، من قبيل استئصال الأنا والأنانيّة والذاتيّة، كما هو الحال في سائر مناسك الحجّ، بل في سائر العبادات، ولكن بدرجاتٍ مختلفةٍ.

من هنا ينبغي الإقدام على تأدية العبادة المأمور بها بإقبالٍ كاملٍ وسعادةٍ تامّةٍ؛ فذلك من آداب وأخلاقيّات العبادة، والتي سيأتي تفصيل المقام فيها.

جديرٌ بالذكر أنّ العزوف عن الدعاء ضربٌ من الاستكبار، وقد ورد عن حريزٍ عن زرارة عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿**...إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾ (غافر: ٦٠)، قال: **هو الدعاء، وأفضل العبادة الدعاء...**»[1].

## الرسم الخامس: اقتران العبوديّة لله تعالى باجتناب الطاغوت

قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ...**﴾ (النحل: ٣٦)؛ فلا جدوى في العبادة المقرونة بموادعة الطاغوت أو عدم البراءة منه؛ فاجتنابه شرطٌ حتميٌّ في تحقيق رسوم العبوديّة، وشرطٌ حتميٌّ في الإخراج من الظلمات إلى النور. فالولاية لله وحده؛ قال تعالى: ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ (البقرة: ٢٥٧)، فعدم اجتناب الطاغوت يفضي إلى الوقوع في حبائله ثمّ اتّخاذه وليّاً، وولاية الطاغوت مرفوضةٌ تماماً، سواءٌ وقعت بالاختيار أم بالإجبار؛

---

(١) الأصول من الكافي، الشيخ الكلينيّ: ج٢، ص٤٦٦، ح١.

والطاغوت وإن كان مصداقه الأبرز الشيطان إلّا أنّه شاملٌ لأتباعه ومريديه وكلّ حاملٍ لصفاته أو مدافعٍ عن أهدافه، فأولئك جميعاً من حزبه[1]؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (فاطر: ٦)؛ فلا يصحّ بعد ذلك اتّخاذه وليّاً.

**الرسم السادس: إدامة العبادة**

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر: ٩٩)؛ وفي ذلك معنىً عميقٌ؛ فإنّ إدامة العبادة تقتضي أن نطلب وجه الله تعالى في كلّ أقوالنا وأعمالنا؛ لا أن نقصر ذلك على الفرائض المعلومة؛ وقد اتّضح آنفاً أنّ هنالك عبادةً خاصّةً وأخرى عامّةً؛ وإنّما الديمومة المتوقّعة والممكنة تنسجم مع العبادة بالمعنى العامّ؛ فلا قابليّة لأحدٍ لإدامة العبادات الخاصّة على مرّ ساعات كلّ يومٍ؛ فذلك مُخرجٌ عن حدّ الاعتدال، وإنّما المطلوب استحضار الله تعالى في كلّ ما يصدر منّا، وهذا هو معنى ديمومة العبادة، بل هو أرقى وجوه العبادة، ومنه نفهم قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٥)؛ لأنّ الصلاة القرآنيّة مشروطةٌ بالخشوع، فلا جدوى منها بلا ذلك، فمثل هذه الصلاة ستكون سهلةً يسيرةً لمن كان يستحضر وجود الله تعالى في أقواله وأفعاله، فهو في خشوعٍ مستمرٍّ؛ فإذا حلّت الصلاة انتقل من خشوعٍ لآخر؛ وأمّا غير الخاشعين في رتبةٍ سابقةٍ فسيحتاجون إلى بذل جهدٍ كبيرٍ

---

(١) ولذلك إن دار الأمر بين متابعة الطاغوت والصيرورة معه ـ ولو من باب تكثير السواد ـ وبين الهجرة إلى مكانٍ آخر، فإنّه من اللازم الهجرة؛ حفظاً للنفس من الانحراف، والدين من الإساءة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً﴾ (النساء: ٩٧). (من سماحة السيّد الحيدريّ).

لاستحضار حالة الخشوع؛ فتكون الصلاة كبيرةً عليهم.

جديرٌ بالذكر أنّ الآية الكريمة قالت: ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾، ولم تقل: (إِلَّا عَلَى الَّذِينَ يَخْشَعُونَ)؛ فعبّرت باسمٍ دون الفعل؛ لأنّ الاسم يدلّ على الثبوت والاستقرار، بخلاف الفعل الدالّ التغيّر والتبدّل، فيكون التعبير باسم الفاعل للدلالة على الديمومة والاستمرار في حالة الخشوع، بل يتحوّل الخشوع من حالةٍ إلى واقعٍ معاشٍ، وهذا هو معنى قولنا: إذا حلّت الصلاة انتقل من خشوعٍ لآخر.

**الرسم السابع: اقتران العبادة بالشكر**

قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (النحل: ١١٤)، إنّ شكر النعم من رسوم العبوديّة؛ فالسيّد إنّما يمنح عبيده من باب التفضّل لا من باب الاستحقاق؛ وهذا التفضّل من لوازمه إبداء الشكر؛ وقد قرّر أرباب الفنّ في أوّل مباحث العقيدة ضرورة معرفة الله الذي أسبغ الوجود على خلقه للزوم شكره.

والشكر وإن كان نوعاً من العبادة إلّا أنّ له معنىً إضافيّاً، وهو الشكر على إتيان النعمة والشكر على التوفيق لعبادته وطاعته؛ فمن طاعته سبحانه الشكر على نعمائه، والشكر على طاعته، وهذا ما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الزمر: ٦٦)؛ أي: اعبده واشكره على عبادته.

وللشكر ثمارٌ عظيمةٌ، أهمّها تحقيق الزيادة في العطاء، حيث ورد عن معاوية بن وهبٍ عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**من أعطي الشكر أعطي الزيادة، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾** (إبراهيم: ٧)»[1]،

(١) الأصول من الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٢، ص٩٥، ح٨.

وشكر النعمة يكمن في اجتناب المحارم، وإتمامه في كلمة الحمد، حيث ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**شكر النعمة اجتناب المحارم و تمام الشكر قول الرجل: الحمد الله ربّ العالمين**»[١]؛ فلا ينبغي الانفتال عن الشكر اغتراراً بما أدّيناه من العمل الصالح؛ فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يُتعب نفسه بالعبادة، فقيل له: يا رسول الله، لم تُتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ فقال: **ألا أكون عبداً شكوراً**[٢]، وإنّما سمّي نبيّ الله نوحٌ بالعبد الشكور لأنّه كان يحمد الله تعالى ويشكره إذا أصبح وإذا أمسى[٣].

**الرسم الثامن: اقتران العبادة بالتقوى والطاعة**

قال تعالى: ﴿**أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ**﴾ (نوح: ٣)، وهنا تكتسب العبادة معناها الكماليّ الحقيقيّ؛ فالتقوى كمالٌ تمنحه العبادة المخلصة لله تعالى، كما أنّ الطاعة المطلقة كمالٌ آخر تمنحه العبادة للعابد؛ ولذلك تريد الآية الكريمة التنبيه إلى ضرورة ترتيب الأثر الفعليّ للعبادة، وهو التقوى والطاعة؛ فمن رتّب أثر الطاعة في المقام كشف عن واقعيّة عبادته لله تعالى وخلوص عمله.

**الرسم التاسع: الإكثار من أسمى مظاهر العبوديّة المتمثّل بالسجود**

قال تعالى: ﴿**فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا**﴾ (النجم: ٦٢)، ففي الآية الكريمة انتقالٌ من الخاصّ إلى العامّ، ومن الفناء إلى التفاني، وبعبارة العرفاء: من المحو إلى الصحو؛ فالسجود من أعظم مظاهر العبوديّة لله تعالى، وفيه يكون مقام

---

(١) المصدر السابق: ج٢، ص٩٥، ح١٠.

(٢) انظر: المصدر السابق: ج٢، ص٩٥، ح٦.

(٣) انظر: علل الشرائع، للشيخ الأقدم الصدوق: ج١، ص٢٩، ح١.

الفناء، وفي تكراره يكون الفناء في الفناء حتّى حصول المحو عن الذات، فإذا انمحى الاعتبار وصار الحاضر وحده ربّ الدار وقع الصحو، وكان المنظور وحده، وفقاً لرسوم الولاية التي سجّلها الوليّ عليه السلام بقوله: «**ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله قبله وبعده ومعه**»[1]؛ وهو ما يسمّى بمقام السرّ[2].

## مذاكرة

١. هل تقع العبادة الواقعيّة بفصل بيان رسوم العبادة بعضها عن بعض؟
٢. هل الشرك في العبادة شركٌ في الذات أم الصفات؟
٣. كيف تصحّ العبادة مع قصد الجنّة والخلاص من العذاب؟
٤. هل قصد الأمور الغيريّة المشروعة مخالفٌ لأصل العبادة؟
٥. ما علاقة التلبّس بمظاهر العبادات برسوم العبوديّة؟
٦. هل الطاغوتيّة منحصرةٌ بالشيطان؟
٧. كيف نضمن ديمومة العبادات؟
٨. ما هو المعنى الإضافيّ للشكر على العبادة؛ وما علاقة التقوى والطاعة بالعبادة الخالصة لله تعالى؟
٩. ما هو آخر رسوم العبوديّة؟

---

(١) مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية، للسيّد الإمام الخمينيّ: ص٢٢.

(٢) هنالك سبعة مقاماتٍ للنفس، وهي المقامات المعروفة على ألسنة العرفاء بمدن العشق السبع وأقاليم الوجود السبعة؛ وهي: (مقام النفس، مقام القلب، مقام العقل، مقام الروح، مقام السرّ، مقام الخفيّ، مقام الأخفى). انظر: مراتب السير والسلوك، للسيّد كمال الحيدريّ: ص٩٢؛ تحت عنوان (معنى الاحتجاب والفناء).

## الدرس الثالث

# العبادات في رسومها الروائيّة

- أهداف الدرس
- العبادات في رسمها الروائيّ
- مذاكرةٌ

## أهداف الدرس

١. بيان الرسوم الروائيّة للعبادات، وكونها رسوماً تكميليّةً للرسوم القرآنيّة.
٢. بيان كون العبادة إرفاقيّةً وليست قهريّةً.
٣. بيان بعض وظائف إمام الجماعة تجاه المصلّين في الأعمال المستحبّة.
٤. بيان الأهداف القريبة والمتوسّطة والبعيدة والنهائيّة للعبادات، وعلاقتها بالتفكّر بالله تعالى.
٥. تفسير معنى كون الدعاء مخّ العبادة، وعلاقته بالسلّم التكامليّ، مع بيان سرّ عدم إمكان الاستغناء عن الدعاء، وبيان الأحوال والهيئة الخارجيّة للدعاء.
٦. تفسير معنى انتظار الفرج وعلاقته بالحلول الإلهيّة.
٧. بيان فلسفة الخوف من الله تعالى في العبادة.
٨. بيان معنى الورع والاجتهاد وما علاقتهما بالعبادة.
٩. بيان معنى الاقتصاد في العبادة، مع تحديد نوع عبادة السرّ.
١٠. بيان سرّ القبول بسجود الملائكة لآدم، ورفض سجود إبليس المباشر.

## العبادات في رسمها الروائيّ

احتلّت العبادة مساحةً كبيرةً في الروايات، سواءٌ ما يتعلّق بحقيقتها أو بفضلها أو بمصاديقها؛ وقد أبرزت لنا عدّة رسومٍ خاصّةٍ لابدّ من متابعتها والعمل في ضوئها؛ وقد ارتأينا عرض جملةٍ من الرسوم التكميليّة للرسوم القرآنيّة وتجاوز التكرار فيها، وهي كالتالي:

**الرسم الأول: حسن النيّة بالطاعة**

(سأل عيسى بن عبد الله القمّيّ أبا عبد الله الصادق عليه السلام: ما العبادة؟ فقال: **حسن النيّة بالطاعة من الوجه الذي يطاع الله منه**؛ وفي حديثٍ آخر قال: **حسن النيّة بالطاعة من الوجه الذي أمر به**»[1]؛ فلا يفترض لنفسه طاعةً غير مأمورٍ بها؛ ولا يُدخل في نيّته ما يتعذّر معه الإتيان بالمأمور به؛ ولا يأتي بمورد الطاعة من طريقٍ فيه معصيةٌ[2]؛ فإنّ الله لا يطاع من حيث يعصى، وإنّما ينبغي أن يتوجّه للمأمور به بنيّةٍ حسنةٍ خاليةٍ من الشوب؛ ويأتي بالأعمال برسومها.

**الرسم الثاني: العبادة إرفاقيّةٌ وليست قهريّةً**

عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام: «**وخادع نفسك في العبادة، وأرفق بها ولا تقهرها، وخذ عفوها ونشاطها إلّا ما كان مكتوباً عليك من الفريضة؛ فإنّه لابدّ من قضائها، وتعاهدها عند محلّها**»[3]، وعن حفص بن البختريّ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**لا تكرّهوا إلى أنفسكم العبادة**»[4]، أي: رغّب نفسك بالعبادة بعدم الإثقال عليها من جهةٍ، وبتعريفها محاسن وثمرات العبادة من جهةٍ ثانيةٍ؛ ولا يصحّ قهرها في فرض العبادة عليها إلّا فيما يتعلّق بالفرائض حيث لا مجال للترك، وإذا كان إكراه النفس على العبادات المندوبة لا مسوّغ له فمن

---

(١) المحاسن، أحمد بن محمّد بن خالد البرقيّ: ج١، ص٢٦١، ح٣٢١.

(٢) فالدعاء عبادةٌ وطاعةٌ؛ ولكن لابدّ أن لا يكون الدعاء بأمرٍ راجحٍ أو مباحٍ؛ لا بأمرٍ حرامٍ؛ والصدقة عبادةٌ وطاعةٌ ولكن لابدّ أن تكون بمالٍ حلالٍ، فمن تصدَّق بمالٍ مغصوبٍ لم تقع منه عبادةٌ بل وقعت منه المعصية؛ لأنّه تصرّف بما لا يملك؛ والله تعالى لا يطاع من حيث يعصى.

(٣) نهج البلاغة، تحقيق الشيخ محمّد عبده: ج٣، ص١٣٠.

(٤) الأُصول من الكافي، الشيخ الكلينيّ: ج٢، ص٨٦، ح٢.

بابٍ أولى عدم إلجاء الآخرين لذلك؛ فليس من الراجح فرض العبادات المندوبة على الزوجة والأولاد وقهرهم على ذلك، حتّى في صورة كونك فاعلاً لذلك، فإنّه لا يكون مسوّغاً لإكراه الآخرين، وهكذا الحال في إمام الجماعة حيث لا يصحّ منه تأنيب الآخرين على عدم الإتيان بالمستحبّات، وإنّما عليه أن يرغّبهم بذلك ولا يُسمع منهم أحداً نقداً، فضلاً عن السخرية بهم، وإنّما عليه أن يُثني على المشتغلين بالمندوبات.

عن محمّد بن سنانٍ عن أبي الجارود عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **إنّ هذا الدين متينٌ فأوغلوا فيه برفقٍ ولا تكرّهوا عبادة الله إلى عباد الله، فتكونوا كالراكب المنبتّ الذي لا سفراً قطع ولا ظهراً أبقى**»[1]؛ أي: فالدين ليس صفحةً فتُقرأ، ولا مسافة ميلٍ فتُقطع، إنّما هو دين كلّ كمالٍ سابقٍ ولاحقٍ، فأوفدوا له برحابة صدرٍ واسلكوا طريقه بتأنٍّ ورفقٍ؛ وبيّن للعيان أنّ القليل مع الدراية والتوجّه خيرٌ من كثيرٍ مع الغفلة أو القلب الساهي. وما أروع وأدقّ كلمة الرسول صلى الله عليه وآله: «**كالراكب المنبتّ الذي لا سفراً قطع ولا ظهراً أبقى**»؛ فالراكب على دابّته وقد ظلّ الطريق لم يبلغ هدفه من جهةٍ، ولم يرعَ حقّ دابته من جهةٍ أخرى؛ فأجهدها وأهدر وقته بلا طائلٍ؛ وهكذا المكرَه على العبادة، فلا هو منتفعٌ بعبادته ولا هو محتفظٌ بطاقته؛ فيكون أشبه ما يكون بالصائم المرائي لا يصيبه من صومه غير الجوع والعطش.

**الرسم الثالث: العبادة إدامة التفكّر بالله تعالى**

عن أحمد بن محمّد بن خالدٍ عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر عن بعض

---

(١) الأصول من الكافي، الشيخ الكلينيّ: ج٢، ص٨٦، ح١. و(المنبتّ): يقال للرجل إذا انقطع به في سفره وعطبت راحلته: قد أنبتّ، من البتّ بمعنى القطع.

رجاله عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**أفضل العبادة إدمان التفكّر في الله وفي قدرته**»[١]؛ وعن أحمد بن محمّد بن عيسى عن معمّر بن خلّاد قال: سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول: «**ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم، إنّما العبادة التفكّر في أمر الله عزّ وجلّ**»[٢].

إنّ الهدف القريب من العبادات الاصطلاحيّة ـ المفروضة والمندوبة ـ تحقيق الطاعة، والهدف المتوسّط منها الوصول بواسطتها إلى صفاء القلب، والهدف البعيد منها الوصول إلى التأمّل والتفكّر؛ والهدف الأخير هو الوصول إلى الله تعالى؛ فلا وصول بلا تأمّلٍ وتفكّرٍ، ولا تفكّر بلا صفاء قلبٍ، ولا صفاء قلبٍ بلا عبادةٍ خالصةٍ. وكون إدمان التفكّر في الله تعالى وفي أمره ـ يعني: في حكمته في خلقه ـ أفضل العبادة؛ لأنّه يمثّل الهدف البعيد الموصل إلى الهدف الأخير. هذا، وأمّا من تصوّر أنّ أفضل العبادة ـ وهو التفكّر في الله ـ ينال بغير العبادات الاصطلاحيّة فإنّه من تسويلات النفس ووسوسة الشيطان؛ فإنّه لا حقيقة بلا طريقةٍ ولا طريقة بلا شريعةٍ.

### الرسم الرابع: الدعاء مخّ العبادة

عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**الدعاء مخّ العبادة، ولا يهلك مع الدعاء أحدٌ**»[٣]؛ أي: حقيقة العبادة، «ولعلّ التعبير بالمخّ هو للكناية عن كون الدعاء يشكّل حلقة السيطرة في السلّم التكامليّ، فكما أنّ الإنسان بلا مخٍّ سيفقد كلّ شيءٍ، فكذلك العبادة بلا دعاءٍ لا تبقى لها قيمةٌ حقيقيّةٌ»[٤]، والعبادات عموماً

---

(١) الأصول من الكافي، الشيخ الكلينيّ: ج٢ ص٥٥، ح٣.

(٢) المصدر السابق: ج٢، ص٥٥، ح٤.

(٣) الدعوات، لقطب الدين الراونديّ: ص١٨، ح٨.

(٤) الدعاء؛ إشراقاته ومعطياته، للمرجع الدينيّ السيّد كمال الحيدريّ: ص٢٥.

دعاءٌ عامٌّ، والقنوت دعاءٌ خاصٌّ، والدعاء العامّ لا قيمة له بدون الدعاء الخاصّ، وفي كلمته صلى الله عليه وآله: «**ولا يهلك مع الدعاء أحدٌ**»، نتعلّم درساً مهمّاً في كيفيّة تحصيل الوقاية من الهلاك الذي يراد به في المقام الانحراف أو البعد عن الله تعالى أو الوقوع في الفتنة، وليس الموت، فمن الواضح بأنّه: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ (الأنبياء: ٣٥).

ولا يصحّ الاستكبار عن الدعاء وهو مخّ العبادة وحقيقتها، ولعلّ البعض يأنف عن الدعاء أو يغضّ الطرف عنه اعتماداً على علم الله تعالى بحال العبد، ولو كان الأمر كذلك لما سُنّ الدعاء، ولما قال تعالى: ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ...**﴾ (الفرقان: ٧٧)؛ وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «**يدخل الجنّة رجلان، كانا يعملان عملاً واحداً، فيرى أحدهما صاحبه فوقه فيقول: يا ربّ بما أعطيته وكان عملنا واحداً؟ فيقول الله تبارك وتعالى: سألني ولم تسألني؛ ثمّ قال: اسألوا الله وأجزلوا، فإنّه لا يتعاظمه شيءٌ**»[1].

وقد فسّرت العبادة بالدعاء في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾ (غافر: ٦٠)؛ فعن زرارة بن أعينٍ عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، قال: هو الدعاء، وأفضل العبادة الدعاء...**»[2].

بقي أن يعلم أنّ عدم إمكان الاستغناء عن الدعاء راجعٌ إلى ذاتيّة الافتقار

---

(١) عدّة الداعي، أحمد بن فهد الحلّي: ص٤٢. والإجزال الزيادة؛ أي: وزيدوا في الدعاء والطلب فإنّ جميع ما تطلبونه ـ ما دام ممكناً وحلالاً ـ فهو دون عظمته وقدرته المطلقة؛ ولذلك فهو لا يتعاظمه شيءٌ البتّة.

(٢) الأصول من الكافي، الشيخ الكلينيّ: ج٢، ص٤٦٦، ح١.

في الإنسان، والفقير ذاتاً مجبولٌ على الطلب، وقد كان من لطفه تعالى أن جعل دعاءه عبادةً؛ أي جعل ما نحن بمسيس الحاجة له عبادةً، و﴿**اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ**﴾ (الشورى: ١٩).

جديرٌ بالذكر أنّ للدعاء أحوالاً مختلفةً في الهيئة فضلاً عن الباطن، فصورة الدعاء برفع الكفّين لا تصلح لكلّ حالٍ، فهنالك دعاء الرغبة ودعاء الرهبة ودعاء التضرّع ودعاء التبتّل ودعاء الابتهال، ولكلّ دعاءٍ من هذه صورةٌ خاصّةٌ تحكي حال الداعي؛ فقد روى الكلينيّ في الكافي الشريف عن عدّةٍ من أصحابنا عن محمّد بن مسلمٍ قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: **مرّ بي رجلٌ وأنا أدعو في صلاتي بيساري فقال: يا أبا عبد الله، بيمينك. فقلت: يا عبد الله، إنّ لله تبارك وتعالى حقّاً على هذه كحقّه على هذه؛ وقال: الرغبة تبسط يديك وتظهر باطنهما، والرهبة تبسط يديك وتظهر ظهرهما، والتضرّع تحرّك السبّابة اليمنى يميناً وشمالاً، والتبتّل تحرّك السبّابة اليسرى ترفعها في السماء رسلاً وتضعها، والابتهال تبسط يديك وذراعيك إلى السماء، والابتهال حين ترى أسباب البكاء**»[1].

## الرسم الخامس: العبادة انتظار الفرج

عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أفضل العبادة انتظار الفرج**»[2]، وانتظار الفرج لا يعني الكفّ عن التفكير والعمل، وإنّما في حالات الضيق والعسر وعدم توقّع الحلول الناجعة لابدّ من الوثوق والاطمئنان بقدوم الحلول الإلهيّة، كما هو الحال في اجتماع البشر تحت حاكميّةٍ واحدةٍ

---

(١) المصدر السابق: ج٢، ص٤٨٠، ح٤.

(٢) كمال الدين وتمام النعمة، للشيخ الأقدم الصدوق: ص٢٨٧، ح٦.

وهدفٍ واحدٍ، فذلك الأمر لا يبدو يسيراً بالموازين المادّيّة، ولكنّه ممكنٌ جدّاً بالموازين الإلهيّة، فيكون انتظار الفرج هو الوثوق بالحلول الإلهيّة من جهةٍ وتوقّع حصولها من جهةٍ أخرى، بل والعمل على تحقيقها وعدم الوقوف بوجهها طعناً وتشكيكاً.

**الرسم السادس: التنعّم بالعبادة وعشقها**

وفي حديثٍ قدسيٍّ عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**قال الله تبارك وتعالى: يا عبادي الصدّيقين، تنعّموا بعبادتي في الدنيا؛ فإنّكم تتنعّمون بها في الآخرة**»[1]؛ فالعبادات ليست عقوبةً يتلقّاها الإنسان بتذمّرٍ، وإنّما هي طريق صلاحه وسبيل كماله، وهذا ما يتوافق تماماً مع الرغبة والإقبال والتنعّم، بل ينبغي أن تنشأ علاقةٌ استثنائيّةٌ بيننا وبين العبادات تبلغ حدّ العشق، وقد ورد في ذلك عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله فضل الناس مَن عشِقَ العبادة، فعانقها وأحبّها بقلبه وباشرها بجسده وتفرّغ لها، فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا، على عسرٍ أم على يسرٍ»[2].

والقدر المتيقّن من حصول العشق للصلاة ـ مثلاً ـ هو أن تشتاق لها قبل موعدها وتسرع لأدائها بحلولها، وتحسن ركوعها وسجودها، وأن لا يكون همّك بلوغ التسليم فيها.

**الرسم السابع: اقتران العبادة بالخوف من الله تعالى**

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «**إنّ من العبادة شدّة الخوف من الله عزّ وجلّ، يقول الله: ﴿...إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...﴾**»[3]؛ ولذلك يروى أنّ

---

(١) الأصول من الكافي، الشيخ الكلينيّ: ج٢، ص٨٣، ح٢.
(٢) المصدر السابق: ج٢، ص٨٣، ح٣.
(٣) الأصول من الكافي، الشيخ الكلينيّ: ج٢، ص٦٩، ح٧؛ والآية: فاطر: ٢٨.

رسول الله صلى الله عليه وآله إذا قام إلى الصلاة سُمع لخوفه أزيزٌ كأزير المرجل على الأثافي من شدّة البكاء، وهو الذي قد آمنه الله تعالى من عقابه[١].

ولا يعني ذلك أنّ الفضيلة في إتيان العبادة خوفاً من الله تعالى، فذلك وإن كان جائزاً ومقبولاً إلّا أنّه لا يمثّل الحالة السامية؛ فالسموّ في العبادة أن نأتي بها لأنّ الله تعالى يستحقّ منّا ذلك؛ وإنّما الخوف منه تعالى خشية الوقوع في التقصير، وأن لا نكون قد أدّينا رسوم العبوديّة؛ وهذا الخوف الإيجابيّ والحقيقيّ منشؤه المعرفة بالله تعالى؛ ولذلك فإنّ الكثير منّا لا يقع له الخوف من الله في العبادة نتيجة الجهل بالله تعالى، وفي خبرٍ مرويٍّ عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «**كان عليّ بن الحسين عليه السلام إذا قام في الصلاة تغيّر لونه، فإذا سجد لم يرفع رأسه حتّى يرفض عرقاً**»[٢]، وعن أبي حمزة الثماليّ قال: «رأيت عليّ بن الحسين عليه السلام يصلّي فسقط رداؤه عن أحد منكبيه؛ قال: فلم يسوّه حتّى فرغ من صلاته؛ قال: فسألته عن ذلك، فقال: **ويحك أتدري بين يدي من كنت؟! إنّ العبد لا يُقبَل من صلاته إلّا ما أقبل عليه منها بقلبه...**»[٣]؛ وإنّما كان عليه السلام يفعل ذلك خشيةً من الله تعالى.

## بكائيّات الإمام عليٍّ السجّاد عليه السلام

في أحد أدعية الإمام السجّاد عليه السلام في السحر عن طاووسٍ أنّه قال: «رأيته ـ أي: عليّ بن الحسين عليه السلام ـ يطوف من العشاء إلى السحر ويتعبّد، فلمّا لم ير

---

(١) انظر: الخرائج والجرائح، قطب الدين الراونديّ: ج٢، ص٩١٦. والأزيز من أزّت القدر، أي: غلّت وصوّتت، والمرجل هو القدر، والأثافي حجارةٌ توضع تحت القدر.

(٢) الفروع من الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٣، ص٣٠٠، ح٥؛ وقوله: (يرفض)، أي: يرشّ عرقاً.

(٣) علل الشرائع، للشيخ الصدوق: ج١، ص٢٣١، ح٨.

أحداً رمق السماء بطرفه، وقال: **إلهي غارت نجوم سماواتك، وهجعت عيون أنامك، وأبوابك مفتّحاتٌ للسائلين، جئتك لتغفر لي وترحمني، وتريني وجه جدّي محمّد صلى الله عليه وآله في عرصات القيامة.**

ثمّ بكى وقال: **وعزّتك وجلالك ما أردتُ بمعصيتي مخالفتك، وما عصيتك إذ عصيتُك وأنا بك شاكٌّ، ولا بنكالك جاهلٌ، ولا لعقوبتك متعرّضٌ، ولكن سوّلت لي نفسي، وأعانني على ذلك سترك المرخى به عليّ؛ فأنا الآن من عذابك من يستنقذني؟ وبحبل من أعتصم إن قطعتَ حبلك عنّي؟ فوا سوأتاه غداً من الوقوف بين يديك إذا قيل للمخفّين جوزوا وللمثقلين حطّوا! أمع المخفّين أجوز، أم مع المثقلين أحطّ؟ ويلي كلّما طال عمري كثرت خطاياي ولم أتب، أما آن لي أن أستحييَ من ربّي.**

ثمّ بكى، وأنشأ يقول:

**أتحرقني بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائي ثمّ أين محبّتي**
**أتيت بأعمالٍ قباحٍ رديّةٍ ... وما في الورى خلقٌ جنى كجنايتي**

ثمّ بكى، وقال: **سبحانك تُعصى كأنّك لا تُرى، وتحلم كأنّك لم تُعص، تتودّد إلى خلقك بحسن الصنيع كأنّ بك الحاجة إليهم وأنت يا سيّدي الغنيّ عنهم؛** ثمّ خرّ إلى الأرض ساجداً، فدنوت منه، وشلت رأسه، ووضعته على ركبتي، وبكيت حتّى جرت دموعي على خدّه، فاستوى جالساً وقال: **من ذا الذي أشغلني عن ذكر ربّي؟** فقلت: أنا طاووسٌ يا بن رسول الله، ما هذا الجزع والفزع؟ ونحن يلزمنا أن نفعل مثل هذا ونحن عاصون جافون! أبوك الحسين بن عليٍّ، وأمّك فاطمة الزهراء، وجدّك رسول الله صلى الله عليه وآله! قال: فالتفت إليّ وقال: **هيهات هيهات طاووس، دع عنّي حديث أبي وأمّي وجدّي، خلق الله الجنّة لمن أطاعه وأحسن ولو كان عبداً حبشيّاً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان ولداً قرشيّاً،**

**أما سمعت قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠١)؟ والله لا ينفعك غداً إلّا تقدمةٌ تقدّمها من عملٍ صالحٍ»**[1].

وأمّا الفوائد المنظورة من حديث طاووسٍ وبكائيّة الإمام السجّاد فهي:

١. إنّ عيون الخلق تنام وأبوابهم توصد، وأمّا عين الله فلا تنام، وأبوابه مشرّعةٌ أبداً، فتكون فرصة التوبة والإنابة والعود متاحةٌ.

٢. إنّ الإنسان المؤمن تصدر منه المعصية لا عن شكٍّ ولا لطلب العقوبة، وإنّما بسب الضعف أمام تسويلات النفس والاطمئنان بستره عليه.

٣. هنالك ساعةٌ يقال فيها للمخفّين جوزوا وللمثقلين حطّوا؛ ولا يعلم أحدٌ أمع المخفّين يكون أم مع المثقلين.

٤. إنَّ الإنسان موكولٌ إلى عمله لا إلى نسبه وحسبه؛ فالجنّة لمن أطاع الله مطلقاً والنار لمن عصاه مطلقاً.

**الرسم الثامن: العبادة إلحاق الاستغفار بكلمة التوحيد**

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**خير العبادة الاستغفار، وذلك قول الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ...﴾** (محمّد: ١٩)»[2]، ولعلّه استغفارٌ عن أيّامٍ سالفةٍ خلت من توحيده سبحانه. والتوحيد ذاتيٌّ وصفاتيٌّ وأفعاليٌّ، وقد ينجو الإنسان من شبهات الشرك في التوحيد الذاتيّ والصفاتيّ، ولكن القليل القليل من ينجو من الوقوع في براثن الشرك العمليّ؛ فاحتاجت الشهادة بالتوحيد إلحاقها بالاستغفار.

إنّ كلّ ظنٍّ سيّءٍ بالله تعالى ينبغي أن يكفَّر بكلمة التوحيد والاستغفار،

---

(١) الصحيفة السجّاديّة، للإمام عليّ زين العابدين عليه السلام: ص١٧٦، الرقم: (٩١).

(٢) المحاسن، أحمد بن محمّد بن خالد البرقيّ: ج١، ص٣٠، ح١٦.

فالتوحيد رفعٌ لمناشئ سوء الظنّ، والاستغفار محوٌ لآثاره.

**الرسم التاسع: العبادة مراتب أشدّها الورع**

عن فضيل بن يسارٍ قال: قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «**إنّ أشدّ العبادة الورع**»[١]، والورع هو كفّ النفس عن المعاصي ومنعها عمّا لا ينبغي؛ فعن حفص بن غياثٍ قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الورع من الناس، فقال: **الذي يتورّع عن محارم الله عزّ وجلّ**»[٢].

وما أكثر ما وصّى أهل البيت عليهم السلام بالورع، حتّى جعلوه شرطاً في حقيقة العبادة وسبيلاً لحفظ الدين، بل جعلوه شرطاً في نيل ما عند الله سبحانه؛ فعن عمرو بن سعيد بن هلالٍ الثقفيّ عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «قلت له: إنّي لا ألقاك إلّا في السنّين، فأخبرني بشيءٍ آخذ به، فقال: **أوصيك بتقوى الله والورع والاجتهاد، واعلم أنّه لا ينفع اجتهادٌ لا ورع فيه**»[٣]؛ والاجتهاد تحمّل المشقّة في العبادة أو بذل الوسع في طلب الأمر، والمراد منه في المقام المبالغة في الطاعة. وعن حديد بن حكيم قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: **اتّقوا الله وصونوا دينكم بالورع**»[٤]، وعن صفوان بن يحيى عن يزيد بن خليفة قال: «وعظنا أبو عبد الله عليه السلام فأمر وزهّد، ثمّ قال: **عليكم بالورع، فإنّه لا ينال ما عند الله إلّا بالورع**»[٥].

---

(١) الأصول من الكافي، الشيخ الكلينيّ: ج٢، ص٧٧، ح٥.
(٢) المصدر السابق: ج٢، ص٧٧، ح٨.
(٣) المصدر السابق: ج٢، ص٧٦، ح١؛ (باب الورع).
(٤) المصدر السابق: ج٢، ص٧٦، ح٢؛ (باب الورع).
(٥) المصدر السابق: ج٢، ص٧٦، ح٣؛ (باب الورع).

**الرسم العاشر: دوام العمل بالفرائض أعلى مراتب العبادة**

عن أبي حمزة الثماليّ عن عليّ بن الحسين عليه السلام قال: «**من عمل بما افترض الله عليه فهو من أعبد الناس**»[١]؛ ومعنى ذلك: الالتزام بالفرائض على وجهها المطلوب من شكلٍ ومضمونٍ ـ وهو ما أسميناه بواقعيّة العبادة ـ وأن يؤتى بها في أوقاتها، بل في أوّل وقتها؛ فذلك من كمالها فضلاً عن كونه من المسارعة في الخيرات[٢]؛ على أنّ الفرائض المعلومة ما هي إلّا جزءٌ يسيرٌ ممّا افترضه الله تعالى علينا، فكلّ أمرٍ أوجبه تعالى هو فرضٌ بالمعنى الأعمّ، وأمّا ما ينصرف إليه الذهن من العبادات فهي الفروض بالمعنى الأخصّ.

فمن جاء بالفروض بالمعنى الأخصّ على وجهها فهو ليس عابداً فحسب، وإنّما هو من أعبد الناس، وفي ذلك دلالةٌ واضحةٌ على عظمة هذه الفروض.

**الرسم الحادي عشر: الاقتصاد في العبادة**

عن ابن أبي عميرٍ، عن حفص بن البختريّ وغيره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**اجتهدت في العبادة وأنا شابٌّ، فقال لي أبي: يا بنيّ، دون ما أراك تصنع، فإنّ الله عزّ وجلّ إذا أحبّ عبداً رضي عنه باليسير**»[٣].

وقد روي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يجهد نفسه كثيراً في عباداته الليليّة، حيث يقوم على أطراف أصابع رجليه في صلاته لعشر سنين متواصلةٍ، فأنزل الله سبحانه وتعالى في ذلك قرآناً: ﴿**طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**﴾ (طه: ١ـ٢)[٤].

---

(١) المصدر السابق: ج٢، ص٨٣، ح٧.

(٢) قال تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**﴾ (المؤمنون: ٦١).

(٣) الأصول من الكافي، الشيخ الكلينيّ: ج٢، ص٨٧، ح٥.

(٤) انظر: المصدر السابق: ج٢، ص٩٥، ح٦.

فالاقتصاد في العبادة لا يعني التقليل منها، وإنّما يعني عدم الإجهاد ولحوق الأذى من جرّاء ذلك؛ فمن أمكنه الإكثار من النوافل دون تتأثّر الفرائض بذلك، ودون أن يصل الحال به حدّ الإجهاد فذلك من الكمال المطلوب. ولعلّ الإنسان لا يصلح أمره إلّا بالعبادة والإكثار منها، ولكن بالنحو المقتصد، وقد قيل في غير هذا المورد: «قليلٌ يقرّ خيرٌ من كثيرٍ يفرّ». وهكذا الحال في العبادات فإنّ القليل منها يؤتى بقلبٍ خاشعٍ خيرٌ من الكثير منها بقلبٍ ساهٍ؛ وقد مرّت بنا كلمة الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام من: «**أنّ العبد لا يُقبل من صلاته إلّا ما أقبل عليه منها بقلبه...**»[1].

## الرسم الثاني عشر: عبادة السرّ مقدّمةٌ على عبادة العلن

عن عمارٍ الساباطيّ قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «**يا عمّار، الصدقة والله في السرّ أفضل من الصدقة في العلانية، وكذلك والله العبادة في السرّ أفضل منها في العلانية**»[2]؛ وعبادة السرّ خصوص النوافل، وأمّا الفرائض فيستحبّ كثيراً الإتيان بها في المسجد، ممّا يجعلها مقتضيةً للعلن، بل في إعلانها مصلحةٌ كبيرةٌ؛ وأمّا النوافل فالأمر مختلفٌ تماماً؛ فإنّ الرياء ـ مثلاً ـ لا يقع عادةً في الصلوات المفروضة، وإنّما يقع في النوافل؛ لأنّ الناس لا تمدح ـ عادةً ـ على الفعل الواجب، وإنّما على الفعل المستحبّ، وهذا الأمر قد يوقع البعض في الرياء، حيث يطلب المحبوبيّة في قلوب الناس؛ ولذلك ورد الحثّ على الإتيان بها سرّاً. وفي السرّ يتّضح للنفس نوع ما تأتي به من العبادات، أبنشاطٍ أم بكسلٍ؟ أبرغبةٍ أم بنفورٍ؟ وعندئذٍ يتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود، فمن ثبت له

---

(١) علل الشرائع، للشيخ الصدوق: ج١، ص٢٣١، ح٨.

(٢) الأصول من الكافي، الشيخ الكلينيّ: ج٤، ص٨، ح٢.

نشاطه في حضرة الآخرين، وكسله في غيابهم، فعليه أن يتّهم نفسه وأن يراجع ما هو عليه، والإنسان السويّ عارفٌ بذلك، ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (القيامة: ١٤)، فلا يحتاج إلى الغير في إدراك ذلك، وإن كان يحتاج إلى النصيحة والتنبيه.

**الرسم الأخير: ولاية أهل البيت شرط قبول الأعمال العباديّة**

قال الإمام جعفرٌ الصادق عليه السلام: «**لولا نحن ما عُبد الله**»[١]؛ قال العلّامة المجلسيّ: «أي: نحن علّمنا الناس طريق عبادة الله وآدابها، أو لا تتأتّى العبادة الكاملة إلّا منّا، أو ولايتنا شرط قبول العبادة»[٢].

وكلّ هذه المعاني مقصودةٌ في قوله عليه السلام، والأوّل ظاهرٌ، والثاني واقعٌ لا محالة، والثالث أرجح، فبولايتهم تقبل سائر الأعمال، ومنها العبادات، وما هذا بالأمر الغريب؛ فإنّ الله تعالى اشترط الطهارة المادّيّة والمعنويّة واستقبال القبلة في صحّة الصلاة فضلاً عن قبولها، ومن تلك الشروط في القبول الكينونة على ولايتهم عليهم السلام؛ وإذا ما علمنا بأنّ الله تعالى إنّما يُعبد من حيث يريد لا من حيث نريد فإنّ الأمر سيكون واضحاً؛ فلو كانت العبادات تُقبل بغير شرطٍ لقبل الله تعالى اقتراح إبليس بالسجود له مباشرةً دون أن يسجد لآدم عليه السلام، بيد أنّه سبحانه قبل بسجود الملائكة لآدم عليه السلام ولم يقبل بسجود إبليس له مباشرةً؛ لأنّه سبحانه يُعبد من حيث يريد لا من حيث نريد، فلو أمرنا الله تعالى بشيءٍ لزم فعله، وقد أمر الله تعالى بولاية أهل البيت عليهم السلام، وجعل ولايتهم شرطاً في قبول الأعمال.

---

(١) بحار الأنوار، للعلّامة المجلسيّ: ج٢٤، ص١٩٧، ح٢٤.

(٢) المصدر السابق: ج٢٤، ص١٩٧.

## مذاكرةٌ

١. اذكر خمساً من الرسوم الروائيّة للعبادات (الرسوم التكميليّة).
٢. هل يمكن افتراض طاعةٍ غير مأمورٍ بها، وبأيّ رسمٍ روائيٍّ يتعلّق ذلك؟
٣. ماذا يعني كون العبادة إرفاقيّةً وليست قهريّةً؟
٤. ماذا ينبغي لإمام الجماعة أن يفعل في الأعمال المستحبّة قبال المصلّين؟
٥. ما معنى: «كالراكب المنبتّ الذي لا سفراً قطع ولا ظهراً أبقى)؟
٦. ما الذي يشكّله إدامة التفكّر بالله تعالى بالنسبة لأهداف العبادات؟
٧. هل تنال عبادة التفكّر بالله بغير العبادات الاصطلاحيّة؟
٨. ما سرّ عدم إمكان الاستغناء عن الدعاء؟
٩. ما هي الصورة الخارجيّة لدعاء الرغبة والرهبة والتبتّل والابتهال؟
١٠. ما هي فلسفة الخوف من الله تعالى في العبادة؟
١١. ما معنى قولنا: «التوحيد رفعٌ لمناشئ سوء الظنّ، والاستغفار محوٌ لآثاره)؟
١٢. هل الاقتصاد في العبادة يعني التقليل منها؟
١٣. لماذا صحّ سجود الملائكة لآدم عليه السلام ولم يصحّ سجود إبليس المباشر لله؟

## الدرس الرابع

# أهل البيت مثلٌ أعلى في العبادات

- أهداف الدرس
- علاقة أهل البيت عليهم السلام بالمعرفة والعبادة الملكوتيّتين
- أهل البيت عليهم السلام مثلٌ أعلى في العبادات
- كيفيّة المتابعة للمثل الأعلى
- ثمن المتابعة للمثل الأعلى
- ثمن عدم المتابعة للمثل الأعلى
- مذاكرةٌ

## أهداف الدرس

١. بيان فرعيّة العبادة الحقّة للمعرفة الحقّة.
٢. بيان أسبقيّة أهل البيت على سائر الخلق في المعرفة والعبادة.
٣. بيان انبساط المعرفة الملكوتيّة لأهل البيت عليهم السلام وعلاقته بالعبادة.
٤. بيان هيمنة مقام الولاية العظمى، وحدود انبساط الحقيقة المحمّديّة.
٥. بيان أولي أمرنا في معرفتنا وعبادتنا لله تعالى.
٦. بيان معنى التأسّي بأهل البيت عليهم السلام؛ وعلاقته بالنفحات الإلهيّة.
٧. بيان أنّ (المشارطة والمراقبة والمحاسبة) تشكّل حصناً منيعاً من الانحراف.
٨. بيان أنّ قاعدة الأولويّات عمليّةٌ تنظيميّةٌ يراعى فيها الاستعداد.
٩. بيان ثمن المتابعة للمثل الأعلى وثمن عدم المتابعة له.
١٠. بيان معنى الاستقامة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾، وعلاقته بالمتابعة.

## علاقة أهل البيت بالمعرفة والعبادة الملكوتيّتين

إنّ العبادة الحقّة فرع المعرفة الحقّة، والمعرفة الحقّة هي معرفة الله سبحانه، وقد جاء في الأخبار عن ابن صباحٍ قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**...بعبادتنا عُبد الله، ولولا نحن ما عُبد الله**»[1]؛ عن ابن أبي يعفورٍ قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**...نحن العاملون بأمره، والداعون إلى سبيله، بنا عُرف الله، وبنا عُبد الله، نحن الأدلّاء على الله، ولولانا ما عُبد الله**»[2].

---

(١) الأصول من الكافي، الشيخ الكلينيّ: ج١، ص١٤٤، ح٥.
(٢) التوحيد، للشيخ الصدوق: ص١٥٢، ح٩.

وهذا ما يطرح أمامنا أسئلةً مهمّةً حول أسبقيّتهم بالمعرفة والعبادة، حيث بهم عُرف الله وبهم عُبد الله تعالى؛ فكيف يتسنّى لنا توجيه ذلك مع كونهم عليهم السلام متأخّرين زماناً على سائر الأنبياء والمرسلين، وأنّ أمّة الإسلام هي آخر الأمم ودينها خاتم الأديان ونبيّها خاتم الأنبياء وكتابها خاتم الكتب؟

لا يوجد توجيهٌ لذلك سوى القول بالوجود الملكوتيّ السابق على الوجود الملكيّ؛ والوجود الملكوتيّ فيه انبسطت المجرّدات من الوجود الأعظم السابق عليها، والمسمّى بالوجود الجبروتيّ ـ أو ما يسمّى بالعقل في اصطلاحات الروايات ـ والجبروت بلحاظ الوحدة يكون هو الصادر الأوّل، والصادر الأوّل بحسب الأخبار هو الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أو بمعنىً أدقّ: هو الحقيقة المحمّديّة[1].

وعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**فكيف لا نكون أفضل من الملائكة وقد سبقناكم إلى معرفة ربّنا وتسبيحه وتهليله وتقديسه؟ لأنّ أوّل ما خلق الله عزّ وجلّ أرواحنا، فأنطقنا بتوحيده وتمجيده، ثمّ خلق الملائكة، فلمّا شاهدوا أرواحنا نوراً واحداً استعظمت أمرنا، فسبّحنا لتعلم الملائكة أنّا خلقٌ**

---

(١) عن جابر بن عبد الله الأنصاريّ رحمه الله، أنّه قال: «قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله: أوّل شيءٍ خلق الله ما هو؟ فقال صلى الله عليه وآله: **نور نبيّك ـ يا جابر ـ خلقه الله ثمّ خلق منه كلّ خيرٍ**». (بحار الأنوار، للعلّامة المجلسيّ: ج١٥، ص٢٤، ح٤٣)؛ الحقيقة المحمّديّة ليست شخصاً بعينه، وإنّما هي مقامٌ عالٍ مصداقه الأتمّ هو الرسول الأكرم محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله؛ ولذا سمّيت تلك الحقيقة باسمه الشريف. فشخص الرسول صلى الله عليه وآله الخارجيّ المادّيّ العنصريّ مصداقٌ لتلك الحقيقة الأعلائيّة المقدّسة. (انظر: شرح تمهيد القواعد للشيخ عبد الله جوادي آملي: ص٤٢٦)؛ ولذلك عبّر السيّد الأستاذ: «أو بمعنىً أدقّ: هو الحقيقة المحمّديّة»، للإشارة إلى مصداقيّة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله للحقيقة المحمّديّة.

**مخلوقون، وأنّه منزّهٌ عن صفاتنا، فسبّحت الملائكة بتسبيحنا... فبنا اهتدوا إلى معرفة توحيد الله عزّ وجلّ وتسبيحه وتهليله وتحميده وتمجيده»**[١].

وفي حديثٍ طويلٍ عن أبي ذرٍّ الغفاريّ رضي الله عنه عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله في وصف المعراج، نأخذ منه محلّ الشاهد، وهو قوله صلى الله عليه وآله: «**قلت: يا ملائكة ربّي، هل تعرفونا حقّ معرفتنا؟ فقالوا: يا نبيّ الله وكيف لا نعرفكم وأنتم أوّل من خلق الله... وكنّا نمرّ بكم وأنتم تسبّحون وتحمّدون وتهلّلون وتكبّرون وتمجّدون وتقدّسون، فنسبّح ونقدّس...**»[٢].

ومنه يتّضح أنّ معرفتهم الملكوتيّة قد انبسطت على المجرّدات الملكوتيّة، وبتبع ذلك ما يتعلّق بالعبادة؛ فهم عليهم السلام منبع المعرفة ومنبع العبادة، وهم بوجودهم الجمعيّ يمثّلون عينيّة الحقيقة المحمّديّة، وهي الحقيقة المعبّر عنها قرآنيّاً بالكلمة الطيّبة والشجرة الطيّبة[٣]، وروائيّاً بالشجرة الواحدة[٤]؛ فمن انتمى لها كان طيّباً، ومن انقطع عنها كان خبيثاً[٥].

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، للشيخ الصدوق: ج١، ص٢٠٤، ح٢٢.

(٢) بحار الأنوار، للعلّامة المجلسيّ: ج١٥، ص٨، ح٨. لمراجعة تفصيل المسألة ينظر كتاب: (من الخلق إلى الحقّ)، أو:(مراتب السير والسلوك إلى الله)، للمرجع الدينيّ السيّد كمال الحيدريّ: ص٤٦ فما بعد، تحت عنوان (مظهر اسم الله الأعظم).

(٣) وهو قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ**﴾ (إبراهيم: ٢٤).

(٤) عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أنّه قال: «**قال النبيّ صلى الله عليه وآله: الناس من أشجارٍ شتّى وأنا وأنت ـ يا عليّ ـ من شجرةٍ واحدةٍ**». (عيون أخبار الرضا عليه السلام، للشيخ الصدوق: ج١، ص٦٨، ح٢٦٧).

(٥) وهو قوله تعالى: ﴿**وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن**

قال المحقّق الأشتيانيّ رحمه الله: «جميع هذه الأسفار الحاصلة لخاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وجميع المقامات التي كان واجداً لها، فهي موجودةٌ أيضاً في الحقيقة الكلّيّة لخاتم الولاية المطلقة المحمّديّة، أي: عليّ بن أبي طالب عليه السلام وأولاده الطاهرين المعصومين عليهم السلام»[1]؛ ومقام الولاية العظمى مهيمنٌ على كلّ الولايات السابقة ظهوراً في عالم الملك لا وجوداً في عالم الخلق، أو اللاحقة لهم ممّن بلغوا بسيرهم ذلك.

جديرٌ بالذكر: أنّ هذه الحقيقة المحمّديّة المنبسطة معرفيّاً ومعنويّاً على النبيّ وعترته عليهم السلام ينبسط منها على من دونهم بقدر ما حازوا عليه من الاستعداد: وبقدر ما أذنوا عليهم السلام به[2].

---

﴿قَرَارٍ﴾ (إبراهيم: ٢٦).

(١) شرح مقدّمة القيصريّ على فصوص الحكم، للأشتيانيّ: ص٦٧٠.

(٢) يذكر أنّ كميل بن زياد ـ وهو من خيرة أصحاب أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ومن خواصّه، حتّى أنّه خصّه من دون أصحابه بدعاءٍ سمّي فيما بعد بدعاء كميل ـ لم يجبه الإمام عليه السلام عن سؤالٍ سأله ابتداءً، فقال رحمه الله: أولست صاحب سرّك؟ فقال عليه السلام: «**ولكن يرشح عليك ما يطفح منّي...**»، ثمّ شرع عليه السلام بالإجابة بعد إلحاحٍ من كميل. (انظر: شرح الأسماء الحسنى، الملّا هادي السبزواريّ: ج١، ص١٣١).

وفي الكافي الشريف عن الوشّاء قال: «سألت الرضا عليه السلام فقلت له: جُعلت فداك، ﴿**فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾؟ فقال: **نحن أهل الذكر ونحن المسؤولون**. قلت: فأنتم المسؤولون ونحن السائلون؟ قال: نعم. قلت: حقّاً علينا أن نسألكم؟ قال: نعم. قلت: حقّاً عليكم أن تجيبونا؟ قال: **لا، ذاك إلينا إن شئنا فعلنا، وإن شئنا لم نفعل، أما تسمع قول الله تبارك وتعالى: ﴿هذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾**». (الأصول من الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج١، ص٢١٠، ح٣).

## أهل البيت مثلٌ أعلى في العبادات

فإذا اتّضح أنّهم منشأ المعرفة ومنطلق العبادة فإنّ سبقهم وأصالتهم بذلك يكشف عن كونهم مثلاً أعلى في المعرفة الحقّة وفي العبادة الحقّة، وإذا كان الأمر كذلك فإنّه يتعيّن ـ بلا فصلٍ ـ متابعتهم وملازمتهم وعدم الخروج عن طاعتهم، وهي الطاعة القرآنيّة المسجّلة بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...**﴾ (النساء: ٥٩)؛ فهم أولو أمرنا في معرفتنا لله تعالى وفي عبادتنا لله تعالى، وهذا هو معنى كونهم الواسطة في الفيض في قوس النزول، وكونهم محلّ عرض الأعمال ورفعها في قوس الصعود[1].

---

(١) بيّن السيّد الأستاذ أنّ بين العالم العلويّ والعالم السفليّ قوسٌ نزوليٌّ، فالقوس النزوليّ يرسم العلاقة بين العالم العلويّ ـ أي: الصادر الأوّل وما دونه ـ وبين العالم السفليّ المادّيّ؛ وأنّ الصادر الأوّل هو المبدأ لعالم الإمكان والعلّة الفاعليّة فيه، ولكن لا على نحو الاستقلال.

وهنالك قوسٌ صعوديٌّ يمثّل السلّم الارتقائيّ والتكامليّ الذي يتمّم لنا رسم العلاقة الوطيدة والأصيلة، فإنّ العلاقة ـ في نصف دائرة القوس الصعوديّ ـ تبدأ وتنطلق من العالم السفليّ باتّجاه العالم العلويّ انتهاءً إلى الصادر الأوّل، وهذا معنى العود. فكما بدأنا وانطلقنا من الصادر الأوّل فإنّه يتحتّم علينا الرجوع والعود إليه ﴿**كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**﴾ (الأعراف: ٢٩)؛ و﴿**يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ**﴾ (السجدة: ٥).

لعلّ النكتة في تسمية القوس ـ النزوليّ والصعوديّ ـ بذلك هو أنّ هنالك عمليّة بدءٍ وعمليّة عودٍ، والبدء هو النزول والصدور من الصادر الأوّل، والعود هو الرجوع إلى الصادر الأوّل، فهو مركز وقطب عالم الإمكان، ولكي يصبح تصوير البدء من نقطةٍ والعود إليها ممكناً مثّل لكلٍّ منهما بنصف دائرةٍ، وكلّ نصفٍ هو على شاكلة القوس لكي يصطفّ القوسان فيكوّنا دائرةً، ويكون العود ـ صعوداً ـ إلى المبدأ الصدوريّ والنزوليّ

## كيفيّة المتابعة للمثل الأعلى

إنّ لمتابعتهم في الطاعات أمثلةً كثيرةً ومستوياتٍ مختلفةً؛ فهنالك من يتابع إمامه حتّى في موضع أقدامه[١]، وهنالك من يعبّر عن ولائه لإمامه بأنّه لو خالفه أهل الدنيا ما خالفه[٢]، وهنالك من يضع يده على مقبض سيفه وعيناه بعيني إمامه ينتظر منه إشارةً ليفتك بعدوّه[٣]، وهنالك من يقول لمن يطلب منه الكشف عن أنصار إمامه: والله لو كانوا تحت قدمي ما رفعت قدمي عنهم

---

متعقّلاً، وهذا بخلاف ما لو عبّر عن النزول والصعود بخطّ النزول وخطّ الصعود فإنّه لا يمكن تعقّل العود «الصعود» والوصول إلى نفس نقطة المبدأ والنزول. (انظر: مراتب السير والسلوك، للسيّد كمال الحيدريّ)، فلا خصوصيّة للتعبير بالقوسين سوى أنّهما يقرّبان هذا المعنى؛ ولذلك يقول صدر المتألّهين: «وقد شبّهت الحكماء والعرفاء هاتين السلسلتين النزوليّة والصعوديّة بالقوسين من الدائرة إشعاراً بأنّ الحركة الثانية انعطافيّةٌ غير مارّةٍ على الأولى». (الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة، صدر الدين الشيرازيّ: ج٩، ص٣٢١).

(١) يروى ذلك عن سلمان المحمّديّ (الفارسيّ)، حيث كان في مشيه مع الإمام عليّ عليه السلام لا يتقدّمه أبداً ولا يسير بجانبه، وإنّما يسير خلفه، ولا يضع قدمه إلّا في الموضع الذي رفع عنه الإمام قدمه.

(٢) يروى ذلك عن عمّار بن ياسر عندما بويع لأمير المؤمنين عليّ بالخلافة بعد مقتل عثمان، حيث قال للزبير: «والله يا أبا عبد الله، لو لم يبق أحدٌ إلّا خالف عليّ بن أبي طالبٍ لما خالفته، ولا زالت يدي مع يده؛ وذلك لأنّ عليّاً لم يزل مع الحقّ منذ بعث الله نبيّه صلى الله عليه وآله». (الأمالي، الشيخ الطوسيّ: ص٧٣١).

(٣) يروى ذلك المقداد بن الأسود الكنديّ، حيث كان يضع يده على مقبض سيفه وعيناه بعين الإمام عليّ عليه السلام ينتظر منه إشارةً، وقد كان المقداد أفضل أصحاب الإمام عليّ عليه السلام بحسب ألسنة الروايات. (انظر: الاختصاص، للشيخ المفيد: ص٩).

لك[1]؛ وهكذا نجد في هذا الطريق أمثلةً كثيرةً ومستوياتٍ مختلفةً.

إلّا أنّنا بحاجةٍ إلى بيان كيفيّة متابعة أئمّتنا عليهم السلام عموماً ومتابعة إمام عصرنا المهديّ عجل الله تعالى فرجه الشريف خصوصاً، فكيف يكون لنا ذلك؟

وهنا ينبغي لنا العمل ببعض القواعد القرآنيّة والفقهيّة والعقلائيّة ـ ولكن بالقدر المستطاع ـ ومنها:

## أوّلاً: قاعدة التأسّي

إنّ أوّل أمرٍ ينبغي التحرّك عمليّاً باتّجاهه هو التأسّي بهم عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾ (الأحزاب: ٢١)؛ فنعمل على إفراغ الوسع في تحقيق التأسّي بهم في أقوالهم وأفعالهم وسائر سلوكيّاتهم، ولكن دون أن نتجاوز حدّ الاعتدال فيما يناسب استعداداتنا.

## ثانياً: قاعدة لا يسقط الميسور بالمعسور

فما تعسّر علينا الإتيان به بتفاصيله نأتي به بإجماله، من قبيل تلاوة جزءٍ من القرآن كلّ يومٍ، فلعلّ ذلك يكون معسوراً على الكثير منّا، فنلجأ للميسور

---

(١) يروى ذلك عن المعلّى بن خنيس؛ حيث أمره والي المدينة ـ داود بن عليّ بن عبد الله العباسيّ ـ أن يطلعه على أتباع الإمام الصادق عليه السلام وأعيان شيعته، فامتنع، فهدّده الوالي بالقتل؛ فقال المعلّى: بالقتل تهدّدني! والله لو كانوا تحت قدمي ما رفعتُ قدمي عنهم لك، ولئن قتلتني ليسعدني الله إن شاء الله ويشقيك الله؛ فقتله. (انظر: دلائل الإمامة، محمّد بن جريرٍ الطبريّ: ص٢٥٧، ح٢٠)؛ ويروى ذلك عن هاني بن عروة حين طلب منه عبيد الله بن زياد أن يأتيه بمسلم. فقال له: والله لو كان تحت قدمي ما رفعتُها عنه. (انظر: شرح إحقاق الحقّ، للسيّد شهاب الدين المرعشيّ النجفيّ: ج٢٧، ص٥١٩).

منه، فنقرأ ما تيسّر لنا من القرآن، ويكون تركيزنا على أصل معاهدة القرآن حتّى يقع الأنس في قلوبنا فنزداد ونبلغ المعسور وما بعده، وهكذا الحال في الصلوات المستحبّة والأدعية والزيارات.

**ثالثاً: قاعدة الإقبال**

والمقصود إقبال النفس على العبادة؛ لقولهم عليهم السلام: «**إنّ العبد لا يُقبل من صلاته إلّا ما أقبل عليه منها بقلبه**»[1]، وهذه القاعدة الموضوعة أمامنا لوحظ فيها الوضع النفسيّ العامّ، وهي قاعدةٌ عامّةٌ تسري للعبادات الأخرى؛ فتلاوة القرآن بغير تفهّمٍ وخشوعٍ تصبح مجرّد لقلقة لسانٍ، وهكذا.

وعليه فمقتضى المتابعة لأهل البيت عليهم السلام لحاظ هذه القاعدة بعين الاعتبار.

**رابعاً: قاعدة: العبادة إرفاقيّةٌ وليست قهريّةً**

باللين والرفق تذلّل لنا الصعاب ونتجاوز العقبات، فلا نُقحم أنفسنا إقحاماً، فإنّ ما يُقبَل من العبادة بمقدار إقبال القلب، كما مرّ في قاعدة الإقبال.

**خامساً: قاعدة النفحات**

من ملامح المتابعة ترقّب النفحات الإلهيّة، والنفحات هي العطايا الخاصّة التي تحمل في طيّاتها عتقاً ونجاةً؛ فعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**إنّ لربّكم عزّ وجلّ في أيّام دهركم نفحاتٍ، فتعرّضوا لها؛ لعلّ أحدكم أن تصيبه منها نفحةٌ لا يشقى بعدها أبداً**»[2]؛ وهذه النفحات أرزاقيّةٌ يصيب بها الله من

(١) علل الشرائع، للشيخ الصدوق: ج١، ص٢٣١، ح٨.

(٢) المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد الطبرانيّ: ج٣، ص١٨٠؛ وأيضاً: كنز العمّال، للمتّقي

يشاء من خلقه لأمرٍ اقتضته حكمته سبحانه، وفي ذلك يقول صلى الله عليه وآله: «**اطلبوا الخير دهركم كلّه، وتعرّضوا لنفحات الله؛ فإنّ لله نفحاتٍ من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده**»[1].

**سادساً: قاعدة المشارطة والمراقبة والمحاسبة**

ولعلّ هذه القاعدة الفقهيّة من أبلغ القواعد التي تحفظ لنا أكبر قدرٍ ممكنٍ من المتابعة الفعليّة لأهل البيت عليهم السلام، وقد تقدّمت بياناتٌ وافيةٌ حول مفردات هذه القاعدة وفوائدها[2]، وهذه القاعدة الأخلاقيّة والعقلائيّة تشكّل حصناً منيعاً من الانحراف فضلاً عن التوغّل فيه؛ ولذلك فإنّ أهل البيت عليهم السلام على عظيم مكانتهم المعرفيّة والمعنويّة وعصمتهم المطلقة لم ينفتلوا عن رعاية هذه القاعدة، حتّى صارت أوقاتهم وأعمالهم رهناً لتلك القاعدة، فزمانها اليومُ كلّه، وقد مرّ بنا في البكائيّة الأولى للإمام السجّاد عليه السلام من بكائيّاته الثلاث قوله: «**ويلي! كلّما طال عمري كثرت خطاياي ولم أتب، أما آن لي أن أستحيي من ربّي؟!**»[3].

**سابعاً: قاعدة الأولويّات**

فالأولويّة لفعل الواجبات وترك المحرّمات، ثمّ نعمل على الإتيان بالمستحبّات وترك المكروهات؛ فلا يصحّ أن نشغل أنفسنا في العمل المستحبّ

---

الهنديّ: ج٧، ص٧٦٩، ح٢١٣٢٤.

(١) كنز العمّال، للمتّقي الهنديّ: ج٧، ص٧٦٩، ح٢١٣٢٥.

(٢) في الكتاب الثاني (إصلاح النفس وتهذيبها) من سلسلة (أخلاقنا التعليميّة والواقعيّة)، تحت عنوان: (المشارطة والمراقبة والمحاسبة والمعاتبة).

(٣) راجع: الدرس الثالث، تحت عنوان: (العبادات في رسومها الروائيّة).

ونترك واجباً، كمن يشتغل بالزيارات وهو تاركٌ للصلاة ـ مع أنّ الشفاعة لا تنال مستخفّاً بالصلاة فكيف بتاركها؟!(١) ـ أو يحرص على استعمال المسواك ليطيب فمه ثمّ يأكل لحم أخيه ميتاً(٢).

إنّ قاعدة الأولويّات عمليّةٌ تنظيميّةٌ يراعى فيها ما توفّر من استعداداتٍ، فلا نتجاوز رسماً لآخر إلّا بعد إتمام الأوّل، ومنه تفهم أنّ رعاية الواجب والتحقيق في صحّة أدائه أولى بكثيرٍ من رعاية ذلك في المستحبّ، بل لا معنى للاهتمام برسوم المستحبّات قبل الفراغ من رسوم الواجبات(٣)، بل لا معنى

---

(١) عن عبيد بن زرارة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في حديثٍ عن الكبائر، قال: «...**إنّ تارك الصلاة كافرٌ**». (الأصول من الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٢، ص٢٧٨، ح٨)؛ وعن أبي بصيرٍ عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **لا ينال شفاعتي من استخفّ بصلاته، لا يرد عليّ الحوض، لا والله**». (وسائل الشيعة، للحرّ العامليّ: ج٤، ص٢٦، ح١٠)؛ والسرّ في ذلك كما جاء على لسان الإمام الباقر عليه السلام: «**الصلاة عمود الدين، مثلها كمثل عمود الفسطاط، إذا ثبت العمود ثبت الأوتاد والأطناب، وإذا مال العمود وانكسر لم يثبت وتدٌ ولا طنبٌ**». (وسائل الشيعة، للعامليّ: ج٤، ص٢٧، ح١٢).

(٢) قال تعالى: ﴿**...وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ**﴾ (الحجرات: ١٢).

(٣) يروى في أحوال المحدّث الثقة عبّاس القمّيّ ـ وهو من تلامذة الفقيه العارف الميرزا حسين قلي همداني ـ أنّه استفاد من بعض الأخبار: أنّ من يطبّق المستحبّات ويترك المكروهات سيمكنه أن يطّلع على عالم البرزخ؛ فحرص على تطبيق كلّ ذلك، وبعدها زار مقبرة وادي السلام في النجف الأشرف فلم يقع له شيءٌ؛ فعاد وتأمّل فيما هو عليه ـ وقيل بأنّه سمع صوتاً ينبّهه إلى الوجبات والمحرّمات ـ فأخذ يدقّق في أقواله وأفعاله، فاتّضح له أنّه كان يترك بعض الواجبات، وتقع بعض المحرّمات منه غفلةً لا عمداً؛ فعزم على تطبيق قاعدة الأولويّات، فطبّق كلّ واجبٍ وترك كلّ محرّمٍ، وبعدها أصبح يسمع

لصلاةٍ مستحبّةٍ تأتي في طول صلاةٍ واجبةٍ ظاهرة الخلل[١]، ولا معنى لعملٍ مستحبٍّ مع الوالدين في حياتهما وأنت عاقٌّ لهما؛ فالعقوق مانعٌ؛ وهذا واضحٌ.

## ثامناً: قاعدة المسارعة في الخيرات

وهي قاعدةٌ قرآنيّةٌ مستفادةٌ من قوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**﴾ (المؤمنون: ٦١)؛ وهذا ما ينسجم مع ما هو مشهورٌ على ألسنة العقلاء في قولهم: «خير البرّ عاجله»[٢]، ففي المسارعة في الخير مطلقاً

---

أصوات الموتى قبل وصوله إلى المقبرة.

وهذه القصّة بقطع النظر عن صحّتها ـ مع وثاقة نقلتها ـ فإنّها تمنحنا فرصةً لتطبيق ذلك، وعند الصباح يحمد القوم السرى.

(١) من قبيل من يأتي بنافلةٍ بعد صلاةٍ واجبةٍ وقع فيها نوعٌ من الاستخفاف العمديّ حيث جاء بها كنقر الغراب، فالنوافل أشبه بالنقش والواجبة أشبه بالعرش، والعرش ثمّ النقش.

(٢) لم يثبت أنّ هذا القول حديثٌ؛ ولذلك جاء تعبير السيّد الأستاذ بأنّه مشهورٌ على ألسنة العقلاء، وكم لهذا من نظيرٍ، كما في القاعدة العقلائيّة: (الوقاية خيرٌ من العلاج)، حيث يظنّ البعض أنّه حديثٌ؛ قال العجلونيّ: «خير البرّ عاجله ليس بحديثٍ، وقد ورد عن العبّاس في معناه: لا يتمّ المعروف إلّا بتعجيله، وشاع على الألسنة واشتهر...». (كشف الخفاء ومزيل الإلباس عمّا اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، للمفسّر المحدّث الشيخ إسماعيل بن محمّد العجلونيّ الجرّاحيّ: ج١، ص٣٨٤، ح١٢٢٩)، ولكنّها قاعدةٌ مستمدّةٌ من روح الشريعة، وقد ورد في الأخبار ما يقاربها، فعن زرارة عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **إنّ الله يحبّ من الخير ما يعجل**». (بحار الأنوار، للعلّامة المجلسيّ: ج٦٨، ص٢٢٢، ح٣٣).

متابعةٌ عمليّةٌ لأهل البيت عليهم السلام؛ فأداء الصلوات في أوّل وقتها مصداقٌ من المسارعة في الخير، والتعجيل بالصدقات الواجبة والمندوبة وإيصالها إلى مواردها مصداقٌ واقعيٌّ للمسارعة في الخيرات.

قال العلّامة المجلسيّ رحمه الله: «﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾؛ معناه: الذين جمعوا هذه الصفات هم الذين يبادرون إلى الطاعات ويسابقون إليها رغبةً منهم فيها، وعلماً منهم بما ينالون بها من حسن الجزاء؛ ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾، أي: وهم لأجل تلك الخيرات سابقون إلى الجنّة أو هم إليها سابقون، قال ابن عبّاس: يسابقون فيها أمثالهم من أهل البرّ والتقوى»[1].

## ثمن المتابعة للمثل الأعلى

لا ريب بأنّ ثمن المتابعة للمثل الأعلى هو نيل الكمال المطلوب معرفيّاً ومعنويّاً، وقد زخرت النصوص الدينيّة ـ قرآناً وسنّةً ـ بمحصّلة المتابعة، منها:

### أوّلاً: حبّ الله ونيل مغفرته

كما جاء صريحاً في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١)؛ فثمن المتابعة الظفر بحبّ الله تعالى ونيل مغفرته، وماذا بعد حبّ الله ونيل مغفرته؟!

### ثانياً: الفلاح في الدارين

قال تعالى: ﴿...فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧)؛ والفلاح الدنيويّ يكمن في الكينونة على الإيمان، والفلاح الأخرويّ يكمن في نيل الجنّة والرضوان.

---

(١) بحار الأنوار، للعلّامة المجلسيّ: ج٦٦، ص٢٥٩.

### ثالثاً: نفي الخوف والحزن عنهم

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأحقاف: ١٣)؛ حيث ورد أنّ المراد من الاستقامة متابعة أهل البيت عليهم السلام، فتكون المحصّلة نفي الخوف والحزن عنهم، بل هم الذين تتنزّل عليهم الملائكة مبشّرةً لهم بنفي الخوف والحزن عنهم وتبشيرهم بالجنّة، كما جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٣٠).

وأمّا الأخبار التي فسّرت الاستقامة بمتابعتهم عليهم السلام فمن قبيل ما روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام عندما سئل عن معنى الاستقامة في الآية فقال عليه السلام: «**استقاموا على الأئمّة واحداً بعد واحدٍ**»[1]، وعن ابن فضيل عن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام قال: «سألته عن معنى قوله: ثمّ استقاموا، قال: **هي والله ما أنتم عليه**»[2]؛ يعني متابعة أهل البيت عليهم السلام.

فإذا كانت الاستقامة متابعتهم عليهم السلام وأنّهم يمثّلون الطريقة المثلى الموجبة لنيل تلك الكمالات الكبرى، عندئذٍ سيتّضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾ (الجنّ: ١٦)؛ وهي المحصّلة الرابعة.

### ثمن عدم المتابعة للمثل الأعلى

يمكن تصوير ثمن عدم المتابعة على مستويين، وهما:

الأوّل: فقدان كلّ امتيازات المتابعة الآنفة الذكر وغيرها ممّا لم تذكر.

---

(١) الأصول من الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج١، ص٤٢٠، ح٤٠.

(٢) بحار الأنوار، للعلّامة المجلسيّ: ج٦، ص١٤٨.

الثاني: الوقوع في تبعات عدم الاتّباع، وهو ما يقابل ما تقدّم من امتيازات المتابعة الآنفة الذكر وغيرها ممّا لم تذكر.

## مذاكرةٌ

١. ما هي علاقة العبادة الحقّة بالمعرفة الحقّة؟
٢. ما هو الأساس الذي توجّه به أسبقيّة أهل البيت في المعرفة والعبادة؟
٣. ما علاقة الولاية العظمى لأهل البيت على جميع الولايات السابقة ظهوراً؟
٤. ما هي حدود انبساط الحقيقة المحمّديّة؟
٥. من هم أولو أمرنا في معرفتنا وعبادتنا لله تعالى؟
٦. ماذا يعني التأسّي بأهل البيت عليهم السلام؟
٧. ما هي علاقة قاعدة الإقبال على الطاعات بالوضع النفسيّ العامّ؟
٨. ماذا عرفت عن النفحات الإلهيّة، وما معنى كونها أرزاقيّةً؟
٩. كيف تشكّل قاعدة (المشارطة والمراقبة و...) حصناً منيعاً من الانحراف؟
١٠. ما هو ثمن المتابعة للمثل الأعلى وثمن عدم المتابعة لهم؟
١١. ما هو معنى الاستقامة في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾؟

## الدرس الخامس

# أخلاقيّات العبادات وبعدها العرفانيّ

- أهداف الدرس
- تصوير أخلاقيّات العبادات
- مثلٌ أعلى في العبادة الأخلاقيّة
- العبادات في رؤيةٍ عرفانيّةٍ
- مثلٌ أعلى في العبادة العرفانيّة
- مذاكرةٌ

## أهداف الدرس

١. بيان وجه ارتباط العبادات بالأخلاق.
٢. بيان منشأ الأخلاق في بعدها الإيجابيّ وفي بعدها السلبيّ.
٣. بيان الفروق الدقيقة بين العبادات والأخلاق.
٤. بيان معنى الأخلاق المعلومة واللازمة، والعبادة الخاصّة والعامّة.
٥. بيان الأمور المطلوبة في المثل الأعلى في العبادة الأخلاقيّة.
٦. بيان أهمّيّة أن تكون عبادةً متفكّرةً خاشعةً.
٧. بيان شوق النبيّ صلى الله عليه وآله للصلاة وحسن تلاوته واعتداله في عبادته.
٨. بيان معنى العبادات في الرؤية العرفانيّة والمثل الأعلى فيها.

## تصوير أخلاقيّات العبادات

لعلّك تسأل عن وجه ارتباط العبادات بالأخلاق؛ فالأخلاق صفاتٌ وملكاتٌ تتّصف بها النفس الإنسانيّة، وهي سابقةٌ على التشريع؛ وذلك لأنّها تنتهي إلى الحسن والقبح العقليّين، في حين أنّ العبادات أفعالٌ تعبّديّةٌ أمر بها الشارع المقدّس، فهل الأخلاق عباداتٌ أو العبادات أخلاقٌ؟

لا ريب أنّ الأخلاق في بعدها الإيجابيّ تمثّل قيماً إنسانيّةً عاليةً مستمدّةً من الصفات الإلهيّة[1]، وفي بعدها السلبيّ تمثّل قيماً إنسانيّةً دانيةً مستمدّةً من

---

(١) ممّا يعني أنّ الأخلاق الكريمة إلهيّة الأصل انبسطت على الخلائق، بخلاف ما ذهب إليه الفيلسوف الفرنسيّ عمّانوئيل كانْت من أنّ الإنسان أصل الأخلاق وليس العكس؛ حيث يقول: «لو درسنا المعطى الأخلاقيّ... أي: تلك الأفعال التي يتّفق الناس في اعتبارها

صفات الشيطان بإغراءاتٍ منه، وتسويلاتٍ من النفس الأمّـارة بالـسوء، وأنّ الأخلاق الإيجابيّة تمثّل جنود العقل وقلاعه، والأخلاق الـسلبيّة تمثّـل جنـود الجهل وقلاعه.

ولا ريـب أنّ القـيم الإنـسانيّة ببعـديها سـابقةٌ مـن حيـث الزمـان عـلى التشريعات الإسلاميّة، غير أنّ ذلك لا ينفي عنها شرعيّتها بعد أن أمر الشارع بالإيجابيّة منها ونهى عن السلبيّة منها؛ فقد أمر بالصدق ونهى عن الكذب.

من هنا يتّضح أنّ لباس العباديّة يضمّ الأخلاق، فالمؤمن الصادق في قوله وعمله مأجورٌ على ذلك، بل ويستحقّ الجنّة والرضوان لذلك، لقولـه تعـالى: ﴿**قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّـاتٌ تَجْـرِي مِـنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُـوا عَنْـهُ ذَلِـكَ الْفَـوْزُ الْعَظِـيمُ**﴾ (المائـدة: ١١٩)؛ ومن الواضح أنّ متعلّق الأجر والثواب هو العبادات التي يلحظ فيها قصد القربة، إلّا أنّ هنالك فروقاً عديدةً ودقيقةً سنذكر خمسةً منها:

- الفرق الأوّل: إنّ الأخلاق عبـاداتٌ ولكـن بـالمعنى الأعـمّ، في حـين أنّ العبادات المعلومة عباداتٌ بالمعنى الأخصّ، أو قل: إنّ العبادات المعلومة عباديّتها محضةٌ، والأخلاق عباديّتها غير محضةٍ.
- الفرق الثاني: إنّ العبادات المعلومة عباديّتها أصـاليّةٌ، في حـين أنّ عباديّـة الأخلاق فرعيّةٌ غير أصاليّةٍ.
- الفرق الثالث: إنّ الأخلاق أمورٌ تقتضيها الفطرة الإنـسانيّة الـسليمة، في حين أنّ العبادات أمورٌ جعليّةٌ من قبل الشارع المقدّس.

---

صالحةً... لاتّضح لنا أنّ ما يأذن لنا بوصف فعلٍ ما بأنّه فاضلٌ ليس على الإطلاق انطباقه على قاعدةٍ ميتافيزيائيّـةٍ...». (تأسـيس ميتافيزيقيـا الأخـلاق، تـأليف عمّانوئيـل كانـت: ص٧٣؛ ترجمة حميد عنايت وعلي فيض).

- الفرق الرابع: إنّ الأخلاق غير قابلةٍ للتغيير، وهذا يعني أنّها غير قابلةٍ للنسخ أو الإعدام؛ ولذلك هي واحدةٌ عند الإنسان في كلّ زمانٍ ومكانٍ، بخلاف العبادات المعلومة؛ فإنّها تختلف من شريعةٍ لأخرى، وإنّها قابلةٌ للنسخ والإعدام تبعاً للمصالح والمفاسد المجعولة في ضوئها بأمرٍ من الشارع المقدّس.
- الفرق الخامس: إنّ الأخلاق تعود للعقل العمليّ والمدركات العمليّة، ولا تحتاج إلى جعل جاعلٍ، وأمّا العبادات المعلومة فإنّها أمورٌ توقيفيّةٌ لا يمكن إدراكها من قبل الإنسان؛ ولذلك احتاج الإنسان فيها إلى مشرّعٍ وإلّا لصارت بدعاً.

بعد هذه الجولة التوضيحيّة نطرح سؤالاً يقرّبنا من الهدف:

عرفنا أنّ هنالك عباديّةً جعليّةً عامّةً للأخلاق، فهل هنالك أخلاقٌ للعبادات الخاصّة، وما هي تلك الأخلاق اللازمة للعبادات الخاصّة؟

لا ريب أنّ هنالك أخلاقيّاتٍ خاصّةً بالعبادات الخاصّة، ومن هنا تصبح لدينا قسمةٌ رباعيّةٌ هي:

١. الأخلاق المعلومة، وعباديّتها عامّةٌ.
٢. الأخلاق اللازمة للعبادات الخاصّة، وعباديّتها عامّةٌ أيضاً.
٣. العبادة الخاصّة، وهي العبادات بالمعنى الأعمّ.
٤. العبادة العامّة، وهي الأخلاق المعلومة واللازمة، ونصطلح عليها بالعبادات بالمعنى الأعمّ.

وأمّا الأخلاق المعلومة فمن قبيل الصدق والإخلاص، وأمّا الأخلاق اللازمة للعبادات الخاصّة فمن قبيل إدمان الصلاة في المساجد، حيث يصير خلقاً وصفةً وملكةً نفسانيّةً، وأيضاً عدم التكلّم بأمور الدنيا عند رفع الأذان

وإقامة الصلاة، وعدم القيام بأعمالٍ عبثيّةٍ في المسجد، من قبيل التدخين أو الثرثرة الفارغة؛ فإنّ هذه الأمور منافيةٌ للأخلاق العامّة، سواءٌ كانت من المعلومة أو من اللازمة.

وأمّا العبادات بالمعنى الأخصّ فمن قبيل الصلاة والصوم، وأمّا العبادات بالمعنى الأعمّ فهي نفس الأخلاق المعلومة واللازمة من قبيل الصدق وإدمان الصلاة في المساجد.

وستأتينا ـ في درسٍ لاحقٍ ـ بياناتٌ مهمّةٌ تتعلّق بأخلاقيّات المسجد خاصّةً.

## مثلٌ أعلى في العبادة الأخلاقيّة

لا نعني بالمثل الأعلى في العبادة كثرة العبادة، وإنّما نعني أموراً ثلاثةً إذا ما توفّرت في عابدٍ فهو مثلٌ أعلى في العبادة، وهي:

**الأوّل**: الاعتدال في العبادة، فيكون العابد مؤدّياً حقّ الله تعالى في عبادته وحقّ الناس في علاقاته، فلا جدوى من كثرة العبادة المصحوبة بالتقصير في حقّ الأسرة والناس؛ لأنّ الإسلام ليس كنائسيّاً منفصلاً عن المجتمع، وقد قال تعالى: ﴿**...وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ (الحديد: ٢٧)؛ فالله تعالى يريد منّا أن نكون رهباناً في عبادتنا المقتصدة والمعتدلة، لا أن ننفصل عن الناس ولا نمارس حياتنا الطبيعيّة، فالرهبانيّة المفضية لرضوان الله تعالى مطلوبةٌ، وهي الرهبانيّة الاجتماعيّة لا الفرديّة، وهي تعني أن نكون طاهرين في تعاطينا مع الناس، وفي أداء أدوارنا الحياتيّة المنسجمة مع قوله تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ**

﴿الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٧٧)، فهذه الآية خير ما تمثّل الرهبانيّة الإسلاميّة المعتدلة، وقد أفصح رسول الله صلى الله عليه وآله عن رهبانيّة الإسلام من أنّها تكمن في الجهاد في سبيل الله تعالى كما سيأتي.

إنّ الاعتدال في العبادة لا يعني عدم كثرتها البتّة، فإنّ في كثرة العبادة تطهيراً للقلب وصفاءً وإشراقاً للروح، ولكنّ هذا التطهير والصفاء والإشراق لا يقع البتّة مع التقصير في حقّ الآخرين، كمن يتفرّغ للعبادة ويترك الآخرين ينفقون عليه، فبئس العبد هذا وبئست العبادة هذه، وهذا رسول الله صلى الله عليه وآله بأبي هو وأمّي بعد أن تناهي إلى أسماعه أنّ نفراً من أصحابه قرّروا اعتزال الدنيا بالصيام نهاراً والقيام ليلاً، يقول: «**ما بال أقوامٍ حرّموا النساء والطيب والنوم وشهوات الدنيا، أما إنّي لست آمركم أن تكونوا قسسةً ورهباناً؛ فإنّه ليس في ديني ترك النساء واللحم، ولا اتّخاذ الصوامع، وإنّ سياحة أمّتي ورهبانيّتهم الجهاد**»[1].

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام وقد سئل عن رجلٍ دخله الخوف من الله، حتّى ترك النساء والطعام والطيب، ولا يقدر على أن يرفع رأسه إلى السماء تعظيماً لله، فقال عليه السلام: «**أمّا قولك في ترك النساء، فقد علمت ما كان لرسول الله صلى الله عليه وآله منهنّ، وأمّا قولك في ترك الطعام والطيب، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يأكل اللحم والعسل، وأمّا قولك أنّه دخله الخوف من الله حتّى لا يستطيع أن يرفع رأسه، فإنّما الخشوع في القلب، ومن ذا يكون أخشع وأخوف لله من رسول الله صلى الله عليه وآله، فما كان يفعل هذا، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾...**»[2].

---

(١) مستدرك الوسائل، للميرزا النوريّ: ج١٦، ص٥٣، ح١، الباب ١٤.

(٢) مستدرك الوسائل، للميرزا النوريّ: ج١٤، ص٢١٥، ح٢؛ والآية: (الأحزاب: ٢١).

جديرٌ بالذكر أنّ كثير العبادة على خطرٍ عظيمٍ، فينبغي أن يراقب نفسه كثيراً كي لا يقع في رياءٍ أو عُجبٍ في عمله فتكون قلّة العبادة منه خيراً من كثرتها، وقد ورد في الخبر عن أحد الصادقين عليه السلام: «**دخل رجلان المسجد، أحدهما عابدٌ والآخر فاسقٌ، فخرجا من المسجد والفاسق صدّيقٌ والعابد فاسقٌ؛ وذلك أنّه يدخل العابد المسجد مدلّاً بعبادته، يدلّ بها فتكون فكرته في ذلك، وتكون فكرة الفاسق في التندّم على فسقه ويستغفر الله عزّ وجلّ ممّا صنع من الذنوب**»[1]، وقد مرّ إبليس يوماً بموسى عليه السلام فقال له موسى: «**فأخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه؟** قال: إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله وصغر في عينه ذنبه»[2].

**الثاني**: أن تكون هذه العبادة الأخلاقيّة متوفّرةً على الإخلاص، فلا يطلب بظاهرها ـ فضلاً عن باطنها ـ غير رضوان الله تعالى، فلا يشوبها الشرك الأصغر، ولا يشوب نيّتها شوبٌ من الدنيا، فإنّ الآخرة والدنيا كضرّتين لا تجتمعان أو تتوافقان، إحداهما طاردةٌ للأخرى.

**الثالث**: أن تكون عبادةً متفكّرةً خاشعةً، وإنّما مدح الله تعالى العلماء لحصول الخشية منهم؛ قال تعالى: ﴿**...إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾ (فاطر: ٢٨)؛ وهذه الخشية العلمائيّة بنكتة اقترانها بالعلماء تفيد وقوع التفكّر والتأمّل منهم، وإلّا فالخوف والخشية يقعان من الكثير من الناس الذين لم يبلغوا درجاتٍ رفيعةً من العلم، والعلم دالٌّ على العقل الذي عليه العابد، وقد جاء في الخبر عن محمّد بن سليمان الديلميّ عن أبيه قال: «قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: فلانٌ من عبادته ودينه وفضله، فقال: **كيف**

---

(١) الأصول من الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٢، ص٣١٤، ح٦.

(٢) المصدر السابق: ج٢، ص٣١٤، ح٨.

**عقله؟ قلت: لا أدري. فقال: إنّ الثواب على قدر العقل...»**[١].

فإذا كانت العبادة معتدلةً ـ بمعنى عدم اقترانها بالتقصير مع عامّة النـاس ـ وكانت خالصةً مخلصةً لله تعالى، وكانت متفكّرةً خاشعةً، فإنّها عبادةٌ أخلاقيّـةٌ تامّةٌ، وصاحبها مثلٌ أعلى لعامّة الناس في عبادته.

والآن لنذهب إلى النموذج الأمثل في العبادة الأخلاقيّة المعتدلة الخاشـعة المتفكّرة، وهو رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد كان إذا أصبح ولم يجد طعاماً صام يومه، وإذا دعاه أحدٌ إلى طعامٍ استجاب له، يتفقّد أسرته وأبناء أمّته، يأكل مع العبيد ويسامر الغريب، أينما حلّ حلّت بركته، ولنـذكر نمـوذجين ممّـا روي عنـه في عبادته صلى الله عليه وآله.

## النموذج الأوّل: شوقه للصلاة

قال الشهيد الثاني: «كان النبيّ صلى الله عليه وآله ينتظر وقت الـصلاة ويـشتدّ شـوقه ويترقّب دخوله ويقول لبلالٍ مؤذّنه: «**أرحنا يا بلال**»، أشـار بـذلك إلى أنّـه في تعبٍ شديدٍ من عدم اشتغاله بهذه التكليفات وقيامـه بوظـائف الـصلاة، وإن كان سرّه لا يخلو من ضروبٍ من المناجاة، إلّا أنّ قرّة عينـه في الـصلاة...»[٢]؛ فكانت راحته صلى الله عليه وآله في الصلاة، وإذا أصابه حزنٌ أو همٌّ أو أذًى نادى: «**أرحنا بها يا بلال**»، أي: أذّن بالصلاة، وإذا فقد حبيباً نـادى: «**أرحنـا بهـا يـا بـلال**»، فكانت راحة قلبه بمناجاة ربّه، وما انفكّ عنه شوقه لقرّة عينه صلى الله عليه وآله.

وعن أبي ذرٍّ رحمه الله أنّه قال: «قد قام صلى الله عليه وآله ليلةً مـن الليـالي فقـال: **بسم الله الرحمن الرحيم**، ثمّ بكى، ثمّ قال: **بسم الله الرحمن الرحيم**، ثمّ بكى، ثمّ قال: **بـسم**

---

(١) المصدر السابق: ج١، ص١١، ح٨.

(٢) الرسائل، للشهيد السعيد الفقيه زين الدين عليٌّ الجبعيّ العامليّ: ص١٢٠.

**الله الرحمن الرحيم، ثمّ بكى، ثمّ قال وهو في صلاة النافلة: ويلٌ لمن لم تدركه رحمة الله، ويلٌ لمن لم تدركه رحمة الله، ويلٌ لمن لم تدركه رحمة الله»**[١].

**النموذج الثاني: حسن تلاوته للقرآن**

كان النبيّ ﷺ إذا قرأ القرآن في صلاته أو دعائه يقرأ بتوجّهٍ وخشوعٍ تامّين، فيأخذ بقلوب المستمعين إليه، وقد نزل فيه قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً**﴾ (الجن: ١٩)؛ أي: لمّا قام رسول الله ﷺ يعبده كاد الجنّ المستمعون لقراءته أن يكونوا عليه لبداً ـ بكسر اللام وضمّها ـ في ركوب بعضهم بعضاً، ازدحاماً؛ حرصاً على سماع القرآن منه[٢].

**النموذج الثالث: اعتداله في عبادته**

جاء ثلاثة رهطٍ يسألون عن عبادة النبيّ ﷺ، فلمّا أُخبروا بذلك استقلّوا عبادته وقالوا: وأين نحن من النبيّ ﷺ، قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، أي: لا حاجة له بالعبادة الكثيرة بعدما غفر الله تعالى له!

ثمّ قال أحدهم: أمّا أنا فإنّي أصلي الليل أبداً!

وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر!

وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوّج أبداً!

فجاء رسول الله ﷺ فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما ـ والله ـ إنّي لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكنّي أصوم وأفطر، وأصلّي وأرقد، وأتزوّج النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي**»[٣].

---

(١) موسوعة الخطب والدروس، جمعها ورتّبها الشيخ عليّ بن نايف الشحّود: ص٢.

(٢) انظر: تفسير الجلالين، للمحلّيّ والسيوطيّ: ص٧٧٢.

(٣) صحيح البخاريّ، محمّد بن إسماعيل البخاريّ: ج٦، ص١١٦.

## العبادات في رؤيةٍ عرفانيّةٍ

وهنا تكمن التصوّرات الخاطئة، فما إن يطرأ اسم العرفاء إلّا وانقدح في الذهن التفرّغ للتنسّك والعبادة، مع أنّ الأمر ليس كذلك، فالعرفاء يطلبون معرفة الله تعالى، وإنّ العبادة إحدى وسائلهم للوصول، وإنّ أكثر عبادتهم تكمن في التفكّر والتأمّل، وحتّى الأوراد التي يعملون بها لا يلحظ فيها العدد بقدر ما يلحظ فيها التفكّر والتأمّل بالمعدود.

إنّ العبادة العرفانيّة تعني هجرة الأغيار تماماً، فمن هجر الأغيار ولم يحضر عنده سوى الديار وربّ الدار فإنّه يكون عابداً عندهم؛ لأنّه عَبد الله عن معرفةٍ؛ ولذلك فإنّه لا يهتمّ بطول السجدة بقدر ما يهتمّ بمحصّلتها. فإن حصل له الإذن بدخول عالم المعنى لأوّل وهلةٍ، كفّ عن السجود واستغرق في تأمّلاته حتّى يأتيه الأمر بالانصراف.

ولذلك هم يشترطون على السالك: أن يكون قد أغلق السير الأخلاقيّ، فلا يقبلون من لازال مستغرقاً في الأمراض المعنويّة، مثل الكذب والرياء والتكبّر والحسد، وغير ذلك، فمثل هذا المريد يكون عالةً عليهم، وإنّما يلتقطون مَن ظهرت استعداداته وبانت سعادته في الطاعة والتسليم.

ولعلّ الكثير يسأل: لماذا لا يأخذ العرفاء الشامخون بأيادي الأمّة، لماذا هم منكفئون على خواصّ الخواصّ من أتباعهم دون الالتفات إلى الآخرين؟

والجواب: أنّ هنالك فرقاً كبيراً بين الأخلاقيّ والعارف، فالأخلاقيّ مهامّه تبدأ قبل مهامّ العارف، وأكثر الناس لم ينجزوا مهامّهم أخلاقيّاً فكيف تصل بهم النوبة إلى دور العرفاء؟

لابدّ أن يكون واضحاً أنّ عمل العرفاء يدور في عالم الفكرة، لا في عالم الحروف والكلمات، وهنالك من لا يجيد القراءة والكتابة ومع ذلك يتّهم

الأساتذة على عدم إدخاله في دروسهم العالية!

وتعلّم الحروف المعنويّة والقراءة والكتابة فيها تنطلق من عالم الأخلاق، حيث لابدّ من التخلية التامّة من الأخلاق الذميمة، ثمّ تبدأ التحلية بالأخلاق الحميدة، وعندئذٍ تبدأ رحلة التجلّيات التي منها يشرع السالك أو المريد مع العرفاء الواصلين، ولابدّ من الحذر من الأدعياء في الطريق، ومن أنصاف الواصلين منهم، فإنّه من لم تكتمل أدواته لا يُحمد السير معه.

والمحصّلة من كلّ ذلك: هي أنّ العبادات في رؤيتها العرفانيّة تتلخّص في تجلية القلب من الأغيار، وتوحيد نبضات القلب على كلمة التوحيد، ولا يرى في الأعيان المنظورة غير المنشئ لها؛ تحقيقاً للمرويّ عن إمام الموحّدين عليّ عليه السلام: «**ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله فيه أو قبله أو معه**»[1]، ولا شبهة في أنّ هذه الرؤية ليست رؤيةً ظاهريّةً بل هي رؤيةٌ قلبيّةٌ[2].

## مثلٌ أعلى في العبادة العرفانيّة

وفي ضوء ما تقدّم يتبيّن لنا المثل الأعلى في العبادة العرفانيّة، فذلك العابد الذي لا يرى غير معبوده، وإذا كبّر تكبيرة الإحرام ألقى بالعالم المرئيّ خلف ظهره تبعاً لمقتضى رفع اليدين بالتكبير، وإذا ما فتّشنا المدوّنات التاريخيّة سنجد عيّناتٍ كثيرةً سائرةً في هذا الطريق، وسنكتفي بعيّنةٍ واحدةٍ تتمثّل بالإمام السجّاد عليّ زين العابدين عليه السلام.

عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «**كان أبي عليه السلام يقول: كان عليّ بن الحسين عليه السلام إذا قام في الصلاة كأنّه ساق شجرةٍ لا يتحرّك منه شيءٌ إلّا ما حرّكه**

---

(١) شرح الأسماء الحسنى، للحكيم الملّا هادي السبزواريّ: ج١، ص١٨٩.

(٢) انظر: شرح أصول الكافي، محمّد صالح المازندرانيّ: ج٣، ص٨٣.

**الريح منه»**[١]، وما ذلك منه إلّا لشدّة توجّهه لله تعالى، وانحصار الحضور به سبحانه.

ولأجل تحصيل هذه المرتبة أو ما هو قريبٌ منها حثّت الشريعة المقدّسة على الاجتناب عن الموانع التي تقف حائلاً أمام لحظات الخشوع الصادقة، ففي خبرٍ عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «**إذا قمت في الصلاة فلا تعبث بلحيتك ولا برأسك ولا تعبث بالحصى وأنت تصلّي إلّا أن تسوّي حيث تسجد فإنّه لا بأس**»[٢].

وعن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أبصر رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: أما أنّه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه**»[٣].

قال المازندرانيّ: «والمراد بخشوع القلب اشتغاله بذكر الله تعالى وتوجّهه إليه، وإعراضه عمّا سواه، وإذا حصل له هذه الفضيلة حمل الجوارح على ما هو المطلوب مع انكسارٍ وتذلّلٍ وخوفٍ على مخالفتها لغفلةٍ أو سهوٍ أو لغرضٍ من الإغراض النفسانيّة، واشتغال الجوارح بذلك عبارةٌ عن خشوعها»[٤].

## مذاكرةٌ

١. ما وجه ارتباط العبادات بالأخلاق؟
٢. ما علاقة الأخلاق بالصفات الإلهيّة، وبصفات الشيطان؟
٣. اذكر فرقاً واحداً من الفروق الدقيقة بين العبادات والأخلاق.

---

(١) الفروع من الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٣، ص٣٠٠، ح٤.
(٢) المصدر السابق: ج٣، ص٣٠١، ح٩.
(٣) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري: ج٥، ص٤١٧، ح٣.
(٤) انظر: شرح أصول الكافي، محمّد صالح المازندرانيّ: ج٨، ص٢٣٧.

٤. ما هي الأمور المطلوبة في المثل الأعلى في العبادة الأخلاقيّة.
٥. صف لنا بيان شوق النبيّ صلى الله عليه وآله للصلاة.
٦. ما هي حقيقة العبادة العرفانيّة؟
٧. من هو المثل الأعلى في العبادة العرفانيّة؟

## الدرس السادس

# أخلاقيّات المسجد والأماكن المقدّسة

- أهداف الدرس
- مسجديّة المسجد
- أخلاقيّات المسجد مفهوماً ومصداقاً
- المستوى الأوّل: مصاديق المسجديّة قرآنيّاً
- المستوى الثاني: مصاديق المسجديّة روائيّاً
- عمارة المسجد
- نموذجٌ جديدٌ لعمارة المسجد
- المستوى الثالث: الآداب العامّة
- كيف نكون مسجديّين؟
- اشتداد المسجديّة في المساجد الأربعة
- الأماكن المقدّسة
- موعظةٌ
- مذاكرةٌ

## أهداف الدرس

١. بيان وجه الفرق بين العبادة والأخلاق، وبين المسجد والمسجديّة.
٢. بيان علاقة أخلاق المسجد بمسجديّة المسجد.
٣. بيان معنى المسجد المهجور، ومصاديق المسجديّة قرآنيّاً وروائيّاً.
٤. بيان مصاديق أخذ الزينة للمسجد.
٥. بيان نكاتٍ ولطائف في إقامة الوجه شطر المسجد.
٦. بيان هويّة المساجد الضراريّة، وعلاقة المسجديّة بعنصري الجذب والطرد.
٧. بيان معنى عمارة المسجد، مع عرض نموذجٍ جديدٍ لعمارة المسجد.
٨. بيان أهمّيّة الصلاة في المسجد المجاور ومساوئ هجرانه.
٩. بيان معنى السكينة والوقار، والآداب الأخرى للمسجد والمسجديّة.
١٠. بيان كيفيّة أن نكون مسجديّين.
١١. بيان معنى التديّن الذاتيّ والتديّن العرضيّ، وسبل الوصول إلى التديّن الذاتيّ.
١٢. بيان معنى البرنامج الرصديّ والبرنامج العباديّ.
١٣. بيان معنى اشتداد المسجديّة في المساجد الأربعة، وأهمّيّة الأماكن المقدّسة.

## مسجديّة المسجد

لا ريب أنّ نفس الذهاب إلى المسجد عبادةٌ، وقد عبّر عنه القرآن بالآثار في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾ (يس: ١٢)[1]؛ وقد جاء ذلك في خبرٍ عن قبيلةٍ من الأنصار ـ بني

(١) علل الشرائع، للشيخ الصدوق: ج١، ص٢٣١، ح٨.

سلمة ـ حيث شكت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بُعد منازلهم من المسجد، فأنزل الله ﴿...وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ...﴾[1]؛ وهو مرويٌّ عن مجاهدٍ أيضاً[2].

وأمّا تعوّد الذهاب وإدمانه فهو فضلاً عن كونه عبادةً فإنّه أخلاقٌ، وأخلاق المسجد هي مسجديّة المسجد، أو قل هي النتيجة العملانيّة للعبادة في المسجد، فهدف المسجد هو المسجديّة، والمسجديّة هي أخلاقه.

فإذا خلا المسجد من المسجديّة من خلال ممارسة أخلاقيّات غير إسلاميّةٍ، أو إدخال المسجد في أتون التناحر والتهاتر، واتّخذ بوقاً للترويج الفئويّ فإنّه يكون مهجوراً بل خراباً، ومن هنا يتّضح أنّ المسجد المهجور ليس المسجد الذي لا يصلّى فيه، فذلك هو المصداق الأبرز، فهنالك معنىً خفيٌّ عن الناس وهو هجرانه بسبب فقدانه مسجديّته، فالإنسان قد يموت بقتل شخصه، وقد يموت بقتل شخصيّته ـ والثاني أعظم ـ وهكذا فالمسجد قد يهجر بتركه من رأسٍ، وقد يهجر بسلب مسجديّته عنه، والثاني أعظم.

## أخلاقيّات المسجد مفهوماً ومصداقاً

قلنا بأنّ أخلاقيّات المسجد هي عين مسجديّته، فما هي مصاديق أخلاقه، أو قل ما هي مصاديق مسجديّته؟

وهنا ستكون إجابتنا عن ذلك على ثلاثة مستوياتٍ، الأوّل: قرآنيٌّ، والثاني: روائيٌّ، والثالث: آدابٌ عامّةٌ «ما أمر به العقل والعقلاء وندب له الشارع المقدّس»[3].

---

(١) انظر: كنز العمّال، المتّقي الهنديّ: ج٧، ص٥٧٧، ح٢٠٣٣٠.

(٢) انظر: التبيان في تفسير القرآن، للشيخ الطوسيّ: ج٨، ص٤٤٧.

(٣) هنالك فرقٌ دقيقٌ بين المستحبّ والمندوب، فالأمر المستحبّ دليل استحبابه شرعيٌّ

## المستوى الأوّل: مصاديق المسجديّة قرآنيّاً

### أوّلاً: أخذ الزينة

وهو قوله تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ...**﴾ (الأعراف: ٣١)؛ والمراد من الزينة أمورٌ، منها: لبس العمامة، والتمشيط عند كلّ صلاةٍ ووضع الطيب للرجال، ولبس أنظف الملابس، والزينة هي مطلق ما يستر العورة، وفي الحديث النبويّ: «**إذا صلّى أحدكم فليلبس ثوبيه، فإنّ الله أحقّ أن يزيّن له**»[١]؛ وروي أنّ الزينة هي أجود الثياب[٢].

### ثانياً: تعاهد المساجد

وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿**قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ...**﴾ (الأعراف: ٢٩)؛ فإقامة الوجوه في كلّ مسجدٍ تشير إلى التعاهد وعدم الهجران، وفي إقامة الوجه شطره نكاتٌ ولطائف، منها:

**النكتة الأولى**: الكفّ عن الالتواء البدنيّ والقلبيّ عن المسجد، فلا يكون البيت بديلاً عند المكنة من ذلك.

---

فقط، ولا يعلم المصلحة الواقعيّة فيه سوى كون المشرّع الحكيم يطلب ذلك لا على نحو اللزوم، وأمّا الأمر المندوب فهو ما أمضته السيرة العقلائيّة السابقة على التشريع، ثمّ جاء الشارع المقدّس وندب له، من قبيل ما يتعلّق ببعض تفاصيل الإطعام.

(١) السنن الكبرى، للمحدّث الحافظ أحمد بن الحسين بن عليّ البيهقيّ: ج٢، ص٢٣٦.

(٢) روي عن خثيمة بن أبي خثيمة قال: «كان الحسن بن عليّ عليه السلام إذا قام إلى الصلاة، لبس أجود ثيابه، فقيل له: يا ابن رسول الله، لم تلبس أجود ثيابك؟ فقال: **إنّ الله تعالى جميلٌ يحبّ الجمال، فأتجمّل لربّي، وهو يقول: ﴿...خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ...﴾، فأحبّ أن ألبس أجود ثيابي**». (مستدرك الوسائل، للميرزا النوريّ: ج٣، ص٢٢٦، ح٢).

**النكتة الثانية**: التعبير بالوجه يحكي مركزيّة التوجّه، وكأنّه أراد أن يكون المسجد مركز التوجّه في عباداتنا.

**اللطيفة الأولى**: الكفّ عن الالتواء البدنيّ والقلبيّ عند أداء الصلاة في المسجد، فالمسجد بيت الله تعالى، وكأنّ الراكع الساجد فيه راكعٌ ساجدٌ في قلب الكعبة المشرّفة.

**اللطيفة الثانية**: إقامة الوجه عنده حثٌّ على إدمان التفكّر في العبادات الواقعة فيه، بحيث ينبسط هذا التفكّر على الأوقات الأخرى التي نقضيها خارج المسجد، فتعطي إقامة الوجه إدامة الحضور فيه من خلال الأثر المنبسط.

**ثالثاً: تقوائيّة المسجد**

وهو قوله تعالى: ﴿ **لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ**﴾ (التوبة: ١٠٨)؛ فلو أقيم مسجدٌ لرفع شأن بانيه، أو ليكون صوتاً لجهة بانيه، أو لهدفٍ دنيويٍّ آخر، فإنّه أشبه بمسجد ضرارٍ من المسجد الذي ينبغي تأسيسه على التقوى، فقيامه على أساس التقوى من مصاديق مسجديّة المسجد، وإلّا كان بناءً وصرحاً خاوياً.

من هنا ينبغي على الساعين في بناء المساجد أن يتّقوا الله تعالى في مقاصدهم، فإنّ كلّ مسجدٍ لم يُقصد به وجه الله تعالى فإنّه ـ فضلاً عن كونه فاقداً لأحد شروط المسجديّة ـ لا يخرج عن كونه مصداقاً من مصاديق مسجد ضرارٍ الذي أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بهدمه وحرقه[1]، ليكون عبرةً للمعتبرين،

---

(١) ورد ذكر مسجد ضرارٍ في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ**

فإنّ الأماكن العباديّة لابدّ أن تكون خالصةً لله تعالى، ومنه يتّضح إذا كانت أمكنة العبادة ـ وهي أحجارٌ ـ لابدّ أن تؤسّس على التقوى فكيف بالقلوب والعقول والوجدان؟

## المستوى الثاني: مصاديق المسجديّة روائيّاً

### أوّلاً: الكفّ عن حديث الدنيا

أن لا يكون المسجد ملتقىً لتداول مشكلات الحياة، فالمسجد ليس ديواناً عامّاً أو مقهى يتمدّد فيه مريدوه، وإنّما هو مكانٌ مقدّسٌ أُعدّ أوّلاً وآخراً للعبادة، ولابدّ أن تراعى فيه حرمة ذلك؛ فإنَّ مسجديّته تتنافى مع تداول مشكلاتنا الحياتيّة فيه؛ ولذلك ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «**إذا أتى الرجل المسجد فأكثر الكلام، تقول الملائكة: اسكت يا وليّ الله، فإن زاد، فتقول: اسكت يا بغيض الله تعالى، فإن زاد: فتقول اسكت عليك لعنة الله تعالى**»[1]؛ والمعنى

---

﴿يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (التوبة: ١٠٧)؛ وقصّته: أنّه كان هنالك رجل يدعى أبا عامرٍ الراهب ـ وهو والد الصحابيّ الجليل حنظلة (غسيل الملائكة) الذي استشهد في معركة أحدٍ، وكان جنباً فغسّلته الملائكة ـ قد ترهّب في الجاهليّة ولبس المسوح، فلمّا قدم النبيّ صلى الله عليه وآله المدينة حسده، وحزّب عليه الأحزاب، ثمّ هرب بعد فتح مكّة إلى الطائف، فلمّا أسلم أهل الطائف لحق بالشام، وخرج إلى الروم وتنصّر، وقد سمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله بأبي عامرٍ الفاسق، وكان قد أرسل إلى المنافقين أن استعدّوا وابنوا مسجداً، فإنّي أذهب إلى قيصر، وآتي من عنده بجنودٍ، وأخرج محمّداً من المدينة، فكان هؤلاء المنافقون يتوقّعون أن يجيئهم أبو عامرٍ، فبنوا المسجد ودعوا الناس له، وقد مات أبو عامرٍ الفاسق قبل أن يبلغ ملك الروم، وقد جاء النهي عن الصلاة في ذلك المسجد الذي أريد به إلحاق الضرر بالمسلمين. (انظر: مجمع البيان في تفسير القرآن، للشيخ الطبرسيّ: ج٥، ص١٢٦).

(١) حاشية إعانة الطالبين، للسيد البكريّ ابن السيّد محمّد شطا الدمياطيّ: ج٢، ص٢٩٨.

واضحٌ وصريحٌ، ولا ينبغي الخلط بين تداول حديث الدنيا وبين السؤال عن أحكامنا الشرعيّة في مسائل الحياة، فذلك من التفقّه في الدين الواجب شرعاً.

ونعوذ بالله تعالى أن نكون ممّن قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يأتي في آخر الزمان أناسٌ من أمّتي، يأتون المساجد يقعدون فيها حلقاً، ذكرهم الدنيا وحبّ الدنيا، لا تجالسوهم فليس لله بهم حاجةٌ**»[1]، وإنّما المسجد بيت الصلاة وتلاوة القرآن ومذاكرة العلوم الشرعيّة شريطة عدم إلحاق الأذى بالمصلّين حين أوان الصلاة.

## ثانياً: تجنيب المسجد الأطفال والمجانين

عن رسول الله صلى الله عليه وآله؛ قال: «**جنّبوا مساجدكم صبيانكم، ومجانينكم، ورفع أصواتكم وشراءكم، وبيعكم، والضالّة...**»[2]؛ وقد سمع النبيّ صلى الله عليه وآله رجلاً ينشد ضالّةً في المسجد، فقال: «**قولوا له: لا ردّ الله عليك ضالّتك؛ فإنّها لغير هذا بُنيت**»[3].

## ثالثاً: تجنيب المسجد الروائح الكريهة

عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «سألته عن الثوم: فقال: **إنّما نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عنه لريحه**، فقال: **من أكل هذه البقلة المنتنة فلا يقرب مسجدنا، فأمّا من أكله ولم يأت المسجد فلا بأس**»[4]، والنهي نهي كراهةٍ لا حرمةٍ، ففي رائحته إساءةٌ لمسجديّة المسجد؛ لأنّه يولّد النفرة، في

---

(١) مستدرك الوسائل، للميرزا النوريّ: ج١٢، ص٣١٥، ح١٨.

(٢) من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق: ج١، ص٢٣٧، ح٧١٥.

(٣) المصدر السابق: ج١، ص٢٣٧، ح٧١٤.

(٤) علل الشرائع، للشيخ الصدوق: ج٢، ص٥١٩، ح١.

حين أنّ مقتضى المسجديّة أن يكون المؤمن عنصر جذبٍ؛ ولذلك ورد ـ كما تقدّم ـ أخذ الزينة للمسجد، ومن الزينة العطر المرغّب لا الرائحة الكريهة.

**رابعاً: عدم اتّخاذ المسجد ممرّاً**

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لا تجعلوا المساجد طرقاً حتّى تصلّوا فيها ركعتين**»[1]؛ ففي ذلك نوعٌ من الاستخفاف غير المرئيّ، فإذا ما تعوّد المارّ دون الصلاة فيه سوف تضعف حرمة المسجد في نفسه؛ ولذلك ينبغي للمارّ أن يستحضر هذه المسجديّة التي ينبغي حفظها سواءٌ في المسجد الحرام أو في مسجد البلدة، فإنّ التفاوت بينهما ليس في ملاك المسجديّة وإنّما في الفضل بينهما.

**خامساً: أفضليّة دخول المساجد على طهارةٍ**

وذلك لقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**...ما منكم أحدٌ يخرج من بيته متطهّراً فيصلّي الصلاة في الجماعة مع المسلمين... إلّا والملائكة تقول: اللّهُمَّ اغفر له، اللّهُمَّ ارحمه**»[2]؛ وقد ورد في أدب المراقبة عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إذا بلغت باب المسجد فاعلم أنّك قصدت باب بيت ملكٍ عظيمٍ لا يطأ بساطه إلّا المطهّرون...**»[3]؛ وقد روى مسلمٌ عن النبيّ صلى الله عليه وآله قوله: «**من تطهّر في بيته ثمّ مضى إلى بيتٍ من بيوت الله، ليقضي فريضةً من فرائض الله، كانت خطواته إحداها تحطّ خطيئةً والأخرى ترفع درجةً**»[4].

---

(١) وسائل الشيعة، للحرّ العامليّ: ج٥، ص٢٩٣.

(٢) الأمالي، للشيخ الصدوق: ص٤٠٠، ح١٠.

(٣) بحار الأنوار، للعلّامة المجلسيّ: ج٨٠، ص٣٧٣، ح٤٠.

(٤) صحيح مسلمٍ، لمسلمٍ النيسابوريّ: ج٢، ص١٣١.

وهنالك أمور أخرى تدخل في مضمار رعاية مسجديّة المسجد، من قبيل عدم البصاق في المسجد، فقد روى غياث بن إبراهيم عن جعفر عن أبيه عن عليٍّ عليه السلام قال: «**البصاق في المسجد خطيئةٌ، وكفّارتها دفنه**»[١]؛ أي: ستره أو مسحه، وعن عبد الله بن سنانٍ قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**من تنخّع في المسجد ثمّ ردّها في جوفه لم تمرّ بداءٍ إلّا أبرأته**»[٢]؛ وعدم النوم في المسجد وعدم رفع الصوت فيه، ومن الأمور المطلوبة والمندوبة والداخلة في مسجديّة المسجد هو أن يأتي المصلّي بركعتين بعنوان تحيّة المسجد، وأن يهتمّ بإسراج النور فيه، وسيأتينا جملةٌ من الآداب العامّة التي ينبغي مراعاتها طلباً لتحقيق مسجديّة المسجد.

## عمارة المسجد

لعلّك تسأل عن المراد من عمارة المسجد، فهل يعني ذلك الإسهام في بنائه أم هنالك موارد أخرى لعمارته؟

والجواب إثباتيٌّ، فهنالك موارد كثيرةٌ تتحقّق فيها عمارة المسجد، ففي وصيّةٍ من رسول الله صلى الله عليه وآله لأبي ذرٍّ الغفاريّ جاء فيها: «**يا أبا ذرٍّ، من أجاب داعي الله وأحسن عمارة مساجد الله كان ثوابه من الله الجنّة**، فقلت: كيف يعمر مساجد الله؟ قال: **لا ترفع الأصوات فيها، ولا يخاض فيها بالباطل، ولا يشترى فيها ولا يباع، واترك اللغو ما دمت فيها، فإن لم تفعل فلا تلومنّ يوم القيامة إلّا نفسك**»[٣].

---

(١) وسائل الشيعة، للحرّ العامليّ: ج٣، أبواب أحكام المساجد، الباب ١٩، ح٤.

(٢) المصدر السابق: الباب ٢٠، ح١.

(٣) وسائل الشيعة، للحرّ العامليّ: ج٣، ص٥٠٧، ح٣.

## نموذجٌ جديدٌ لعمارة المسجد

وهنا نودّ طرح نموذجٍ جديدٍ لعمارة المسجد يتعلّق بالمعطى المسجديّ، فإنّ ما نتزوّد به من المسجد من أخلاقٍ وصلاحٍ وعبادةٍ ومعنوياتٍ، لا يبدأ بالمسجد وينتهي عنده، وإنّما يهدف إلى عكس ما تزوّدنا به خارج المسجد، في الشارع والأسرة والعمل، وإذا ما سُئلنا عن ثقافتنا الجديدة، وصلاح أخلاقنا وعذوبة ألفاظنا نسبنا ذلك إلى المسجد، وهذا خير إعمارٍ للمسجد، وهو النموذج الجديد للعمارة، فالمتلقّي سيجد نفسه متأثّراً بآثار المسجد علينا فينجذب للمسجد للتزوّد بذلك، كما هو الحال تماماً في أخذنا للعلوم من أصحاب العلم والفضيلة، فعند نسبتنا ما حصلنا عليه لهم سيجعلهم مقصداً للفاقدين، وهكذا الحال في المقام، فإذا ما قمنا بذلك سنكون من عمّار المساجد، ومن الأوفياء لمسجديّته، بل إن تأثّر الناس بأخلاقيّتنا المسجديّة سيجعلنا أكثر تمسّكاً بالمسجد وملاصقةً به.

وأمّا إذا وجدنا أنفسنا نحمل أخلاقاً في الأسرة والشارع والعمل غير أخلاقنا المسجديّة، فيكون الواحد منّا في المسجد وديعاً وفي غيره هائجاً، وفيه كريماً وفي غيره لئيماً، وفيه نشطاً وفي غيره كسولاً، وفيه متسامحاً متجاوزاً عن أخطاء الآخرين وفي غيره مؤنّباً ومعاقباً لهم، وفيه حلو اللسان عذب الألفاظ وفي غيره مرّ اللسان بذيء الألفاظ، وغير ذلك من التنافي المتصوّر، فإنّ هذا التنافي والتناقض الواقع ليس وراءه سوى الشخصيّة الازدواجيّة، أو قل هو نوعٌ من الانفصام في الشخصيّة، والانفصام في الشخصيّة ضربٌ من الجنون، فيكون الشخص المحافظ على مسجديّته داخل المسجد وخارجه إنساناً قوياً معتدلاً.

## المستوى الثالث: الآداب العامّة

وهي الآداب العامّة التي تعمّق فينا رعاية المسجديّة، وقد ارتأينا تسجيلها تحت هذا العنوان ـ رغم أنّ الكثير منها قد ورد فيها رواياتٌ حاثّةٌ عليها ـ لأولويّة ما جاء في المستويين السابقين عليها، وقد حرصنا على تسجيلها؛ لأنّها تقع بشكلٍ وآخر ضمن مقدّمات الصلاة، أو قل هي من آداب الصلاة بنحو العرض، وحفظ آداب الصلاة ـ كما يرى أستاذنا الآمليّ ـ طريق لنيل سرّ الصلاة، فالآداب عللٌ معدّةٌ لها، وأسبابٌ ممدّةٌ لنيل نبذٍ من أسرارها[١]، والآداب وظائف ظاهريّةٌ تجاه الفعل العباديّ، وأمّا السرّ فهو الوجود الغيبيّ لذلك العمل العباديّ، ولا غيب بلا ظاهرٍ وشهادةٍ.

### ١. الشروع بالدعاء عند الذهاب إلى المسجد

الدعاء مستحبٌّ على كلّ حالٍ، ومن هذه الأحوال عند ذهابك للمسجد، فذلك ما يسهم في توفير أجواءٍ روحيّةٍ تساعدك كثيراً على تحصيل حالة الخشوع في الصلاة، وقد روى مسلمٌ دعاءً لرسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك: «**اللّهُمَّ اجعل في قلبي نوراً، وفي لساني نوراً، واجعل في سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، واجعل من خلفي نوراً، ومن أمامي نوراً، واجعل من فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً، اللّهُمَّ أعطني نوراً**»[٢]، وإذا لم يمكنك ذلك فاشتغل بذكر الصلاة على محمّد وآل محمّدٍ، فإنّه الذكر الذي تدّخره خزائن القلب ليومٍ لا ينفع فيه مالٌ ولا بنونٌ إلّا من أتى الله بقلبٍ سليمٍ[٣].

---

(١) انظر: أسرار الصلاة، آية الله عبد الله الجواديّ الآمليّ: ص١٣.

(٢) صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجّاج بن مسلمٍ النيسابوريّ: ج٢، ص١٨٢.

(٣) لعلّه (دام ظلّه) يرمي بذلك إلى ما جاء في الكافي الشريف عن محمّد بن مسلمٍ عن

### ٢. المشي إلى المسجد والخروج منه بسكينةٍ ووقارٍ

وذلك عملاً بقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار، ولا تسرعوا، فما أدركتم فصلّوا، وما فاتكم فأتمّوا**». رواه البخاريّ ومسلمٌ.

والسكينة هي التأنّي في الحركات واجتناب العبث، وأمّا الوقار فهو غضّ البصر، وخفض الصوت، وعدم الالتفات، فذلك ما يوفّر الراحة والطمأنينة، ويكون إلى الخضوع والخشوع أقرب، وأمّا إذا خرج منه المصلّي خرج بسكينةٍ ووقارٍ أيضاً، وأن لا يتكلّم بالفحش أو بكلامٍ قبيحٍ.

### ٣. الذهاب مشياً إلى المسجد

وذلك طلباً لتحقيق قوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾ (يس: ١٢).

ولا ريب ـ والحال هذه ـ أنّ أبعد الناس منزلاً عن المسجد أعظمهم أجراً، وقد ورد عنه صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**ألا أدلّكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد...**»[1]؛ وقد روى مسلمٌ عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنّ أعظم الناس أجراً**

---

أحدهما ـ الباقر أو الصادق ـ عليه السلام قال: «**ما في الميزان شيءٌ أثقل من الصلاة على محمّد وآل محمّدٍ، وإنّ الرجل لتوضع أعماله في الميزان فتميل به، فيخرج صلى الله عليه وآله الصلاة عليه فيضعها في ميزانه فيرجح به**». (الأصول من الكافي، الشيخ الكلينيّ: ج٢، ص٤٩٤، ح١٥)؛ وذيل الكلام مستلٌّ من قوله تعالى: ﴿**وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾. (الشعراء: ٨٧ ـ ٨٩).

(١) الأمالي، للشيخ الصدوق: ص٤٠٠، ح١٠، وأيضاً: صحيح مسلمٍ، أبو الحسين مسلم بن الحجّاج بن مسلمٍ النيسابوريّ: ج١، ص١٥١.

**في الصلاة أبعدهم إليها ممشىً فأبعدهم»**[١]، وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: **«من مشى إلى المسجد لم يضع رجلاً على رطبٍ ولا يابسٍ إلّا سبّحت له الأرض إلى الأرضين السابعة»**[٢].

### ٤. صيانة المسجد من الأوساخ

وينبغي الإسراع قبل ذلك إلى تخلية الطريق إلى المسجد من الأوساخ أيضاً، فإنّ الطريق إليه لا يخلو عادةً من ذلك، وأمّا تنظيف المسجد فقد يصل إلى حدّ الوجوب؛ ولذلك ينبغي الحفاظ على نظافته وأناقته، والاهتمام بأمتعته وكتبه ومصاحفه، والعمل على صيانته.

وقد روى الترمذيّ في نظافة المسجد عن أنسٍ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«عرضت عليّ أجور أمّتي حتّى القذاة يخرجها الرجل من المسجد»**[٣].

### ٥. الدخول إليه بالرجل اليمنى، والخروج منه باليسرى

وذلك عملاً بسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد روي عن آله الكرام عليهم السلام: **«الفضل في دخول المسجد أن تبدأ برجلك اليمنى إذا دخلت، وباليسرى إذا خرجت»**[٤].

### ٦. الدعاء عند دخول المسجد وعند الخروج منه

فإذا دخلت المسجد فقل: **«اللّٰهُمَّ اغفر لي وافتح لي أبواب رحمتك»**، وإذا

---

(١) صحيح مسلم، مسلم بن الحجّاج النيسابوريّ: ج٢، ص١٣٠؛ وأيضاً: كنز العمّال، للمتّقي الهنديّ: ج٧، ص٥٥٥، ح٢٠٢٢٧.

(٢) وسائل الشيعة، الحرّ العامليّ: ج٥، ص٢٠٠، ح١.

(٣) سنن الترمذيّ، محمّد بن عيسى الترمذيّ: ج٤، ص٢٥٠، ح٣٠٨٣.

(٤) وسائل الشيعة، للحرّ العامليّ: ج٥، ص٢٤٦، ح٢.

خرجت فقل: «**اللّٰهُمَّ اغفر لي، وافتح لي أبواب فضلك**»[١]، وإذا لم يمكنك حفظ ذلك فادخل واخرج بذكر الصلاة على محمّد وآل محمّدٍ؛ عملاً بالمرويّ عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إذا دخلت المسجد فصلّ على النبيّ صلى الله عليه وآله وإذا خرجت فافعل ذلك**»[٢].

## ٧. التوجّه للمسجد عند سماع الأذان والصلاة في الصفوف الأولى

الأفضل أن يتوجّه المسلم للمسجد قبل حلول وقت الصلاة بقليلٍ، فإذا تأخّر وسمع صوت الأذان فينبغي الخروج للمسجد وأن لا يتأخّر، فإنّه يستحبّ مباكرة المسجد[٣]، وقد ورد أنّه أتى النبيّ صلى الله عليه وآله رجلٌ أعمى فقال: «يا رسول الله، إنّه ليس لي قائدٌ يقودني إلى المسجد، فسأل رسولَ الله صلى الله عليه وآله أن يرخّص له فيصلّي في بيته، فرخّص له، فلمّا ولّى دعاه فقال: **هل تسمع النداء بالصلاة؟** فقال: نعم، قال: **فأجب**»[٤].

كما أنّ عليه أن يحرص على الصلاة في الصفوف الأولى شرط عدم المزاحمة، والأولويّة للصفوف الأقرب فالأقرب، وأن يحرص على عدم ترك فراغاتٍ بين الصفوف، وقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لو علم الناس ما في النداء والصفّ الأوّل لاستهمّوا عليه**»[٥]، وفي رواية مسلمٍ: «**لو يعلم الناس ما في النداء والصفّ الأوّل، ثمّ لم يجدوا إلّا أن**

---

(١) المصدر السابق: ج٥، ص٢٤٥، ح٥.

(٢) المصدر السابق: ج٥، ص٢٤٦، الباب ٤٠، ح١.

(٣) انظر: المعتبر في شرح المختصر، للمحقّق نجم الدين أبي القاسم جعفر بن الحسن الحلّيّ: ج٢، ص٣٠٣.

(٤) صحيح مسلمٍ، مسلم بن الحجّاج النيسابوريّ: ج٢، ص١٢٤.

(٥) بحار الأنوار، للعلّامة المجلسيّ: ج٨٥، ص٢٠.

**يستهمّوا عليه لاستهمّوا**»[١]، أي: إلّا أن يقترعوا بينهم لاقترعوا، وفي خبرٍ آخر: «**لا يزال قومٌ يتأخّرون حتّى يؤخّرهم الله**»[٢]، والأَولى بطلبة العلم وحفَظة القرآن وأولي الأحلام والنهي ـ أي: علية القوم من العقلاء ـ أن يتقدّموا إلى الصفوف الأولى؛ فعن أبي مسعود قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول: **لا تختلفوا فتختلف قلوبكم، ليلني منكم أولو الأحلام والنهى، ثمّ الذين يلونهم، ثمّ الذين يلونهم**»[٣].

## ٨. السلام على المصلّين

فالسلام سنّةٌ مستحبّةٌ تتأكّد عند الدخول للمسجد فيبادر بالسلام على الحضور، ولكن يكره السلام على المشغول بالصلاة؛ للأخبار الواردة في ذلك.

## ٩. عدم الخروج من المسجد بعد اقتراب موعد الأذان

إنّ الخروج من المسجد عند اقتراب موعد الأذان ـ فضلاً عن حضوره ـ بدون عذرٍ شرعيٍّ يعتبر إعراضاً عن الصلاة أو إعراضاً عمّا يقتضيه الأذان الذي في أحد فصوله: «**حيّ على الصلاة**».

## ١٠. تسوية الصفوف

إنّ تسوية الصفوف عند إقامة الصلاة، من الآداب المحبّبة، والتي تكشف عن نظم الإسلام، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**سوّوا صفوفكم، فإنّ**

---

(١) صحيح مسلمٍ، مسلم بن الحجّاج النيسابوريّ: ج٢، ص٣١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) السنن الكبرى، للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيبٍ النسائيّ: ج١، ص٢٨٦، ح٨٨١.

**تسوية الصفّ تمام الصلاة»**[١]، ونحن لا نعلم تفصيلاً مواضع القبول ومواضع الرضا؛ فإنّ الله تعالى أخفى رضاه في بعض عباداته، كما أخفى غضبه في بعض معاصيه، ولا يُعلم فيما نحن فيه من تسوية الصفوف، فلعلّها من مواضع رضاه سبحانه.

## ١١. عدم حجز مكانٍ فيه دون الصلاة فيه

فإنّ ذلك سيفضي إلى منع الآخرين من الصلاة فيه بحجّة حجزه المسبق، على أنّ مثل هذا العمل لا يخلو من شبهة رياءٍ[٢]، فضلاً عن كونه مفضياً إلى نوعٍ من الاستخفاف بالصلاة بالتأخّر عنها؛ لضمانه المسبق لمكانه المحجوز له، وفيه نوعٌ من الإساءة للمصلّين حيث سيضطرّ المتأخّر إلى تخطّي رقاب الناس بغير حقٍّ، وقد يُلحق بهم الأذى، وفي هذا إثمٌ، وإذا كان هذا العمل ليس من آداب المسجد وغير مرغوبٍ به فمن الأولى عدم حجز مكانٍ للآخرين.

## ١٢. الصلاة في أقرب المساجد ما عدا صلاة الجمعة

فمن آداب المسجد أن لا يهجر المسجد المجاور له بذهابه إلى مسجدٍ آخر، فقد روى الطبرانيّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «**ليصلّ أحدكم في مسجده ولا يتتبّع المساجد**»[٣]، ولا يخفى ما في حديث الرسول صلى الله عليه وآله: «**لا صلاة لجار**

(١) بحار الأنوار، للعلّامة المجلسيّ: ج٨٥، ص١٩، ح٣٢.

(٢) هاهنا قصّةٌ تنفع في المقام، يذكر أنّ رجلاً اعتاد الصلاة في الصفّ الأوّل وخلف إمام الجماعة مباشرةً لسنواتٍ طويلةٍ، وفي يومٍ ما تأخّر قليلاً فوجد شخصاً يصلّي مكانه فغضب ولم يصلّ، ولكنّه لم يجرؤ على تنحية الرجل، وفي هذا الأثناء تفكّر في أمره فأدرك خطأه وبدأ يتّهم نفسه بأنّ ما فات منه من الصلوات في السنين الغابرة لا يخلو من شبهة الرياء، فقرّر قضاء كلّ ما تقدّم منه.

(٣) المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيّوب اللخميّ الطبرانيّ: ج١٢، ص٢٨٣.

**المسجد إلّا في مسجده»**[1]، من دلالةٍ واضحةٍ على أهمّيّة المسجد المجاور وتقديمه على المساجد الأخرى فضلاً عن الصلاة في البيت، ولا يستثنى من ذلك إلّا صلاة الجمعة المقامة في مسجد البلدة، فإن كان مسجد البلدة غير المسجد المجاور فإنّه ينبغي التوجّه للمسجد الجامع لإقامة فريضة الجمعة المقدّسة.

ولا يخفى ما في هجران المسجد القريب من مساوئ كثيرةٍ، منها إخلاء المسجد من المصلّين، وإيهام الناس بعدم عدالة إمام المسجد المجاور، وغير ذلك.

## كيف نكون مسجديّين؟

بالرغم من كون الدين فطريّاً إلّا أنّ حالة التديّن إمّا أن تكون ذاتيّةً منبثقةً من داخل النفس والقلب والعقل والروح، أو تكون عرضيّةً جاءت نتيجة تأثّرٍ موضعيٍّ أو سلوكٍ جمعيٍّ، فمن كان تديّنه ذاتيّاً فهو مسجديٌّ بالذات ولا يحتاج إلّا لتنبيهاتٍ وتفقّهٍ في الدين، وما ذكرناه آنفاً كافٍ في تحقيق ذلك، وأمّا بالنسبة للحالة الثانية فإنّ مشكلته تنطلق من عرضيّة حالة التديّن والتي بعرضها ستكون مسجديّته عرضيّةً أيضاً، وربّما تكون أضعف وجوداً من نفس حالة تديّنه، ولغرض التخلّص من ذلك أمامه طريقان لابدّ منهما، وهما:

### الطريق الأوّل: تأصيل حالة التديّن

أمّا التأصيل فإنّه الخروج ابتداءً من صورة التأثّر الموضعيّ إلى حالة التطبّع بالممارسة المستمرّة الناشئة عن طريق التذكير العمليّ بواسطة رفقاء الخير، أو من خلال وضع برنامج تدريجيٍّ يتعهّد مع نفسه بالالتزام به، وفي صورة وقوع

---

(١) وسائل الشيعة، للحرّ العامليّ: ج٥، ص١٩٤، ح١.

المخالفة يضع أمامه عدّة عقوباتٍ تُرغم النفس على تجاوز الخطأ في المرّة القادمة، من قبيل أنّه لو رفع صوته في المسجد بصورةٍ مخالفةٍ لمسجديّة المسجد فإنّه يُلزم نفسه بدفع صدقةٍ بصورةٍ مباشرةٍ، ولو تحدّث بحديث الدنيا في المسجد في صلاة الظهرين ـ مثلاً ـ يمتنع عن تناول الغداء، ولو حصل له ذلك في العشائين يمتنع عن تناول العشاء، ولو وقعت منه الغيبة مثلاً في المسجد ألزم نفسه بصيام يوم غدٍ، وهكذا حتّى يجد في نفسه أنّه تطبّع على حالة التديّن وحالة المسجديّة في نفسه، ومن الواضح بأنّ الخروج من صورة التأثّر الموضعيّ إلى حالة التطبّع يحتاج إلى أمرٍ آخر غير ما تقدّم، وهو التوسّل بالله تعالى والبكاء في حضرته.

ثمّ العمل على الخروج من حالة التطبّع إلى واقعيّة الطبع، وهذا لا يكون إلّا بواسطة عدّة أمورٍ، الأوّل: ديمومة البرنامج الرصديّ الآنف الذكر، ففيه عمليّةٌ وقائيّةٌ سليمةٌ، والثاني: الانتقال من صور الأشياء العباديّة إلى معانيها، من خلال التأمّل والتفكّر ومطالعة أسرار العبادات، ولعلّ أهمّ ما يساعد على ذلك هو غرس معارف التوحيد في النفس. الثالث: وضع برنامجٍ عباديٍّ في عرض البرنامج الرصديّ، من قبيل أن يصوم في الأسبوع يوماً واحداً، وأن يقرأ صفحةً أو صفحتين من القرآن في كلّ يومٍ مع فهم آياتها، وأن يلتزم بقراءة أدعية الأيّام، وغير ذلك ممّا هو موجودٌ في البرامج العباديّة.

ومن الواضح بأنّ الخروج من حالة التطبّع إلى واقعيّة الطبع بحاجةٍ أيضاً إلى التوسّل بالله تعالى والبكاء في حضرته، كما أنّه بحاجةٍ إلى عنايةٍ خاصّةٍ من الوليّ الأعظم إمام العصر والزمان حيث يلزم الاستغاثة به وهو أرأف بك من نفسك، فالزم ذلك ولا تغفل عنه.

**الطريق الثاني: التفقّه في الدين ولزوم المراقبة**

أمّا التفقّه في الدين فأمرٌ لابدّ منه؛ لأنّه يوفّر لك وقايةً شرعيّةً من الوقوع في البدع والاجتهادات الشخصيّة، وأمّا لزوم المراقبة فإنّه الوقاية الأعظم من التوغّل في الخطأ، وهذه المراقبة سوف تساعد كثيراً في تنفيذ البرنامجين السابقين ـ البرنامج الرصديّ الذي يتضمّن المشارطة والمحاسبة، والبرنامج العباديّ ـ فإذا ما تعاهد الإنسان مع نفسه في ذلك فإنّه سيكون طبع التديّن الذاتيّ قاب قوسين أو أدنى، وإذا ما أصبح تديّنه ذاتيّاً فإنّه سيكون مسجديّاً بصورةٍ سيعجز هو عن وصفها، وإذا ما أردنا أن نصفها على وجه التقريب فإنّه سوف يشعر في داخله أنّ قلبه أصبح مسجداً أو أنّ المسجد صار قلبه، وهنا تكمن روح المسجديّة العظمى، وهنا يكمن مفترق الطرق بين المسجديّ وغيره.

**اشتداد المسجديّة في المساجد الأربعة**

وهنا ينبغي الالتفات إلى أهمّيّة المساجد الأربعة ـ المسجد الحرام والمسجد النبويّ والمسجد الأقصى ومسجد الكوفة ـ فإنّ مسجديّتها تشتدّ بقدر أهمّيّتها، فإذا كان الحديث في الدنيا في المسجد العاديّ مكروهاً فإنّ كراهته تشتدّ في هذه المساجد الأربعة؛ لشدّة حركتها، وإذا كانت الصلاة في المسجد العاديّ مستحبّةً فإنّ الصلاة فيها أشدّ استحباباً للسبب نفسه، ولا ريب بأنّ لهذه المساجد الأربعة من الآثار الوضعيّة ما يجعلنا في احتياطٍ شديدٍ ومراقبةٍ شديدةٍ لأفعالنا، فإذا لم تجد شيئاً تفعله في هذه المساجد الأربعة ـ من صلاةٍ أو تلاوة قرآنٍ أو قراءة دعاءٍ أو تسبيحٍ أو تفكّرٍ في قدرة الله وخلقه ـ فالأولى لك الخروج؛ فإنّ المسجد عموماً وهذه الأربعة خصوصاً ليست مواضع

للاستراحة، فإن رمت الاستراحة فيها فاجعل استراحتك محفوفةً بالتسبيح أو بالتفكّر في الله تعالى وقدرته في خلقه.

## الأماكن المقدّسة

ونعني بها جميع مراقد المعصومين من الأنبياء والأئمّة عليهم السلام وما يلحقها من مراقد الأولياء والصالحين ممّن ثبتت أماكنهم وصحّة سيرتهم، فإنّ جميع هذه الأماكن لها حرمتها، فلا تُرفع فيها الأصوات ولا يُساء فيها الأدب، لاسيّما في مراقد المعصومين، وخصوصاً عند قبر النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وقبر أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام؛ ومن أهمّ ما يطلب في زيارة هذه المراقد الشريفة: الموعظة والتزوّد من سيرهم الخالدة.

## موعظةٌ

وأخيراً عن النبيّ الخاتم صلى الله عليه وآله في حديثٍ طويلٍ مع أبي ذرٍّ الغفاريّ رضي الله عنه: «**يا أبا ذرٍّ، طوبى لأصحاب الألوية يوم القيامة، يحملونها فيسبقون الناس إلى الجنّة، ألا وهم السابقون إلى المساجد بالأسحار وغيرها**»[1].

## مذاكرةٌ

١. ما هو الفرق بين العبادة والأخلاق، وبين المسجد والمسجديّة؟
٢. ما هي علاقة أخلاق المسجد بمسجديّة المسجد؟
٣. اذكر ثلاثة مصاديق قرآنيّةٍ وأخرى روائيّةٍ للمسجديّة.
٤. اذكر نكتةً ولطيفةً لإقامة الوجه شطر المسجد.
٥. ما هي علاقة المسجديّة بعنصر الجذب وعنصر الطرد؟

---

(١) الأمالي، للشيخ الطوسيّ: ص٥٢٩، ح١.

٦. ما هو المراد من عمارة المسجد؟
٧. ما هو النموذج الجديد لعمارة المسجد؟
٨. ما هي مساوئ هجران المسجد المجاور؟
٩. كيف نكون مسجديّين؟
١٠. ما هو التديّن الذاتيّ والتديّن العرضيّ؟
١١. ما هي سبل الوصول إلى التديّن الذاتيّ؟
١٢. ماذا نعني بالبرنامج الرصديّ والبرنامج العباديّ؟
١٣. ما هي المساجد الأربعة، وما علاقتها باشتداد المسجديّة؟

# الدرس السابع
# صورٌ روحانيّةٌ للطهارة والصلاة

- أهداف الدرس
- معنى الروحانيّة
- صورٌ روحانيّةٌ من الطهارة
- الوضوء
- الغسل
- التيمّم
- مكان المصلّي
- صورٌ روحانيّةٌ من الصلاة
- هويّة الصلاة
- ثمار الصلاة
- وقت الصلاة
- النيّة
- تكبيرة الإحرام
- الخشوع
- القراءة
- الركوع
- القنوت
- السجود
- السجدة اليونسيّة
- التشهّد
- التسليم
- التعقيبات
- صلاة الأولياء
- صلاة مودّعٍ
- مذاكرةٌ

## أهداف الدرس

١. بيان أدقّ معاني الطهور.
٢. بيان أنّ طهوريّة الماء تسبر غور النفس.
٣. بيان أنّ للوضوء أثراً اعتباريّاً وأثراً تكوينيّاً.
٤. بيان أنّ تمام الغسل في مسّ التطهير الواقعيّ للقلب.
٥. بيان ضرورة خلوص التواضع في التيمّم لترتّب الأثر التكوينيّ.
٦. بيان أهمّيّة مكان الصلاة وما يتركه من آثارٍ معنويّةٍ.
٧. بيان ثمار الصلاة.
٨. بيان أنّ تحديد وقت الصلاة بلحاظنا كوننا محفوفين بقيود الزمان والمكان.
٩. بيان أنّ للنيّة ذاتاً وجوديّةً وعوارض لازمةً لابدّ منها.
١٠. بيان أنّ الخشوع هويّة تحقّق الوصل، مع بيان القدر المتيقّن منه.
١١. بيان أنّ أثر قصر الفهم على ظاهر لفظ السورة وأثر تجاوز الفهم للباطن.
١٢. بيان تجلّي العبوديّة الخالصة والتبعيّة التامّة في السجود.
١٣. بيان أنّ السجدة اليونسيّة لها ظروفها الخاصّة، فليس له إطلاقٌ زمانيٌّ.
١٤. بيان صلاة الأولياء.
١٥. بيان معنى صلاة المودّع.

## معنى الروحانيّة

نظراً لكون الروحانيّة مأخوذةً من الروح، وأنّ الروح وجودٌ مجرّدٌ عن المادّة، فإنّ الروحانيّة تطلق ويراد بها ما يقابل المادّيّة والجسميّة، ولا يعنون بها

الجانب التجريديّ وإن كان ذلك جزءاً من حقيقتها، وإنّما يريدون بها الجانب المعنويّ الذي يمثّل الحقيقة المطلوبة من وراء ظاهر الأشياء، فالصلاة بأركانها المخصوصة لها روحانيّةٌ ومعنويّةٌ وراء صورتها وهيئتها، فالحديث عن روحانيّة الطهارة والصلاة وسائر العبادات لا يراد منه تبيين الأركان المخصوصة لكلّ عبادةٍ، وإنّما يراد به بيان الحقائق الكامنة في تلك العبادات؛ فقول الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام: «**الصلاة قربان كلّ تقيٍّ**»[1]؛ يريد به الجانب المعنويّ الذي تشتمل عليه الصلاة، وإلّا فالصلاة بأركانها المخصوصة قد تخلو من القربانيّة فتردّ على صاحبها.

من هنا سنسلّط الضوء على هذه الجوانب الخفيّة في العبادات والتي تمثّل حقيقة العبادات، وأنّها هي المطلوبة أوّلاً وبالذات، وأنّ هذه الحقائق المعنويّة لا يمكن تحصيلها بدون الإتيان بالعبادات على أشكالها وصورها الشرعيّة.

## صورٌ روحانيّةٌ من الطهارة

### معنى الماء الطهور

إنّ أدقّ معاني الطهور هو الخلوص من مطلق النجاسات المادّيّة والمعنويّة، وحيث إنّنا لا نقدر عادةً على تهيئة هذا القدر الرفيع فعلينا تحصيل القدر المتيقّن من الطهور، وذلك من خلال الاستفادة من الماء الذي لا تشوبه شائبة نجاسةٍ مادّيّةٍ أو شبهة غصبٍ، فالماء المغصوب مغصوبٌ أثره التكوينيّ، والماء النجس مسلوبٌ أثره التكوينيّ في التطهير.

لقد كان بعض العرفاء إذا ما أقبل على الوضوء تمعّن بالماء طويلاً وسأل ربّه باكياً أن يجعله طهوراً لظاهره وباطنه، وكأنّه يرمي بذلك إلى الأثر

---

(١) أصول الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٣، ص٢٦٥، ح٦.

التكوينيّ البعيد للماء الطهور، فطهوريّة الماء تسبر غور النفس وتستلّ النجاسات منها فيما إذا حصل اعتقادٌ بذلك وثقةٌ بالله تعالى.

## الوضوء

للوضوء ظاهرٌ يتحقّق بالأركان المخصوصة به، ويبقى أثره الاعتباريّ ما يأتي بأحد النواقض الظاهريّة، وله باطنٌ وسرٌّ ينتقض ويسلب أثره التكوينيّ بمجرّد وقوع ظلمٍ أو كذبٍ، فالذنب لا يجتمع مع ما يقتضيه الوضوء من أثرٍ تكوينيٍّ يجعله على مقربةٍ من مفتاح الصلاة وسرّها، بل من مطلق الطهارة الباطنيّة، فمن أحدث كذباً أو قال باطلاً ـ ولو شعراً ـ نقض ذلك الأثر التكوينيّ؛ ولذلك يرى بعض العرفاء الشامخين أنّ لكلّ صلاةٍ وضوءها الخاصّ بها؛ للحيلولة من الدخول في صلاةٍ بغير الأثر التكوينيّ للوضوء، فلا يقع له شيءٌ من سرّ الصلاة، وقد يكون القدوم على الظهرين ـ مثلاً ـ بوضوء الصبح فيه شيءٌ من الإجحاف بحقّ الصلاة اللاحقة، ولا يبعد أن يكون ذلك نوعاً من الاستخفاف الباطنيّ بالصلاة، فينبغي الالتفات لذلك وعدم تفويت الفرصة في توكيد الصلة وطلب القرب، فإنّ من أسرار الوضوء تحصيل الطهارة الكبرى عن أيّ رجسٍ ورجزٍ[1]، قال تعالى: ﴿...**وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ...**﴾ (الأنفال: ١١)؛ والحذر الحذر من النجاسات الباطنيّة.

ثمّ إنّ الوضوء هو المقدّمة العمليّة للصلاة فيكون مقدّمةً للخشوع الفعليّ، فلا يشتغل المتوضّئ بأحاديث عابرةٍ عند وضوئه فذلك ممّا يوصد أبواب الخشوع، وهذا ما يفسّر لنا ما كان عليه أئمّة الحقّ عليهم السلام عندما

---

(١) انظر: أسرار الصلاة، آية الله عبد الله الجواديّ الآمليّ: ص٢٠.

يتوضّؤون تتغيّر ألوانهم وأحوالهم، فهذا أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام إذا أخذ في الوضوء تغيّر وجهه من خيفة الله تعالى، وكان الإمام الحسن عليه السلام إذا فرغ من وضوئه تغيّر لونه، فقيل له في ذلك، فقال: «**حقٌّ على من أراد أن يدخل على ذي العرش أن يتغيّر لونه**»[1].

## الغسل

الغسل فيه تذكيرٌ عظيمٌ بالموت، فكأنّك ميّتٌ وقد أتيحت لك الفرصة بغسل نفسك، فكيف سيكون هذا الغسل، وكأنّه الفرصة العمليّة الأخيرة لك، ثمّ في تمام الغسل دعوةٌ لتطهير الباطن بالنحو الذي عليه الغسل، فكما أنّ شرط الغسل أن يمسّ الماء تمام بدنك فكذلك التطهير الواقعيّ المقصود حيث ينبغي أن يمسّ تمام روحك وقلبك، فلا تبقى قذارةٌ في الظاهر إلّا وأزيحت، ولا قذارةٌ في القلب إلّا ومحيت.

وكما أنّ الغسل ـ بحسب المعطيات العلميّة ـ يجدّد الدورة الدمويّة فيبثّ نشاطاً ظاهراً في البدن فلابدّ أن يقع معه نشاطٌ للعبادة في القلب، فإذا انعقد النشاط في القلب لذلك فاعلم أنّك أدركت سرّاً من أسرار الغسل.

## التيمّم

في التيمّم رفع حرجٍ ظاهرٍ من عدم المكنة من الطهارة المائيّة، وفيه رفع حرجٍ باطنٍ من عدم نيل ما يقتضيه الماء من أثرٍ تكوينيٍّ فيرفعه بشدّة التواضع الساطع فيه، فلا تغفل وأنت في حال التيمّم عن خلوص التواضع؛ فذلك ما تتدارك به ما فاتك من سرٍّ باطنيٍّ يمنحه الماء الطهور.

---

(١) انظر: مستدرك الوسائل، للميرزا النوري: ج١، ص٣٥٥، ح٧.

## مكان المصلّي

وهنا يفضّل كثيراً اتّخاذ مكانٍ خاصٍّ في البيت ـ إن أمكن ذلك ـ للصلاة فيه، فلا يستبدل مكاناً آخر؛ فإنّ وحدة المكان تساعد على تحقيق الاقتران بالجانب الروحيّ، ففي هذا المكان سيكثر الركوع والسجود، وفيه سيكثر التأمّل والبكاء، فيحتفظ لك المكان برائحة عباداتك، وبالتالي فكلّما تأتيه ستأتيك تلك الذكريات الجميلة، ويفضّل كثيراً أن يكون مكان الصلاة بعيداً عن مواقع الطعام والشراب والنكاح، فتتخذ لك زاويةً في البيت، أو غرفةً خاصّةً ـ إن أمكن ذلك ـ فذلك من توقيرك للصلاة، فإذا انهمرت دموعك فامسح بها أماكن الصلاة، لاسيّما مواضع السجود لتشهد لك في يوم الحساب، ولتكون لك ذكرى جميلةً في الأيّام القابلة.

## صورٌ روحانيّةٌ من الصلاة

وهنا لنا جولةٌ في تفاصيل الصلاة لبيان بعض صورها الروحانيّة، وهي:

## هويّة الصلاة

إنّها حلقة الوصل بين العبد وربّه، ومفترق الطرق بين الإيمان والكفر، وأرضيّة كلّ كمالٍ، وبوّابة القبول أو النظر في سائر الأعمال الأخرى، وهي بالإجمال هويّة الإنسان الكامل؛ ولأجل ذا قال الإنسان الكامل النبيّ الخاتم صلى الله عليه وآله في حديثٍ طويلٍ مع أبي ذرٍّ الغفاريّ رضي الله عنه: «**يا أبا ذرٍّ، إنّ الله تعالى جعل قرّة عيني في الصلاة وحبّبها إليّ كما حبّب إلى الجائع الطعام، وإلى الظمآن الماء، فإنّ الجائع إذا أكل الطعام شبع، وإذا شرب الماء روي، وأنا لا أشبع من الصلاة**»[1]، ولو شبع من الصلاة ما عاد شكوراً، وما عاد إنساناً كاملاً، فكانت

(١) الأمالي، للشيخ الطوسيّ: ص٥٢٨، ح١.

شكوريّته وكمال إنسانيّته بإدامة الصلاة، وبحسب تعبيره صلى الله عليه وآله: «**لكلّ شيءٍ وجهٌ، ووجه دينكم الصلاة، فلا يشينّ أحدكم وجه دينه...**»[١].

## ثمار الصلاة

من كلمات النور النبويّ سطعت سطورٌ سجّلت لنا ثماراً يانعةً للصلاة، وعلى العقلاء قطفها، منها:

### أوّلاً: حطّ الذنوب

عن سلمان الفارسيّ رضي الله عنه قال: «كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله **في ظلّ** شجرةٍ فأخذ غصناً منها فنفضه، فتساقط ورقه، فقال: **ألا تسألوني عمّا صنعت؟** فقالوا: أخبرنا يا رسول الله. قال: **إنّ العبد المسلم إذا قام إلى الصلاة تحاتّت خطاياه كما تحاتّت ورق هذه الشجرة**»[٢].

### ثانياً: الوقوف على باب ملك الملوك

عن النبيّ الخاتم صلى الله عليه وآله في حديثٍ طويلٍ مع أبي ذرٍّ الغفاريّ رضي الله عنه: «**يا أبا ذرٍّ، إنّك ما دمت في الصلاة فإنّك تقرع باب الملك، ومن يُكثر قرع باب الملك يفتح**»[٣].

### ثالثاً: قبول الأعمال الأخرى أو النظر فيها

وقد ورد في ذلك أخبارٌ كثيرةٌ، منها ما روي عن الإمام عليٍّ الرضا عليه السلام: «**أوّل ما يحاسب العبد عليه الصلاة، فإن صحّت له الصلاة صحّ له ما سواها، وإن**

---

(١) أصول الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٣، ص٢٧٠، ح١٦.
(٢) وسائل الشيعة، للحرّ العامليّ: ج٤، ص١٠٣، ح٣.
(٣) الأمالي، للشيخ الطوسيّ: ص٥٢٨، ح١.

**ردّت ردّ ما سواها...»**[١].

### رابعاً: العطايا الثلاث

وهي العطايا الإلهيّة التي تفوق الواحدة منها ما طلعت عليه الشمس، لا ينالها إلّا من نصب لله تعالى أقدامه، وافترش له وجهه، قد سجّلت في حديثٍ قدسيٍّ شريفٍ: «**الأوّل: أقذف من نوري في قلوبهم، فيخبرون عنّي، كما أخبر عنهم، والثاني: لو كانت السماوات والأرضون وما فيهما في موازينهم، لاستقللتها لهم، والثالث: أقبل بوجهي عليهم، أفترى من أقبلت بوجهي عليه، يعلم أحدٌ ما أريد أن أعطيه؟**»[٢].

## وقت الصلاة

كان النبيّ صلى الله عليه وآله ينتظر وقت الصلاة ويشتدّ شوقه لسماع الأذان، وطالما كان يصرّح بهذا الشوق لمؤذّنه المطيع فيقول له: «**أرحنا يا بلال**»[٣]؛ وعن إحدى أزواجه صلى الله عليه وآله أنّها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحدّثنا ونحدّثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنّه لم يعرفنا ولم نعرفه شغلاً بالله عن كلّ شيءٍ»[٤]، وكأنّ التهيّؤ لوقتها من رسوم إجلالها وتوقيرها؛ فعن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام أنّه قال: «**من لم يأخذ أهبة الصلاة قبل وقتها، فما وقّرها**»[٥].

وينبغي أن يُلحظ أنّ تعيين أوقات الصلاة المفروضة وتحديد جهة القبلة

---

(١) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري: ج٣، ص٢٥، ح٤.

(٢) مسكّن الفؤاد، للشهيد الثاني زين الدين عليّ بن أحمد الجبعيّ العامليّ: ص٢٨.

(٣) رسائل الشهيد الثاني، زين الدين عليٌّ الجبعيّ العامليّ: ص١٢٠.

(٤) المصدر السابق.

(٥) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج٢٠، ص٣٢٩، رقم الحكمة: (٧٦٨).

فيها إنّما هو بلحاظنا نحن المحفوفين بقيود الزمان والمكان، فكان التقييد لرفع الشتات عنّا وقصر باعنا من سعة الإطلاق، وأمّا بالنسبة للمعبود الواحد الأحد فإنّه لا صباح له ولا مساء، ولا جهة تحدّه، كما حكى عن نفسه سبحانه في قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ (البقرة: ١١٥)؛ والمشرق والمغرب شاملٌ للأزمنة والأمكنة معاً، وهما ليسا مفردين، ففي كلّ آنٍ هنالك مشرقٌ ومغربٌ، كما في كلّ خطٍّ مستقيمٍ قبلةٌ ما؛ قال تعالى: ﴿**فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ**﴾ (المعارج: ٤٠)؛ وإنّما الصلاة المعراجيّة إطلاقيّةٌ لا يحدّها زمانٌ ومكانٌ، ولو عمّ وجودنا الخشوع لصرنا في معراجٍ مطلقٍ، ولصار الوقت والجهة عندنا قطرتان في بحر إطلاقه، فاحفظ ذلك وتدبّر.

## النيّة

للنيّة ذاتٌ وجوديّةٌ وعوارض لازمةٌ لابدّ منها، أمّا ذاتها وذاتيّاتها فتكمن في أمرٍ واحدٍ لا غير، وهو قصد القربة من الله تعالى، وأمّا عوارضها اللازمة فأمران، الأوّل عنوان الفعل المؤتى به، من قبيل عنوان الصبح أو الظهر في الصلاة، والثاني: تحديد وجه الفعل، من وجوبٍ أو استحبابٍ، فالنيّة ليست وقتاً ولا جهةً البتّة، وإنّما هي قصد القربة منه سبحانه، فمن اشتغل بالعنوان وجهته دون القربة ما جاء بالنيّة، وكان فعله عوارض زائلةٌ، ومن كان التفاته إلى قصد القرب منه سبحانه فقد جاء بالنيّة، ومنه تفهم سرّ عدم اشتراط التلفّظ بالعنوان والجهة؛ لأنّهما مجرّد عوارض وليسا من ذاتيّات النيّة، ومنه تعلم أيضاً سرّ بطلان العبادة بوقوع الرياء؛ لأنّ الرياء عملٌ منافٍ لذات النيّة فتنتفي به.

وعندما نفهم أنّ حقيقة النيّة قصد القربة منه سبحانه فلابدّ أن نتّهم أنفسنا بالقصور والبعد عنه سبحانه؛ ليكون طلبنا صادقاً وواقعيّاً، فمن ظنّ أنّه قريبٌ من الله تعالى وجاء بنيّة القربة يكون مكذّباً لنفسه، على أنّ البعد هو واقع الحال المستديم ما دمنا لم نبلغ رتبة الإنسان الكامل، فلا يغرّنّك الصلاح الظاهريّ واشتغل بإدامة الصلاح الواقعيّ الكامن في نيل القرب، ولا ينبغي الإغفال عن حقيقةٍ مرّةٍ تعتورنا بعد كلّ عملٍ عباديٍّ، وهي وضع حدٍّ لقصدّ القربة بانتهاء العمل نفسه، فالعمل رحلةٌ قربيّةٌ تنتهي بانتهائه، وبغية جبر الانكسار والخسارة في عود البعد والفقد لابدّ أن ينعقد في قلبك شوقٌ واقعيٌّ للعمل بعد الانتهاء منه مباشرةً، لا أن تفرح بانتهائه، فاحفظ ذلك وتدبّر.

## تكبيرة الإحرام

هنالك إحرامٌ شعاره التكبير، كإحرام الحاجّ الذي لا ينعقد بدون التلبية، فإذا ما لبّى الحاجّ حرم عليه أمورٌ لا تحلّ له إلّا بعد طوافٍ وسعيٍ وتقصيرٍ[1]، وهكذا الحال في الصلاة فإحرامها لا ينعقد بدون التكبير ثمّ يشرع بالصلاة، فيحرّم عليه ما كان حلًّا له، ولا يرتفع عنه الحظر إلّا بعد الإتيان بكلّ الأركان المخصوصة بالصلاة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لكلّ شيء وجهٌ، ووجه دينكم الصلاة، فلا يشينّ أحدكم وجه دينه، ولكلّ شيءٍ أنفٌ، وأنف الصلاة التكبير**»[2].

---

(١) هذا مثالٌ لعمرة حجّ التمتّع، وأمّا أعمال الحجّ نفسه فتبدأ بالإحرام، ثمّ الوقوف بعرفة ومزدلفة، والرمي والتضحية والحلق، والمبيت يومين في منى، ثمّ طواف الحجّ والسعي وطواف النساء، وعندئذٍ يكون الحاجّ في حلٍّ.

(٢) أصول الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٣، ص٢٧٠، ح١٦.

## الخشوع

الخشوع قريبٌ من الخضوع، إلّا أنّ الخضوع في البدن، والخشوع في الصوت والبصر؛ قال سبحانه: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ...﴾ (القلم: ٤٣) وخشعت الأصوات، أي: سكنت. والخشوع ضدّ الاستكبار، ويقال: خشع الرجل: إذا رمى ببصره إلى الأرض، واختشع: إذا طأطأ رأسه كالمتواضع[١]، وروي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يرفع بصره إلى السماء في صلاته، فلمّا نزل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (المؤمنون: ٢) طأطأ رأسه، ورمى ببصره إلى الأرض[٢]، وقد كان لشدّة خشوعه وانقطاعه في الصلاة يبدو وكأنّه ثوبٌ ملقىً[٣]، وإذا وقف صلى الله عليه وآله للصلاة تربّد وجهه خوفاً من الله تعالى، وكان لصدره أزيزٌ كأزيز المرجل[٤].

فالخشوع هويّةٌ تحقّق الوصل، وبدونه تكون الصلاة جسداً بلا روحٍ. فإذا ما أردنا أن نحقّق وصلاً ومن المطلق قرباً، فلابدّ من التوجّه له بقلوبٍ خاشعةٍ، وكلّما كان الخشوع سابقاً كان الحضور واقعاً، غاية ما في الأمر أنّه سيزداد خشوعاً، وخلاصة الخشوع تحقّق الخضوع والانكسار في القلب، عنده ستجده حاضراً وناطقاً في قلبك؛ لأنّه يكون عند القلوب المنكسرة.

جديرٌ بالذكر أنّ القدر المتيقّن من تحصيل الخشوع لقبول الصلاة هو حصوله في النيّة وتكبيرة الإحرام، وذلك أضعف الإيمان، وإلّا فما الذي يستحقّ دونه نظرةً من القلب أو التفاتةً منه؟ ألا أنّ كلّ نظرةٍ والتفاتةٍ لسواه

---

(١) انظر: مجمع البيان في تفسير القرآن، للشيخ الطبرسيّ: ج١، ص١٩٣.

(٢) انظر: المصدر السابق: ج٧، ص١٧٦.

(٣) انظر: فلاح السائل، للسيّد ابن طاووسٍ الحسنيّ: ص١٦١.

(٤) انظر: المصدر السابق.

تسفّلٌ وانحدارٌ، وكلّ فكرةٍ بغيره خطلٌ وأوهامٌ.

## القراءة

بعد الإذن بدخول الصلاة بتكبيرة الإحرام لابدّ أن تحضر كلمات الله تعالى، فتكون منطلقاً لتفاصيل الصلاة، فكانت فاتحة الكتاب حيث الحمد والثناء، وفيها يمرّ العبد بمرحلتين، الأولى: الإقرار بالربوبيّة لله تعالى وقصر الحمد والثناء عليه، والثانية: الشروع بخطابٍ موجّهٍ من العبد لمعبوده جلّ جلاله، فيشير إليه بإشارةٍ قلبيّةٍ وذكرٍ لسانيٍّ: إيّاك نعبد وإيّاك نستعين.

فإن اقتصر فهمك على ظاهر اللفظ فذلك ما يعني أنّك على طهارةٍ من الحدث والخبث، وإذا ما امتدّت بصيرتك لباطن السورة وسرّها فذلك يعني أنّك منزّهٌ من كلّ دنسٍ معنويٍّ، فإنّ سرّ القرآن: ﴿**لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**﴾ (الواقعة: ٧٩)، وأثر الظاهر أنّك لا تلتفت ببدنك يميناً أو شمالاً، وأثر الباطن والسرّ أنّ قلبك لا يلتفت لغير الله تعالى، وبعبارةٍ أخرى أعمق وأدقّ: إنّ القراءة على الظاهر معراجها الحصول، والقراءة على الباطن والسرّ معراجها الحضور.

## الركوع

وهنا يظهر كامل الاستعداد للتضحية في سبيل الله تعالى بعد تلاوة آياته، حيث الوقوف هنيهةً للدلالة على توحيده سبحانه، ثمّ تمدّ عنقك للضرب دفاعاً عن إيمانك بوحدانيّته سبحانه؛ وقد جاء في الخبر أنّ رجلاً سأل أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام فقال: «ما معنى مدّ عنقك في الركوع؟ فقال: **تأويله آمنت بالله ولو ضربت عنقي**»[1]، ومن هنا تفهم سرّ لزوم الطمأنينة وعدم

(١) من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق: ج١، ص٣١١، ح٩٢٧.

الاضطراب في تأدية الركوع، فذلك للكشف عن تمام استعدادك للتضحية.

ولعلّ هنالك سرّاً آخر للركوع يكمن في إظهار الإجلال والاحترام تعظيماً لما تلوته من القرآن آنفاً، وكأنّك تريد أن تقول: من يصدر منه هذا الكلام المعجز فله ركوعي وسجودي.

## القنوت

وبعد الركوع والاستعداد للتضحية ينبغي أن تستغيث به سبحانه وتطلب منه أن يمنحك الفرصة للتضحية في سبيله، أي: ما أوحيت له بركوعك عليك أن تطلب تحقيقه، وهذا الأمر بحاجةٍ إلى الاستغاثة والعون، فيكون القنوت فرصتك للتزوّد بذلك، ثمّ تمضي بعد الاستمداد منه لمقام الفناء والفناء في الفناء، وهو السجود ظاهراً وباطناً.

## السجود

وهو مقام تجلّي الفناء والفناء في الفناء، وليس هنالك ما يكون فيه العبد أقرب لله تعالى من السجود، وبه تُنال المطالب الكبرى، ويروى عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «مرّ بالنبيّ صلى الله عليه وآله رجلٌ وهو يعالج بعض حجراته فقال: يا رسول الله ألا أكفيك؟ فقال: **شأنك**، فلمّا فرغ قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: **حاجتك؟** قال: الجنّة، فأطرق رسول الله صلى الله عليه وآله ثمّ قال: **نعم**. فلمّا ولّى قال له: **يا عبد الله أعنّا بطول السجود**»[1]؛ فأمْره بالسجود وإطالته يحكي عظيم هذا المقام وما يتركه من أثرٍ في النفس.

ولا ريب بأنّ العبوديّة الخالصة والتبعيّة التامّة إنّما تتجلّى في مقام السجود؛ ولهذا نجد الأمر الإلهيّ للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام في قوله تعالى:

---

(١) أصول الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٣، ص٢٦٦، ح٨.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا...﴾ (البقرة: ٣٤)، فمن أراد نيل القرب فليُكثر من السجود مستحضراً معنى العبوديّة الخالصة.

## السجدة اليونسيّة

نسبةً إلى قول نبيّ الله يونس عليه السلام المحكيّ في قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧)، سمّيت السجدة باسمه، وذكرها: ﴿لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ حيث يفضّل ترديدها مئة مرّةٍ عقيب الصلاة، وقد اشتهرت هذه السجدة على ألسن العرفاء، ينصحون بها لتوثيق كمالات السجود، والذي نراه أنّ مطلق السجود لله تعالى مطلوبٌ، سواء وقع بهذا الذكر أم بسواه، ولا نفضّل الاقتصار على الذكر اليونسيّ. ويجب أن نعرف أنّ الذكر اليونسيّ له ظروفه الخاصّة، فعندما يقع من الإنسان ذنبٌ أو ظلمٌ مثلاً ويريد التخلّص من تبعات ذنبه، عليه التوبة أوّلاً وردّ الحقوق ثانياً والتوسّل بهذا الذكر ثالثاً، وأمّا إذا كان العبد في معرض الشكر لله تعالى فلا يناسبه هذا الذكر، وإنّما عليه أن يطيل السجود بذكر الشكر، ومن يطلب حاجةً عليه أن يأتي بذكرٍ خاصٍّ بطلب الحاجة؛ ولذلك فإنّ الاقتصار على الذكر اليونسيّ في مختلف الحاجات لا يؤتي أكله، فاعرف ذلك وتدبّر.

## التشهّد

إنّ كلمة التوحيد وذكر الشهادتين يمثّلان الحقيقة الإيمانيّة، واقتضى ذلك أن يكون شروع الصلوات الواجبة بها مرّتين خارج الصلاة، في الأذان والإقامة، ومرّةً في الصلاة الصباحيّة ومرّتين في الصلوات الأخرى، فتكون

الصلوات غير الثنائيّة ثنائيّة الشهادة قبل الصلاة وثنائيّة الشهادة في الصلاة، وهذا التركيز التوحيديّ يشير إلى أنّ المصلّي بحاجةٍ إلى الرجوع إلى مركز حركته، وهو التوحيد، فينطلق موحّداً ويسير في صلاته موحّداً، ولعلّ في ذلك تنبيهاً كبيراً إلى دفع الخواطر الجانبيّة العارضة في الصلاة بذكر الشهادتين، فإنّ الخواطر أنّى كانت فهي شيطانيّةٌ، فيلزم طردها بكلمة التوحيد الطاردة لكلّ خاطرٍ شيطانيٍّ وكلّ وسوسةٍ عابرةٍ، فيما إذا قرئت بالتفاتٍ وتدبّرٍ.

## التسليم

بالتسليم تنعقد علاقتك بسائر المؤمنين وتطلّ عليهم بما يلزمهم بالردّ عليك، فمن كان ملتفتاً إلى عظيم هذا الموقف لاحت له في أفق نفسه تحايا المسلّم عليهم، ابتداءً من الأنبياء وانتهاءً بالعباد الصالحين، فالتسليم الأوّل إقرارٌ بالعرفان لرسول الرحمة صلى الله عليه وآله، والتسليم الثاني تمزج نفسك بكيان العباد الصالحين وتسلّم على نفسك بالتفاتٍ وخشوعٍ ثمّ تعطفهم عليك، فنفسك العبّادة استحقّت التسليم فيما إذا أعلنت لله تعالى كامل التسليم، والتسليم الأخير تعمّ الخلق به بصفتهم عباداً لله تعالى، فيكون تسليمك رحمةً من الله عليهم، أو كما جاء في الخبر أنّ رجلاً قد جاء لأمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام فكان ممّا سأله: «ما معنى قول الإمام: السلام عليكم؟ فقال: **إنّ الإمام يترجم عن الله عزّ وجلّ ويقول في ترجمته لأهل الجماعة: أمانٌ لكم من عذاب الله يوم القيامة...**»[1]؛ فيكون في تسليمك المعنى نفسه، وهو تأويل تسليمك.

## التعقيبات

وفيه تعلن حاكميّة الشوق عليك، فالانفتال عن الصلاة تضطرب له

(١) من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق: ج١، ص٣٢٠، ح٩٤٥.

النفس المؤمنة، فاحتاج الأمر وقفةً يتريّث فيها من جنس الصلاة، فلا تقطع الصلة، فكان التعقيب، وفيه تتدارك ما فاتك من التوجّه، وتمحو ما خطر على قلبك من الأغيار.

## صلاة الأولياء

إنّ بطانة صلاة الأولياء كمال الحبّ، فالحبّ عنده إكسير سعادته، فهو لا يصلّي لمجرّد تحقيق العبادة، ولا يصلّي إرضاءً لمعبوده، وإنّما يصلّي بداعي الانقطاع إلى محبوبه، فالحبّ يتحكّم به ويجعل منه خرقةً باليةً يمسح بها عتبة محبوبه، فيدخل الصلاة والسعادة تتملّكه، وينفتل منها والألم يعصره فرقاً على محبوبه، مع خوفٍ ووجلٍ يعتريه أن لا يكون أتى بها وفق رسومها الموافقة لمرتبته المعرفيّة.

## صلاة مودّعٍ

لو أمهلوك لحظاتٍ ثمّ تودّع الحياة فكيف تكون صلاتك لربّك؟

تلك هي صلاة المودّع، حيث يقبل بكلّه على ربّه طالباً منه العفو والمغفرة، إنّها صلاةٌ تنطفئ فيها كلّ إشعاعات الدنيا الكاذبة، ويتحقّق فيها كمال الانقطاع والخشوع؛ ولأجل ذا ينصح العرفاء لتحصيل الخشوع في الصلاة أن نُقدم على صلاتنا بروحيّة صلاة المودّع؛ فإنّها وسيلةٌ ناجحةٌ ومجرّبةٌ لتحصيل الخشوع، كما أنّها صلاة الوصل والقرب، كما جاء ذلك صريحاً في قول رسول الله صلى الله عليه وآله عندما استوصاه رجلٌ فقال له: «**صلّ صلاة مودّعٍ، فإنّ فيها الوصلة والقربى**»[1].

---

(١) مصباح الشريعة، المنسوب للإمام الصادق عليه السلام: ص١٦٢؛ الباب٧٧ في الوصيّة.

## مذاكرةٌ

١. ما هو أدقّ معاني الطهور؟
٢. ما علاقة الطهوريّة بسبر غور النفس؟
٣. ما هو الأثر الاعتباريّ والتكوينيّ للوضوء؟
٤. هل للغسل علاقةٌ بمسّ التطهير الواقعيّ للقلب؟
٥. ما أهمّيّة خلوص التواضع في التيمّم؟
٦. ما هي أهمّيّة المكان الخاصّ للصلاة وأثره في النفس؟
٧. ما هي ثمار الصلاة؟
٨. ما سرّ تحديد وقت الصلاة؟
٩. ما هي العوارض اللازمة للنيّة؟
١٠. ما علاقة الخشوع بالوصل؟
١١. هل من المناسب استعمال السجدة اليونسيّة في كلّ حالٍ؟
١٢. ما هو الملحوظ في صلاة الأولياء؟
١٣. كيف تصلّي صلاة المودّع؟

## الدرس الثامن

# المحافظون على الصلاة

- أهداف الدرس
- تمهيدٌ
- معنى الإقامة والأداء والفرق بينهما
- علاقة إقامة الصلاة في صناعة الإنسان
- علاقة إقامة الصلاة بالحاكم والمحكوم
- دور الصلاة في علاقة الإنسان الطوليّة مع ربّه
- الدور الاجتماعيّ للصلاة
- معنى فلاح المصلّين
- الفلاح في بعده المادّيّ الاجتماعيّ
- الصلاة وصنع النموذج البشريّ الإيجابيّ
- المستخفّون بالصلاة
- كيفيّة التعاطي مع تارك الصلاة
- مذاكرةٌ

## أهداف الدرس

١. بيان معنى أداء الصلاة وإقامة الصلاة، والفرق بينهما.
٢. بيان معنى الصلاة الخاشعة وما هو مطلوبٌ منّا.
٣. تصوير أداء الصلاة وإقامتها في ضوء الحمل الأوّليّ والشائع الصناعيّ.
٤. بيان علاقة إقامة الصلاة في صناعة الإنسان.
٥. بيان علاقة إقامة الصلاة بالحاكم والمحكوم.
٦. بيان دور الصلاة في علاقة الإنسان الطوليّة مع ربّه.
٧. بيان الدور الاجتماعيّ للصلاة، وواقعيّة الفلاح في بعده المادّيّ الاجتماعيّ.
٨. بيان معنى فلاح المصلّين، والنوع الذي نحرز به الفلاح.
٩. بيان دور الصلاة في صنع النموذج البشريّ الإيجابيّ.
١٠. الكشف عن هويّة المستخفّين بالصلاة، وكيفيّة التعاطي معهم.

## تمهيدٌ

قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (لقمان: ٤ـ٥)، وهنا تطرح الآيتان مقيم الصلاة كنموذجٍ بشريٍّ إيجابيٍّ، فاحتاج الأمر إلى معرفة معنى إقامة الصلاة التي تصنع النموذج البشريّ الإيجابيّ، وبيان فرقها عن أداء الصلاة، وما هي الصلاة التي استحقّ صاحبها الاتّصاف بالهدى والفلاح.

## معنى الإقامة والأداء والفرق بينهما

لإقامة الصلاة معنىً عامٌّ بسيطٌ يفهمه ويحقّقه عامّة الناس، ومعنىً آخر

خاصٌّ عميقٌ يفهمه ويحقّقه المؤمنون حقّاً، الخاشعون في صلاتهم، الوارد ذكرهم في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (المؤمنون: ١ـ٢).

أمّا المعنى العامّ البسيط فهو إتيان الصلاة بأركانها المخصوصة، من تكبيرٍ وقراءةٍ وركوعٍ وسجودٍ وتشهّدٍ وتسليم، وبشروطها المعلومة من طهارةٍ من الحدثين، وطهارة الثياب والمكان واستقبال القبلة وإيقاعها في الوقت المعلوم. وهذا المعنى من قيام الصلاة بإمكان كلّ المصلّين تحقيقه، بلا فرقٍ بين الخاشع واللاهي، وبين المؤمن والفاسق.

وأمّا المعنى الخاصّ للقيام ـ وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٥) ـ فهو أن تنبعث الروح مع أوّل حرفٍ من تكبيرة الإحرام، بمعنى أن يغادر الإنسان عالمه المادّيّ ليدخل إلى عالم الصلاة، وعالم الصلاة هو عالم الحضرة الإلهيّة، وهذا لا يكون إلّا بحضورٍ قلبيٍّ تامٍّ والتفاتٍ تامٍّ إلى كلّ معاني الصلاة والتفاتٍ تامٍّ إلى المعبود نفسه.

## توضيح المسألة منطقيّاً

في علمي المنطق والفلسفة يبحثون الحمل المنطقيّ ويقسّمونه إلى حملٍ ذاتيٍّ أوّليٍّ وحملٍ شائعٍ صناعيٍّ، والحمل الأوّليّ هو حمل المفهوم على نفسه، من قبيل قولنا: الإنسان إنسانٌ، فبين الموضوع والمحمول وحدةٌ مفهوميّةٌ واضحةٌ.

وأمّا الحمل الشائع الصناعيّ ففيه يحمل المفهوم على مصداقه، من قبيل قولنا: عليٌّ إنسانٌ، فالإنسان مفهومٌ، وعليٌّ مصداقٌ لذلك المفهوم.

ولو لاحظنا الحمل الأوّليّ نجد أنّنا لم نضف فيه شيئاً جديداً، فالإنسان إنسانٌ سواءٌ تحقّق الحمل أو لم يتحقّق، وأمّا في القضيّة الثانية فقد أضفنا معنىً

جديداً، وهو أنّنا أثبتنا أنّ عليّاً إنسانٌ وليس شيئاً آخر.

وعليه فإذا أقمنا الصلاة من دون خشوعٍ وخضوعٍ وانكسارٍ وإقرارٍ تامٍّ بالعبوديّة لله تعالى، وبدون حضور قلبٍ وتوجّهٍ والتفاتٍ فإنّنا لم نحقّق شيئاً جديداً على الحالة السابقة على الصلاة، فيكون ما أتينا به أشبه بالحمل الأوّليّ، ويكون الحاضر عندنا مجرّد صورة الصلاة ومفهومها، والحاضر في الصلاة مجرّد كلماتٍ وحركاتٍ وسكناتٍ، فتكون كلّ متعلّقاتنا حاضرةً إلّا الصلاة فهي غائبةٌ عنّا، أو نحن غائبون عنها، أي: يكون كلّ شيءٍ حاضراً مصداقه عندنا بالحمل الشائع إلّا الصلاة فإنّها حاضرةٌ عندنا بالحمل الأوّليّ.

ومثل هذه الحال تكون أشبه بحال السكارى الذين نُهوا عن إتيان الصلاة، وهم على هذا الحال في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ...**﴾ (النساء: ٤٣)؛ فمن باب الجري والتطبيق يكون المقصود بالسكارى في المقام هم الذين يصلّون وقلوبهم لاهيةٌ، وعقولهم سارحةٌ، وشهواتهم حاضرةٌ في الصلاة.

وأمّا إذا أقمنا الصلاة بانبعاثٍ حقيقيٍّ للروح ودخولٍ فعليٍّ إلى عالم الصلاة، فإنّنا نكون قد حقّقنا شيئاً جديداً على الحالة السابقة على الصلاة، فيكون ما أتينا به أشبه بما حقّقناه في الحمل الشائع الصناعيّ.

وأمّا بالنسبة للفرق بين أداء الصلاة وقيام الصلاة، فإنّ إقامة الصلاة بالمعنى البسيط ـ أو ما أطلقنا عليه بالحمل الأوّليّ ـ مجرّد أداءٍ للصلاة، وأمّا إذا أقمنا الصلاة بالمعنى الثاني ـ الذي أسميناه بالحمل الشائع الصناعيّ ـ فإنّها إقامة الصلاة حقّاً، فالمعنى الأوّل للقيام هو الأداء، والمعنى الثاني للقيام هو المعنى الحقيقيّ لإقامة الصلاة، وحيث إنّ المعنى الثاني ليس يسيراً فقد عبّر عنه تعالى بأنّ إقامتها كبيرةٌ إلّا على الخاشعين.

وينبغي أن يُعلم أنّ الصحّة والبطلان يتوقّفان على المعنى الأوّل لإقامة الصلاة لا غير، وأمّا قبولها أو عدم قبولها فيتوقّفان على المعنى الثاني لإقامة الصلاة.

## علاقة إقامة الصلاة في صناعة الإنسان

**أوّلاً**: إنّ العلاقة وثيقةٌ جدّاً، فصناعة الإنسان ـ ونقصد بها بطانة الإنسان وليس شكله وبدنه ـ مربوطةٌ بالعلاقة بصانع الإنسان وخالقه، وليس هنالك وسيلةٌ عباديّةٌ أعظم وأقرب للعبد يستعين بها من الصلاة، كما تقدّم في قوله تعالى: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ**﴾ (البقرة: ٤٥)؛ فنحن نتلو يوميّاً سبع عشرة مرّةً في صلواتنا قوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ (الفاتحة: ٥)، والله تعالى هنا يدلّنا بشكلٍ صريحٍ كيف نستعين به، حيث يقول استعينوا بالصبر والصلاة، ثمّ يصف الاستعانة بالصلاة بأنّها أمرٌ كبيرٌ إلّا على الخاشعين، وبالتالي فإنّ الاستعانة بالصلاة الخاشعة تجعلنا قريبين من صانع الإنسان، وبقدر قربنا منه تعالى نستمدّ من كمالاته في بناء بطانتنا وإعمار قلوبنا.

**ثانياً**: إنّ الصلاة الخاشعة الموصوفة بالإقامة لا بالأداء لها وظيفةٌ وضعيّةٌ تكوينيّةٌ، وهي تحصين المصلّي من الفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿**اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**﴾ (العنكبوت: ٤٥)، فصرف السوء والفحشاء والمنكر تارةً يكون بإرادةٍ ربّانيّةٍ خالصةٍ، وهذا أمرٌ غير متاحٍ للكلّ، بل هو لخاصّة الأنبياء، كما في قصّة نبيّ الله يوسف عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿**...لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾ (يوسف: ٢٤)؛ وهنالك صرفٌ للسوء والفحشاء والمنكر بإرادةٍ منّا وتوفيقٍ من الله تعالى، وهو بواسطة إقامة

الصلاة، لا بواسطة أداء الصلاة فقط، وكأنّ الله تعالى الذي كرّم أمّة محمّد صلى الله عليه وآله بدين الأنبياء ـ وهو الإسلام الحنيف والدين القويم ـ أراد أن يهبنا طريقاً نبويّاً نسلكه باختيارٍ منّا وتوفيقٍ منه، وهو طريق صرف السوء والفحشاء من خلال التسوّر بالصلاة الخاشعة، علماً أنّ إقامة الصلاة الخاشعة تتوقّف على الإتيان بالأركان والشروط التي يتحقّق بها أداء الصلاة.

## علاقة إقامة الصلاة بالحاكم والمحكوم

يقول المولى تبارك وتعالى في آيةٍ له في كتابه الكريم: ﴿**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾ (الحج: ٤١)، فهذه الآية الكريمة تشير وبشكلٍ واضح إلى أنّ إقامة الصلاة ينبغي أن تكون في سلّم الأولويّات للحاكم، من هنا نسأل ما هو دور الحاكم أو المؤسّسة الحكوميّة ككلٍّ في إقامة الصلاة؟

**أوّلاً**: إنّ لإقامة الصلاة دوراً عظيماً في إقامة الحاكم على الجادّة، فالحاكم الذي لا يصلّي لا يمكن أن يكون تقيّاً، وما لم يكن تقيّاً لا يمكن أن يكون حاكماً عادلاً، وأمّا بالنسبة للسؤال عن دور الحاكم أو المؤسّسة الحكوميّة في إقامة الصلاة، فإنّ الحاكم ـ سواءً كان مؤمناً أو فاسقاً ـ يسعى إلى استتباب الأمن في البلاد، واستتباب الأمن لا يكون إلّا بالقضاء على الجريمة، والجريمة لا يُقضى عليها إلّا بمحاصرة السوء والفحشاء والمنكر، وهذا لا يُصرف إلّا بإقامة الصلاة والحثّ عليها.

**ثانياً**: إنّ إقامة الصلاة الخاشعة وإشاعتها في المجتمع تساهم مساهمةً عظيمةً في صناعة المجتمع التقوائيّ، وهو المجتمع الذي يطلق عليه الفلاسفة بالمدينة الفاضلة التي يأمن فيها الجميع، ومن الواضح أنّ تحقيق المجتمع التقوائيّ والمدينة الفاضلة مطلبٌ كلّ حاكمٍ عادلٍ؛ ولذلك فإنّه بإشاعته

للصلاة والحثّ عليها يحقّق هدفه كإمامٍ عادلٍ وصاحب حكومةٍ عادلةٍ.

وأمّا بالنسبة للحكومات الفاسقة فإنّها لا يُتوقّع منها أن تقوم بمسؤوليّةٍ إيجابيّةٍ تجاه الصلاة؛ ولذلك فليس من المنطقيّ أن نحمّلها مسؤوليّةً، ولكنّها لو كانت حكومةً عاقلةً فلا تقف عائقاً أمام إقامة الصلاة.

## دور الصلاة في علاقة الإنسان الطوليّة مع ربّه

ما هي طبيعة الدور الذي تنهض به الصلاة في علاقة الإنسان بربّه، أو قل: ما هو الدور الذي تلعبه الصلاة في سلوك الإنسان إلى الله تعالى.

ممّا تقدّم اتّضحت عدّة أمورٍ في دور الصلاة في السلوك إلى الله تعالى، ولكن مع ذلك فهنالك إضاءاتٌ أخرى ينبغي الوقوف عندها تبرّز لنا الدور العميق للصلاة في صياغة سلوك الإنسان تجاه ربّه، وهي:

**الإضاءة الأولى**: إنّ الهدف الواقعيّ من وراء السلوك نحو الله تعالى هو نيل القرب منه، وتحقيق اللقاء بالله تعالى بالنحو الذي يرضاه، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ**﴾ (الانشقاق: ٦)، وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً**﴾ (الفجر: ٢٧ـ ٢٨)، وهذا القرب له طرقٌ عدّةٌ، ولكن لم يرد فيها كما ورد في الصلاة التي عبّر عنها رسول الله بأنّها معراجٌ في قوله صلى الله عليه وآله: «**الصلاة معراج المؤمن**»[1]، فحقيقة الصلاة معراجيّةٌ، أي تعرج به إلى الله تعالى، ولكنّ هذه المعراجيّة لا تتحقّق بدون التقوى، وهذا ما نفهمه من قول الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام: «**الصلاة قربان كلّ تقيٍّ**»[2]، فتكون المحصّلة هي أنّ الصلاة

---

(١) مستدرك سفينة البحار، للشيخ عليّ النمازيّ: ج٦، ص٣٤٣.

(٢) فروع الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٣، ص٢٦٥، ح٦.

معراج وقربان كلّ مؤمنٍ تقيٍّ.

**الإضاءة الثانية**: نحن في السير إلى الله تعالى نحتاج إلى وقودٍ وطاقةٍ متواصلةٍ، وليس أمامنا أفضل من الصلاة، حيث أمرنا بالاستعانة بها كما تقدّم، وأمرنا بالتزوّد منها، ﴿**وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾ (الأنعام: ٧٢)؛ حتّى بلغ مورد الحاجة إليها أن نحوّل بيوتنا إلى قبلةٍ ـ أي: إلى مسجدٍ صغيرٍ ـ للصلاة فيه، قال تعالى: ﴿**...وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ (يونس: ٨٧)، وأمرنا الله تعالى بالحفاظ عليها حيث قال: ﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ**﴾ (البقرة: ٢٣٨)؛ حتّى ورد في الخبر: أنّها لا تُترك بأيّ حالٍ من الأحوال، فلا تسقط الصلاة إلّا بالموت، بعكس العبادات الأخرى المشروطة بالقدرة والاستطاعة.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يعبّر عنها بأنّها قرّة عينه؛ لأنّها وسيلته إلى الله تعالى، وقد أُمر بها بأمرٍ خاصٍّ في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً**﴾ (المزّمّل: ١ ـ ٦)؛ ولشدّة ارتباطه بها ـ إدراكاً منه لمحبوبيّتها لله تعالى وقربانيّتها ـ كان يقضي جلّ الليل بالصلاة، حتّى ورد فيه قوله تعالى: ﴿**طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**﴾ (طه: ١ـ٢).

## الدور الاجتماعيّ للصلاة

يقول الله تعالى: ﴿**...إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ...**﴾ (العنكبوت: ٤٥)، إنّ هذا المقطع من الآية الكريمة يوضّح أنّ المصلّي الحقيقيّ هو من تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر، ولهذا الأمر علاقةٌ وثيقةٌ بالجانب الاجتماعيّ، وهنا نريد أن نفهم طبيعة هذا الدور الاجتماعيّ للصلاة، أو قل: ما الذي

يكون عليه سلوك المصلّي اجتماعيّاً مع أهله وعياله، ومع جاره، ومع كلّ الناس المحيطين به، وكيف ينبغي أن يكون في معاملاته؟

إنّه سؤالٌ في غاية الأهمّيّة، وقد تقدّمت بعض الإشارات له، ولكنّنا سنحاول بحثه من خلال اعتماد نكتةٍ لغويّةٍ تتعلّق بالمصدر واسم المصدر، فالمصدر هو الحدث نفسه، كقولنا: الحجّ، (بفتح الحاء)، حيث نريد نفس الحدث الذي هو نفس الواجب المأمورين بإيجاده، دون ملاحظة عنصر الزمان، وأمّا اسم المصدر فيراد به شيءٌ وراء الحدث، وهو نتيجة الحدث، كقولنا: الحجّ (بكسر الحاء)، ونريد به نتيجة الحجّ، وحيث إنّ نتيجة الحدث أهمّ من الحدث نفسه، فقد أمرنا الله تعالى بتحقيق نتيجة الحدث في الحجّ، أي: اسم المصدر، فقال تعالى: ﴿**...وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً...**﴾ (آل عمران: ٩٧)، ولم يقل: حجّ البيت؛ لأنّه لا يريد الحدث مستقلّاً، وإنّما يريده مع نتيجته المتوخّاة منه، ونتيجة الحدث في الحجّ هو الإخلاص في التوحيد.

وإذا ما لاحظنا موضوع البحث في إقامة الصلاة وليس قيام الصلاة، فالإقامة اسم مصدرٍ، والقيام مصدرٌ، والمطلوب منّا هو إقامة الصلاة وليس مجرّد قيام الصلاة، ممّا يعني أنّ المطلوب هو نتيجة الصلاة وليست الصلاة وحدها مجرّدةً عمّا وراءها، ونتيجة الحدث في الصلاة هو السلوك السويّ، والمعاملة الطيّبة.

وبالتالي يتّضح لنا أمران، هما:

**الأوّل**: أنّ الصلاة المأتيّ بها منظورٌ فيها نتيجتها على الصعيد الفرديّ في العلاقة مع الله تعالى وعلى الصعيد الاجتماعيّ في السلوك السويّ مع الناس والشعور بالمسؤوليّة تجاههم.

**الثاني**: أنّ الصلاة التي لا تحقّق أهدافها الفرديّة والاجتماعيّة هي ليست الصلاة المطلوبة، أو قل: هي الحدث وحده، والمفروض أنّ المطلوب هو نتيجة الحدث المنعكسة على السلوك الفرديّ والاجتماعيّ معاً.

ولو تأمّلنا قليلاً في الأوامر المتعلّقة بالصلاة نجدها مشتقّةً من الإقامة وليس من القيام، قال تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ...**﴾ (البقرة: ٤٣)، وقد ورد بهذا الشكل أكثر من عشر مرّاتٍ، وقوله تعالى: ﴿**...فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً**﴾ (النساء: ١٠٣)؛ وغيرها، وهذه الأفعال مأخوذةٌ من اسم المصدر (إقامة) فيكون الحدث ونتيجته مطلوبين.

## معنى فلاح المصلّين

مرّ بنا قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (لقمان: ٤ و٥)؛ حيث تصف الآية الكريمة المصلّي بأنّه على هدًى من ربّه وأنّه من المفلحين.

فما هو معنى الفلاح الذي يحصل عليه الإنسان ببركة إقامة الصلاة؟

إنّ الفلاح والفلح في اللغة هو البقاء في الخير، وهو الفوز والنجاة أيضاً، وما جاء في أحد فصول الأذان: «حيّ على الفلاح»، أي: أقبل على بقاء الخير، وأقبل على الفوز والنجاة، وحيث إنّ المنادى عليها هو الصلاة فتكون الصلاة هي الخير وهي الفوز والنجاة[1].

وهذا الخير والفوز والنجاة له بعدان: مادّيٌّ ومعنويٌّ، وكلٌّ منهما تظهر آثاره في الدنيا والآخرة، فهنالك فوزٌ مادّيٌّ دنيويٌّ وأخرويٌّ، كما أنّ هنالك

---

(١) انظر: كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيديّ: ج٣، ص٢٣٣، باب:(فلح)؛ وأيضاً: الصحاح تاج اللغة، للجوهريّ: ج١، ص٣٩٢، باب: (فلح).

فوزاً معنويّاً دنيويّاً وأُخرويّاً؛ وهي كالتالي:

**أوّلاً**: الفوز المادّيّ الدنيويّ، وهو ما يتمثّل في جلب مطلق الخير المادّيّ، وقد ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**للمصلّي ثلاث خصالٍ: إذا قام في صلاته يتناثر البرّ عليه من أعنان السماء إلى مفرق رأسه...**»[1]، والبرّ في المقام كنايةٌ عن مطلق الرزق الحلال، ومنه الرزق المادّيّ في طعامٍ ولباسٍ ومسكنٍ وغير ذلك.

**ثانياً**: الفوز المادّيّ الأخرويّ، وهذا واضحٌ جدّاً، حيث يتمثّل بنيل الجنّة ونعيمها؛ قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ (المؤمنون: ٩ـ١١).

**ثالثاً**: الفوز المعنويّ الدنيويّ، وهذا ما يتمثّل بالتمتّع بصفة الإيمان أو المؤمنيّة، حيث سمّاه الله تعالى بذلك، وبصفة الفلاح. فالمؤمن عندما يستشعر إيمانه وأنّه من أهل الفلاح فإنّه سوف يمتلئ قلبه غبطةً، وقد وصفه القرآن بالإيمان والفلاح ـ كما تقدّم ـ في قوله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾ (المؤمنون: ١ـ٢).

**رابعاً**: الفوز المعنويّ الأخرويّ، وهذا ما يتمثّل بنيل رضوان الله تعالى، فإنّهم بصفتهم مؤمنين ومن أهل الفلاح ستكون من محصّلة فلاحهم في الآخرة نيل رضوان الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ (التوبة: ٧٢).

جديرٌ بالذكر أنّ هذا الفلاح المستفاد من الصلاة ـ أو قل هو ثمرة الصلاة ـ إنّما هو خاصٌّ بالصلاة الخاشعة، فليس في كلّ صلاةٍ فلاحٌ؛ قال تعالى: ﴿**قَدْ**

---

(١) مكارم الأخلاق، للشيخ الطبرسيّ: ص٣٠٠.

﴿أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (المؤمنون: ١ـ٢)، وقد عرفنا أنّ الصلاة الخاشعة هي التي يحضر فيها القلب ويكون فيها الالتفات التامّ إلى الله تعالى، بمعنى: أنّ الأشياء تغيب ولا يحضر سوى الله تعالى، وبطبيعة الحال فأنّ الخشوع نسبيٌّ ومراتبيٌّ، وما يُقبل من الصلاة بقدر ما خشع القلب فيها.

وقد روي في ذلك عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «**إذا استفتح العبد صلاته أقبل الله عليه بوجهه الكريم، ووكّل به ملكاً يلتقط القرآن من فيه التقاطاً، فإن أعرض عن صلاته أعرض عنه ووكّله إلى الملك، وإن أقبل على صلاته بكلّه أقبل الله عليه بوجهه الكريم، حتّى تُرفع صلاته كاملةً، وإن سها فيها أو غفل أو شغل بشيءٍ غيرها رفع من صلاته بقدر ما أقبل عليه منها، ولا يُعطَى القلب الغافل شيئاً**»[1].

## الفلاح في بعده المادّيّ والاجتماعيّ

إنّ الفلاح بمعناه المادّيّ الاجتماعيّ هو أنّ الصلاة الخاشعة تجعل من المؤمن عنصراً منتجاً في المجتمع وليس عنصراً مستهلكاً؛ لأنّ الصلاة الخاشعة تربطه بالله تعالى وتجعله مقتصراً على مقدار الحاجة في الأمور الدنيويّة، كما أنّها ستجعل منه عنصراً مصلحاً في الأرض مسارعاً للخيرات.

إنّ القرآن الكريم يصف من يقيم الصلاة بالفلاح، فما هي علاقة إقامة الصلاة بفلاح الإنسان؟

إنّ هذا الأمر ينبغي أن يكون قد اتّضح ـ ولو إجمالاً ـ من كلّ ما تقدّم، ومع ذلك فهنالك نكتةٌ نودّ إبرازها في هذا المجال، وهي أنّ النفع والفوز المسمّى بالفلاح يبدأ من الفرد المصلّي وينتهي بالمجتمع، ولهذا المعنى جانبٌ

---

(١) مكارم الأخلاق، للشيخ الطبرسيّ: ص٣٠٠.

نفسيٌّ مهمٌّ جدّاً، فالإنسان العاديّ بجبلّته لا يتحرّك لخير الآخرين بقدر ما يتحرّك لخير نفسه، فاحتاج الأمر أن يستشعر العامل وجود نفعٍ قريبٍ له.

من هنا نجد أنّ الصلاة الخاشعة تحقّق الخير القريب قبل البعيد، والخير القريب يتمتّع به نفس المصلّي، وأمّا الخير البعيد فيتمتّع به المجتمع.

## الصلاة وصنع النموذج البشريّ الإيجابيّ

إنّ الصلاة تسوّر الإنسان المؤمن بجدارٍ حصينٍ يمنعه من دخول عالم الفحشاء والمنكر، وإذا ما تسوّر وتحصّن الإنسان من ذلك فإنّه سيغدو نموذجاً إيجابيّاً، لا يشتغل إلّا بفعل الخير على المستويين المادّيّ والمعنويّ.

بعبارةٍ أخرى: إنّ الصلاة أعظم مصنعٍ إلهيٍّ تنتج فيه النماذج البشريّة الصالحة، ولعلّ هذا ما دعا الإمام الصادق أن يختم وصيّته بالتذكير بالصلاة، حيث قال عليه السلام: «**إنّ شفاعتنا لا تنال مستخفّاً بالصلاة**»[1]؛ لأنّ المستخفّ بالصلاة إنسانٌ منحرفٌ ليس سويّاً، أي ليس نموذجاً بشريّاً صالحاً.

## المستخفّون بالصلاة

بعد ما اتّضح ما للصلاة الخاشعة من أدوارٍ وثمارٍ، لنا أن نسأل:

ماذا عن تارك الصلاة، وما عن المتهاون بالصلاة، وماذا عمّن أصبحت صلاته مجرّد عادةٍ وليس سبيل كمالٍ ونجاةٍ؟ ماذا عن هؤلاء المستخفّين بالصلاة، وما الذي يخسرونه بتضييعهم للصلاة؟

وهنا ينبغي التعرّف أوّلاً على المستخفّين بالصلاة، فهم كثرٌ، ولكن أبرزهم:

**أوّلاً**: الذين لا يهتمّون بمقدّمات الصلاة، كالطهارة في البدن والثوب

---

(١) وسائل الشيعة، للحرّ العامليّ: ج٤، ص٢٥، ح٦.

والمكان، وفي عدم رعاية تفاصيل الوضوء.

**ثانياً**: الذين يؤخّرون الصلاة عن وقتها، وهذا النوع من أشدّ مصاديق الاستخفاف، بل هو تضييعٌ للصلاة؛ عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**قال رسول الله** صلى الله عليه وآله: **من صلّى الفريضة لغير وقتها رُفعت له سوداء مظلمةً تقول له: (ضيّعك الله كما ضيّعتني)، وأوّل ما يُسأل العبد إذا وقف بين يدي الله عزّ وجلّ عن صلواته، فإن زكت صلاته زكا سائر عمله، وإن لم تزكُ صلاته لم يزكُ عمله**»[1]، وفي خبرٍ آخر عنه صلى الله عليه وآله وقد سئل عن معنى تضييع الصلاة فقال: «**يدعها ـ والله ـ حتّى تصفرّ الشمس وتغيب**»[2]، وكان يقصد صلاة العصر.

**ثالثاً**: الذين يتركون الصلاة ثمّ يعودون إليها ثمّ يتركونها، وهكذا، فهذا العمل على حدّ تعبير الرسول صلى الله عليه وآله هو الكفر، حيث يقول صلى الله عليه وآله: «**ما بين المسلم وبين أن يكفر إلّا ترك صلاة فريضةٍ متعمّداً، أو يتهاون بها فلا يصلّيها**»[3].

**رابعاً**: الذين تكون صلاتهم كنقر الغراب؛ فعن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «أبصر عليّ بن أبي طالبٍ عليه السلام رجلاً ينقر بصلاته، فقال: **منذ كم صلّيت بهذه الصلاة؟** فقال له الرجل: منذ كذا وكذا. فقال: **مثلك عند الله كمثل الغراب إذا ما نقر، لو متّ متّ على غير ملّة أبي القاسم محمّد** صلى الله عليه وآله، **ثمّ قال عليٌّ عليه السلام: إنّ أسرق الناس من سرق صلاته**»[4].

وهذا الذمّ لتاركي ومضيّعي الصلاة سجّله القرآن الكريم أيضاً بقوله

---

(١) المحاسن، أحمد بن محمّد بن خالد البرقيّ: ج١، ص٨١، ح١٠.

(٢) المصدر السابق: ج١، ص٨٣، ح١٨.

(٣) المصدر السابق: ج١، ص٨٠، ح٨.

(٤) المصدر السابق: ج١، ص٨٢، ح١١.

تعالى: ﴿**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً**﴾ (مريم: ٥٩)، والغيّ هو وادٍ في جهنّم، أي: يقعون فيه، بمعنى أنّهم سوف يلقون شرّاً وضلالاً وخيبةً في جهنّم.

إنّ الخسارة الحقيقيّة للمستخفّ بالصلاة تكمن في فقده لسبيل كماله الحقيقيّ ونيل الحظّ العظيم، وذلك أشبه ما يكون بالمريض التارك لدوائه، فمصيره الحتميّ هو الموت، وإنّ العقلاء يذمّونه كثيراً هذا النوع من الترك، فترك الصلاة يعني قطع الصلة بالله تعالى، وقطع الصلة بالله تعالى يعني قطع الصلة بالكمال المطلق، فلا يبقى سوى الدوران في عالم القصور والنقص، وكلّما أمعن فيه ازداد نقصاً، كالسائر باتّجاهٍ معاكسٍ لغايته فإنّه كلّما ازداد سرعةً ازداد بعداً عن غايته.

## كيفيّة التعاطي مع تارك الصلاة

ولكن ماذا ينبغي لنا ـ نحن المصلّين ـ في التعاطي مع هذه الشريحة التاركة للصلاة؟ هل لنا دورٌ تجاههم وتكليفٌ شرعيٌّ نؤديّه حيالهم؟

إنّ ما ينبغي القيام به أوّلاً: هو أن نأمر تارك الصلاة بالمعروف (الإتيان بالصلاة)، وننهاه عن المنكر (تركه للصلاة)، وأيّ منكرٍ أكبر من ترك الصلاة التي في تركها هدمٌ لعمود الدين، وقد وردت أحكامٌ شديدةٌ بحقّ تارك الصلاة عمداً أو المستخفّ بها؛ فعن الإمام الصادق عليه السلام: «**لا تُطعموا تارك الصلاة ولا تُسقوه، فإذا مرض لا تعودوه، فإذا مات لا تشيّعوه، ولا تدفنوه في مقابر المسلمين**»، وفي خبرٍ آخر: «**لا تسلّموا على تارك الصلاة ولا تضحكوا في وجهه**»[1]، وهذه الأمور كلّها تدخل في أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) شجرة طوبى، للشيخ محمّد مهدي الحائريّ: ج٢، ص٤٤١.

نعم، لا ينبغي التشدّد معه ونعته بالألفاظ الخشنة، فإنّ الهدف هو إصلاحه وليس تعنيفه، ولا يصحّ أن نتعامل مع تارك الصلاة على كونه خصماً أو عدوّاً، وإنما علينا التعاطي معه على نحو ما يتعاطى به الطبيب الممارس مع مريضه، لابدّ أن نُفهمه خطأ عمله، وأثره السلبيّ على الصعيد الشخصيّ والاجتماعيّ، لابدّ أن نُخبره بسرّ عدم إطعامنا وسقايتنا له، ولابدّ أن يفهم لماذا لا نُسلّم عليه، كما هو الحال في منع المريض من بعض المأكولات والمشروبات.

## مذاكرةٌ

١. ما نعني بأداء الصلاة وإقامة الصلاة، وما هو الفرق بينهما؟
٢. بيّن معنى الصلاة الخاشعة وما هو مطلوبٌ منّا.
٣. ما هو نوع صلاة الخاشع وصلاة اللاهي من حيث أداء الصلاة وإقامتها؟
٤. صوّر علاقة الحمل الأوّليّ والحمل الشائع بأداء الصلاة وإقامتها.
٥. ما هي علاقة إقامة الصلاة في صناعة الإنسان؟
٦. ما هي طبيعة التوقّف بين أداء الصلاة وإقامة الصلاة؟
٧. هل لإقامة الصلاة علاقةٌ بالحاكم والمحكوم؟
٨. أيّ أنواع الصلاة له صلةٌ وثيقةٌ بالمجتمع التقوائيّ؟
٩. ما هو دور الصلاة في علاقة الإنسان الطوليّة مع ربّه؟
١٠. ما هو الدور الاجتماعيّ للصلاة؟
١١. ما هو معنى فلاح المصلّين، وأيّ أنواع الصلاة التي نحرز بها الفلاح؟
١٢. بيّن واقعيّة الفلاح في بعده المادّيّ الاجتماعيّ.
١٣. كيف تُسهم الصلاة في صنع النموذج البشريّ الإيجابيّ؟
١٤. من هم المستخفّون بالصلاة، وكيف نتعاطى معهم؟

# الدرس التاسع
# صورٌ روحانيّةٌ للصوم

- أهداف الدرس
- تمهيدٌ
- صورٌ روحانيّةٌ من الصوم
- مذاكرةٌ

## أهداف الدرس

١. بيان كون الصوم فريضةً مكتوبةً على الخلق أجمعين.
٢. بيان معنى الامتناع عن الطعام والشراب.
٣. بيان كيف أنّ الصوم يشكّل واقعاً حسّيّاً يوقظ ذاكرة الإنسان.
٤. بيان علاقة الصوم بمعالجة الأنفة والتكبّر.
٥. بيان الحالة العامّة ـ الأنس بالمادّيّات ـ التي يعالجها الصوم.
٦. بيان كيفيّة إبدال لذّة الشبع بلذّة الجوع، وإبدال لذّة الحلّ بلذّة المنع.
٧. بيان المقدار الذي حثّ عليه الإسلام من صوم الصمت.
٨. بيان علاقة العفّة بالصوم.

## تمهيدٌ

اعتنى القرآن الكريم والسنّة الشريفة بالصوم وبيان أهمّيّته وضرورته الدينيّة، فالصوم هو الفريضة الوحيدة التي صرّح القرآن بأنّها مكتوبةٌ على الخلق أجمعين؛ قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (البقرة: ١٨٣)؛ وإنّ الصوم من الأعمدة الخمسة التي بني عليها الإسلام[١]، وإنّه جنّةٌ من النار[٢]، وإنّه العبادة الوحيدة التي نسبها الله تعالى لنفسه، وإنّ رائحة فم الصائم (الخلوف) عند الله

---

(١) قال الإمام الباقر عليه السلام: «**بني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة والزكاة والحجّ والصوم والولاية**». (من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق: ج٢، ص٧٣، ح١٧٧٠).

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الصوم جنّةٌ من النار**». (المصدر السابق: ج٢، ص٧٣، ح١٧٧١).

تعالى أطيب من المسك[١]، وغير ذلك ممّا ورد في الصوم، وهذا ما يجعلنا نقف عند الأبعاد الروحيّة للصوم لنتزوّد من ذلك في قابل الأيام، وقد وقع الاختيار على أهمّ الصور المنظورة فيه.

## صورٌ روحانيّةٌ من الصوم

### أوّلاً: معنى الامتناع عن الطعام والشراب

ذُكرت عدّة توجيهاتٍ للامتناع من الطعام، وأغلبها علّقت الأمر بأصل الصيام، منها: ليستوي الغنيّ مع الفقير ويشعر بحال الفقير فيحنّ عليه؛ فعن هشام بن الحكم قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن علّة الصيام؟ قال: **العلّة في الصيام ليستوي به الفقير والغنيّ؛ وذلك لأنّ الغنيّ لم يكن ليجد مسّ الجوع فيرحم الفقير؛ لأنّ الغنيّ كلّما أراد شيئاً قدر عليه، فأراد الله أن يسوّي بين خلقه، وأن يذيق الغنيّ مسّ الجوع والألم؛ ليرقّ على الضعيف ويرحم الجائع**»[٢].

وعن حمزة بن محمّدٍ، قال: «كتبت إلى أبي محمّد ـ الحسن العسكريّ ـ عليه السلام: لِمَ فرض الله الصوم؟ فورد الجواب: **ليجد الغنيّ مضض الجوع فيحنّ على الفقير**»[٣].

فكثير المال عادةً ما يكون مشغولاً بماله، فيكون غافلاً عن المحتاجين أو متغافلاً، فيحتاج إلى واقعٍ حسّيٍّ يوقظ ذاكرته، ونظراً لكون الطعام أمراً شديد

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**قال الله تبارك وتعالى: الصوم لي وأنا أجزي به، وللصائم فرحتان حين يفطر وحين يلقى ربّه عزّ وجلّ، والّذي نفس محمّد بيده، لخلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك**». (من لا يحضره الفقيه: ج٢، ص٧٤، ح١٧٧٣).

(٢) علل الشرائع، للشيخ الصدوق: ج٢، ص٣٧٨، ح٢، باب: (فضل الصيام).

(٣) الفروع من الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٤، ص١٨١، ح٦.

الحضور في حياته، فإنّه يحتاج أن يتوقّف عند هذه المحطّة، ويعيد حساباته في تعاطيه الإنسانيّ.

ومنها: قطع دابر الأنفة والتكبّر، وليكون معيناً على مواقف الآخرة، فضلاً عن كونه معولاً قاصماً للشهوات، فقد كتب أبو الحسن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام إلى محمّد بن سنانٍ فيما كتب من جواب مسائله: «**علّة الصوم لعرفان مسّ الجوع والعطش ليكون ذليلاً مستكيناً مأجوراً محتسباً صابراً، ويكون ذلك دليلاً له على شدائد الآخرة، مع ما فيه من الانكسار له عن الشهوات، واعظاً له في العاجل، دليلاً على الآجل ليعلم شدّة مبلغ ذلك من أهل الفقر والمسكنة في الدنيا والآخرة**»[1].

ومنها ما روي في حديثٍ طويلٍ من أنّ الأمر متعلّقٌ بآدم عليه السلام لمّا أكل من الشجرة، فكان الصوم وسيلةً علاجيّةً للتخلّص ممّا تناوله بدون إذنٍ[2].

وقد اختصر رسول الله صلى الله عليه وآله ما تقدّم ذكره بقوله: «**ما من مؤمنٍ يصوم شهر رمضان احتساباً إلّا أوجب الله ـ تبارك وتعالى ـ له سبع خصالٍ، أوّلها يذوب الحرام في جسده، والثانية يقرب من رحمة الله عزّ وجلّ، والثالثة يكون قد كفّر خطيئة آدم أبيه عليه السلام، والرابعة يهوّن الله عليه سكرات الموت، والخامسة أمانٌ من الجوع والعطش يوم القيامة، والسادسة يُعطيه الله براءةً من النار، والسابعة يُطعمه الله عزّ وجلّ من طيّبات الجنّة**»[3].

ولعلّ هنالك تصويراتٍ أخرى تطلب من مظانّها، وما يهمّنا في المقام هو أن نفهم أنّ الصوم ـ فضلاً عن كونه فريضةً تعبّديّةً ـ يهدف إلى تحقيق حالةٍ

---

(١) من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق: ج٢، ص٧٣، ح١٧٦٧.

(٢) انظر: المصدر السابق: ج٢، ص٧٣، ح١٧٦٩.

(٣) المصدر السابق.

عامّةٍ تخصّ الإنسان، سواءٌ كان غنيّاً أو فقيراً، وسواءٌ كان متكبّراً أو متواضعاً، وسواءٌ كان آكلاً من الحرام أو لم يكن كذلك، وغير ذلك ممّا فهمناه من الروايات الآنفة.

أمّا هذه الحالة العامّة فإنّها تتلخّص في كون الإنسان غالباً ما يأنس بالمادّيّات، ولهذه المادّيّات أولويّاتٌ في حياته، حيث يتقدّمها الطعام والشراب والنكاح، فكان لابدّ من دورةٍ تهذيبيّةٍ لهذا الاندفاع باتّجاه المادّيّات؛ فكان الصوم أقصر الطرق لذلك، حيث المنع التامّ خلال أوقات القوّة التي يتوجّه فيها الإنسان إلى المادّيّات، وهو وقت النهار، حيث الحركة الدؤوبة والعمل المتواصل والرغبة الأكيدة بالأطعمة والأشربة، بخلاف ما عليه الحال في الليل المائل للراحة والسكينة والتأمّل، وهذا الأمر ليس مختصّاً بالصوم الواجب، حيث يشمل الواجب وغيره.

إذن هنالك هدفٌ عامٌّ نحتاجه في كلّ عام، نعيد من خلاله قراءتنا للشهور الماضية، أو إعادة قراءتنا للأيّام السابقة للصوم مطلقاً، وهذا الهدف لا يخلو منه إنسانٌ فيكون مطلوباً للكلّ.

وممّا يتفرّع على هذا الهدف العامّ ما يضفيه الصوم من فرصةٍ عظيمةٍ لتغذية وتنمية القوى الروحيّة، فالجوع والعطش والامتناع عن مطلق الملذّات ـ أو الاقتصار على القليل منها ـ يجعل الإنسان في حلٍّ وعتقٍ من عبوديّتها، وقد ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**حسب ابن آدم لُقيماتٌ يُقمن صلبه...**»[1]، فإنّ الإنسان ـ كما أشار بعض الحكماء ـ لم يُخلق ليأكل، أو لم يعش ليأكل، وإنّما يأكل ليعيش[2]، فيكفيه ما يسدّ به رمقه، فإذا التزم بذلك أشرقت

---

(١) عدّة الداعي، لابن فهد الحلّي: ص٧٤.

(٢) ينسب ذلك إلى الحكيم الإلهيّ سقراط.

روحه وفاضت عليها من المعرفة والأسرار ما لم يكن بالحسبان.

إنّ من أسرار الصوم ـ للملتفتين ـ أن يستبدل الصائم بلذّة الطعام والشراب لذّة الجوع والعطش، وبلذّة الحلّ لذّة المنع، ولعلّ هذا ما يفسّر لنا ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله من كثرة الصوم، فكان إذا أصبح ولم يجد طعاماً ـ وهو الغالب ـ نوى صيامه[1]، وكأنّ الأصل عنده هو الصيام؛ ولعلّه لذلك يُفَضّل لطالب العلم أن يكون أقرب للجوع والعطش منه إلى الامتلاء، فإنّ الشبع والامتلاء يذهبان بالفطنة، كما أنّ في الصوم تحقيق الطاعة في ترك كلّ ما يميل إليه الإنسان من ملذّات الدنيا، فيتركها تعظيماً وطاعةً واستجابةً لله تعالى. وأخيراً فإنّ من أسرار الصوم التزوّد بالقوّة المواجهة للأضرار المعنويّة التي لحقت بالنفس جرّاء أيّام الشبع السالفة، وكأنّ في الصوم نوع مقابلةٍ لأيّام الشبع المتخلّلة في الأيّام السالفة؛ ولذلك يُفَضّل بل يُستحبّ الإكثار من الصيام للتوقّي من تلك الآثار، ولتحقيق نوعٍ من الاعتدال في القوّة الشهويّة في كلّ شيءٍ، فلا تكون القوى الشهويّة حاكمةً وصاحبها مستجيباً لها، وإنّما مصانةً من الإفراط والتفريط.

## ثانياً: معنى الصوم عن الكلام

ورد في قصّة مريم قوله تعالى: ﴿ **فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً** ﴾ (مريم: ٢٦)، والظاهر في الصوم عن الكلام لمكان التفريع في (فلن)، والظاهر من السياق أنّ صوم الصمت كان مسنوناً في بني إسرائيل، إمّا لعامّة الناس أو للخاصّة منهم.

---

(١) انظر: شرح الأزهار، للإمام أحمد المرتضى ج٢، ص١٠.

إلّا أنّ هذا الصوم عن الكلام ارتضاه الإسلام، بل طلبه وحثّ عليه، ولكن ليس على إطلاقه، وإنّما الصوم عن كلّ كلام فيه فحشٌ أو أذًى، والأفضل من ذلك الصوم عن الهذر واللغو مطلقاً، حتّى وإن كان مباحاً، وقد ورد في الخبر عن جرّاح المدائنيّ عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إنّ الصيام ليس من الطعام والشراب وحده**»، ثمّ قال: «**قالت مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً﴾؛ أي: صوماً صمتاً، فإذا صمتم فاحفظوا ألسنتكم وغضّوا أبصاركم ولا تنازعوا ولا تحاسدوا**»، قال: «**وسمع رسول الله صلى الله عليه وآله امرأةً تسبّ جاريةً لها وهي صائمةٌ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله بطعامٍ، فقال لها: كلي. فقالت: إنّي صائمةٌ. فقال: كيف تكونين صائمةً وقد سبّيت جاريتك، إنّ الصوم ليس من الطعام والشراب**»[1].

ولا ريب أنّ من أهداف الصوم صيانة النفس من الحرام مطلقاً، ومنه حفظ اللسان من التفوّه بالحرام أو باللغو وبكلّ ما لا طائل منه، وحفظ السمع من كلمات الباطل؛ فإذا ما تعوّدتَ الصمت ورأى الآخرون منك ذلك، جنّبتَ نفسك سماع الباطل فضلاً عن النطق به، وقد مرّ بنا في بحثٍ سابقٍ ما للصمت من أهمّيّةٍ في السير والسلوك، بل هو ذكرٌ باطنيٌّ يقوّي فيك إرادة مخالفة النفس في حبّ الظهور أو حبّ التعبير عن النفس وإظهار مناقبها.

### ثالثاً: العلاقة بين العفّة وروحانيّة الصوم

يستفاد من روايات أهل البيت عليهم السلام أنّ العفّة هي منع البطن والفرج عن المحرّمات والشبهات، وبحسب حديث جنود العقل والجهل يقع في قبال العفّة التهتّك، ومنه عدم المبالاة بهتك حرمة الله تعالى بارتكاب المحرّمات،

---

(١) الفروع من الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٤، ص٨٧، ح٣.

وقيل بأنّ العفّة هي اعتدال القوّة الشهويّة في كلّ شيءٍ، فلا يقع في إفراطٍ ولا في تفريطٍ.

ومنه يتّضح الوجه الأوّل للعلاقة بين العفّة والصوم، فالصوم طريقٌ للعفّة، والعفّة حصنٌ واقٍ للصوم من الوقوع في الحرام أو الزلل، وهذا ما يفسّر لنا سرّ توجيه الشريعة للشابّ المؤمن غير المتزوّج إلى ركوب سفينة الصوم وقايةً له من الزلل؛ لأنّ الصوم طريقٌ رحبٌ لتحقيق العفّة؛ وفي العفّة حفظٌ للنفس من ظلمات الخطايا، وقد ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «**يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوّج؛ فإنّه أغضّ للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنّه له وجاءٌ**»[1]؛ والباءة: هي الجماع، والوجاء: قطع الشهوة، فيكون الصوم طريقاً لقطع الشهوة أو تهذيبها.

ومنه يتّضح الوجه الثاني للعلاقة بين العفّة والصوم، حيث الكينونة في روحانيّةٍ خالصةٍ يوفّرها الصوم، فللصوم روحانيّةٌ تمنح صاحبها عفّةً في بطنه وفرجه ولسانه، وهذه الروحانيّة المحقّقة للعفّة طريقٌ مهيعٌ نحو كمالاتٍ أخرى ترتقي بالنفس نحو مراتب رفيعةٍ في السير والسلوك؛ ولذلك تبقى الحاجة للصوم ما بقيت الحاجة لتحصيل الكمال، فالصائم بروحانيّة صومه يجد امتناعاً شديداً ونفرةً كبيرةً عن الموبقات، فمن وقع في بعضٍ منها وهو صائمٌ فالمشكلة تأتيه من فقدان تلك الروحانيّة، وهذه الروحانيّة تُشعره بجدوائيّة الصوم، فيكون الصائم صائماً مفهوماً ومصداقاً، فيناله من الصوم روحانيّةٌ فريدةٌ، فلا يقتصر أمره على الجوع والعطش[2].

---

(١) صحيح مسلم، مسلم النيسابوريّ: ج٤، ص١٢٨.

(٢) قال أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام: «**كم من صائمٍ ليس له من صيامه إلّا الظمأ، وكم من قائمٍ ليس له من قيامه إلّا السهر والعناء، حبّذا نوم الأكياس وإفطارهم**». (نهج البلاغة، خطب

## مذاكرةٌ

١. الصوم فريضةٌ مكتوبةٌ على الخلق أجمعين، اذكر نصّاً قرآنيّاً يصرّح بذلك.
٢. ما هو معنى الامتناع عن الطعام والشراب؟
٣. ماذا نعني بكون الصوم يمثّل واقعاً حسّيّاً يوقظ ذاكرة الإنسان؟
٤. ما علاقة الصوم بمعالجة الأنفة والتكبّر؟
٥. ما هي الحالة العامّة التي يعالجها الصوم؟
٦. ما هو الأمر الذي يتفرّع على الأمر العامّ الذي يعالجه الصوم؟
٧. ما هو الفرق بين كون إنسانٍ يعيش ليأكل، وآخر يأكل ليعيش؟
٨. ماذا يعني استبدال لذّة الحلّ بلذّة المنع؟
٩. ما هو المقدار الذي حثّ عليه الإسلام من صوم الصمت؟
١٠. ما هي علاقة العفّة بالصوم؟

---

الإمام عليّ عليه السلام: ج٤، ص٣٥، الرقم: ١٤٥؛ تحقيق وتعليق الشيخ محمّد عبده).

# الدرس العاشر
# صورٌ روحانيّةٌ للحجّ والزكاة

- أهداف الدرس
- تمهيدٌ
- الصور الروحانيّة العامّة للحجّ
- الصور الروحانيّة الخاصّة للحجّ
- وقفة مع أمير الحجّ
- في وداع الكعبة المشرّفة
- في وداع المسجد الحرام
- تذييلٌ
- صورٌ روحانيّةٌ من الزكاة
- مذاكرةٌ

## أهداف الدرس

١. بيان الصور الروحانيّة العامّة للحجّ.
٢. بيان صورة التوحيد الخالص والتذلّل والخضوع في فريضة الحجّ.
٣. بيان كون الصور الروحانيّة للحجّ عامّةً وخاصّةً.
٤. بيان الصور الروحانيّة العامّة للحجّ.
٥. بيان الصور الروحانيّة الخاصّة للحجّ.
٦. بيان روحانيّة الإحرام.
٧. بيان روحانيّة الوقوف في عرفة والإفاضة.
٨. بيان روحانيّة الوقوف في مزدلفة.
٩. بيان روحانيّة رمي الجمرات والحلق والتقصير.
١٠. بيان روحانيّة المبيت في منى.
١١. بيان روحانيّة الطواف وصلاته.
١٢. بيان روحانيّة السعي.
١٣. بيان روحانيّة الحجر الأسعد (الأسود) وتقبيله.
١٤. بيان المراد من أمير الحجّ.
١٥. بيان كيفيّة وداع الكعبة المشرّفة.
١٦. بيان صورٍ روحانيّةٍ من الزكاة.

## تمهيدٌ

لفريضة الحجّ ما ليس لغيرها من حضورٍ مكثّفٍ للتوحيد والتذلّل والخضوع، فهي رحلة الانسلاخ من الدنيا إلى الآخرة، أو قل من عالم الإنس

إلى حضرة القدس، وفي ذلك خلاصة التوحيد، وقد نبّهت بعض آي القرآن إلى الهدف من مناسك الحجّ الكامن في تحقيق التوحيد العرفانيّ الموافق لمعرفة الله؛ قال تعالى: ﴿**وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾ (الحجّ: ٢٦)، حيث نهى عن مطلق الشرك، سواءٌ كان ظاهراً كشرك الوثنيّين أو كان شركاً باطنيّاً وخفيّاً كالرياء المسمّى في الأخبار بالشرك الأصغر، فإذا استجمع الحاجّ ذلك يكون حجّه إبراهيميّاً توحيديّاً، وهذا الحجّ التوحيديّ ليس بالأمر السهل، فإنّ الكثير من الحجيج لا يوفّقون للحجّ التوحيديّ الخالص، قال تعالى: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ**﴾ (يوسف: ١٠٦)، والحجّ التوحيديّ هو الحجّ المشتمل على كمالات التوحيد العرفانيّ، والتوحيد العرفانيّ له مراتب ثلاثٌ، وهي: التوحيد الذاتيّ والتوحيد الصفاتيّ والتوحيد الأفعاليّ، وقد ورد في الخبر عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «**قال جبرائيل** عليه السلام **لرسول الله** صلى الله عليه وآله: **طوبى لمن قال من أمّتك: لا إله إلّا الله وحده وحده وحده**»[1]، ولعلّ في إرداف كلمة التوحيد بتكرار كلمة (وحده) ثلاثاً إشارةً إلى مراتب التوحيد الثلاث الآنفة الذكر، والتي بها ينقطع أثر الشرك تماماً.

وقد ارتأينا عرض صورٍ روحانيّةٍ للحجّ على مستويين، عامٍّ وخاصٍّ، حاولنا من خلالها إضاءة الزوايا غير المنظورة عادةً من قبل كثير من الحجّاج، نتيجة الاشتغال بالظواهر وما تقتضيه المادّيّات، مع أنّ الحجّ رحلةٌ تجمع بين الظاهر والباطن، فإذا لم يُعلم سرّ الظاهر وباطنه فإنّ الظاهر المأتيّ به موتورٌ، كما إذا اهتمّ بالباطن دون الظاهر فإنّه أمرٌ غير ميسورٍ، وإذا ما علم الحاجّ أنّ

---

(١) الأصول من الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٢، ص٥١٧، ح١.

الحجّ رحلةٌ توحيديّةٌ خالصةٌ فإنّه يتعيّن عليه الأخذ بالأسباب المفضية لذلك، وهذا ما نأمل التوفيق في تصويره وتقريبه في صورٍ روحانيّةٍ، وهي كالتالي:

## الصور الروحانيّة العامّة للحجّ

**أوّلاً**: ينبغي للحاجّ أن يغلق جميع أبواب الجذب أو الالتفات الدنيويّ، فلا يترك خلفه ما ينغّص عليه حجّه، فالحجّ رحلةٌ من العبوديّات الأخرى، ورحلة كفّ الالتفات إلى الأغيار، وفيه يتحقّق: «عتق النفوس من الاستكبار، ووضع الآصار والأغلال من الأعناق والأيدي والأرجل؛ لإخراج الناس من ذلّ الأديان إلى عزّ الإسلام»[1].

**ثانياً**: أن يحرص على أن يكون زاده وزوّادته وسائر أجور رحلته من المال الحلال، فلا تطأ أقدامه أرض المقدّسات ـ مكّة والمدينة ـ وفي جيبه درهمٌ من مالٍ حرامٍ أو شبهةٍ، فذلك مانعٌ معنويٌّ عن التزوّد بالفيوضات، وقد قيل في ذلك:

**إِذَا حَجَجْتَ بِمَالٍ أَصْلُهُ سُحْتٌ ... فَمَا حَجَجْتَ وَلٰكِنْ حَجَّتِ الْعِيرُ**

كما أنّ عليه أن يُعتق نفسه من حكومة المادّيّات، فالغنيّ يكفّ عن سطوة غناه، والفقير يكفّ عن النظر عمّا زُوّد به سواه، ولينظر إلى نبيّ الله موسى عليه السلام كيف أنّه أُمر بأن يخلي نفسه من المادّيّات وهو يطأ الوادي المقدّس؛ قال تعالى: ﴿**إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً**﴾ (طه: ١٢)؛ لأنّه في رحلةٍ ينطفئ فيها بريق الكثرات، وهكذا الحاجّ في حجّه التوحيديّ العرفانيّ، يبقى مشدوداً للوحدة المفضية للتوحيد الحقّيّ، وينسلّ عن الكثرة بالكفِّ عن الالتفات.

---

(١) أسرار الحجّ، لآية الله الشيخ عبد الله الجوادي الآملي: ص٨.

والدعوة للتخلّص من حاكميّة عالم المادّة لا تعني التنصّل عن عالم المادّة، وإنّما المراد أن لا تكون عبداً للمادّة، فالمادّة والمادّيّات مسخّراتٌ للإنسان وليس الإنسان مسخّراً لها، وعمليّة الخلاص يحتاجها الإنسان مهما علا كعبه وازداد علمه، والحجّ رحلةٌ عظيمةٌ وفرصةٌ استثنائيّةٌ في حياة الإنسان للتطهير والتخلّص من حكومة عالم المادّة، أو قل: التخلّص من كدر المادّة وهوانها.

**ثالثاً**: أن يحرص على التزوّد بالتسبيحات الأربع (**سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر**)، فهي الكلمات التي تحكي تربيع العرش والبيت المعمور والكعبة المشرّفة، أو قل: بأنّها الكلمات التي بها سوّر العرش والبيت المعمور والكعبة تسويراً معنويّاً، وقد روى الشيخ الصدوق رحمه الله: «أنّه إنّما سُمّيت كعبةً لأنّها مربّعةٌ، وصارت مربّعةً لأنّها بحذاء البيت المعمور وهو مربّعٌ، وصار البيت المعمور مربّعاً لأنّه بحذاء العرش وهو مربّعٌ، وصار العرش مربّعاً لأنّ الكلمات التي بُني عليها الإسلام أربعٌ وهي: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر»[1]؛ ولهذه التسبيحات هويّةٌ حقّةٌ، وأركانٌ تامّةٌ، وأسرارٌ جمّة كنّا قد تعرّضنا إلى جملةٍ منها في كتابنا (الدعاء)[2]، فلا ينبغي إغفاله.

**رابعاً**: أن يكون في تمام الأمن على نفسه والطمأنينة على مسكنه ومأكله ومشربه، فلا يهتمّ بذلك البتّة لأنّه في ضيافة الرحمن، فإذا ما اعترى قلبه قلقٌ من ذلك فليكفّر عن قلقه بالاستغفار، فإنّ الله تعالى تكفّل بضيافته وهو لا يضيّع رعاياه، وأنت وديعته وهو الذي لا تضيع عنده الودائع، فلو جاع

(١) من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق: ج٢، ص١٩٠، ح٢١١٠.

(٢) انظر: الدعاء إشراقاته ومعطياته، للمرجع الدينيّ السيّد كمال الحيدريّ: ص٢٢٢، تحت عنوان: (هويّة التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير).

الناس كلّهم فعليك أن تطمئنّ بوصول طعامك إليك، ولو تاه الناس جميعاً فعليك أن تطمئنّ بأنّك في مأمنٍ لا يمسّك سوءٌ، فلا معنى لتوحيده وأنت تخشى ما سواه.

**خامساً**: أن يستذكر في توديعه للأهل والأحبّة رحلته إلى دار الآخرة، حيث يتحتّم عليه أن يكون قد أكمل مسؤوليّاته لكي لا يطول وقوفه ويشتدّ سؤاله، ويستذكر في عودته قوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ...**﴾ (المؤمنون: ٩٩ـ١٠٠)، فيكون رجوعه رحمةً به، فليعمل عملاً صالحاً بعدما شاهد الموسم وأدّى مناسكه.

## الصور الروحانيّة الخاصّة للحجّ

وفيه وقفاتٌ قصيرةٌ عند أبرز معالم الحجّ[1]؛ وهي كالتالي:

### روحانيّة الإحرام

سمّي الإحرام بذلك لأنّه به يحرّم الكثير ممّا كان محلّلاً للحاجّ، من قبيل الزينة والطيب والنكاح عقداً وجماعاً، وغير ذلك ممّا هو مدوّنٌ في مناسك الحجّ، وأمّا روحانيّة الإحرام فتكمن في كفّ التوجّه القلبيّ لتلك المحرّمات الإحراميّة لا مجرّد الكفّ عن الإتيان بها، وفي ذلك تأسيسٌ للكفّ عن التوجّه

---

(١) ينقسم الحجّ إلى حجّ تمتّعٍ وحجّ إقرانٍ وحجّ إفرادٍ، وحجّ التمتّع لكلّ من لم يسكن مكّة وحواليها، وهو ما يسمّى أيضاً بحجّة الإسلام، ويتكوّن من عمرةٍ وحجٍّ، وعمرته تتكوّن من إحرامٍ وطوافٍ وسعيٍ وتقصيرٍ، ويفضّل بعد التقصير الإتيان بطواف النساء، وما تحدّثنا عنه هو حجّ التمتّع دون عمرته، ولكن جميع أعمال عمرة التمتّع يتضمّنها حجّ التمتع ما عدا النيّة، وبإمكان الحاجّ الكريم الرجوع إلى ما كتبناه في «مناسك الحجّ» ففي ذلك الكفاية ـ إن شاء الله تعالى ـ منه (دام ظله).

القلبيّ للدنيا، في حلالها ومباحها فضلاً عن الكفّ القلبيّ عن حرامها؛ فإذا حصل الانحسار القلبيّ عن التوجّه لذلك، يكون الحاجّ قد نال موطأ قدمٍ عظيماً في ساحة التوحيد، ولا ينبغي الإغفال عن معنى رسالة الإحرام بلبس غير المخيط من الثياب البيض، فالبياض يحكي أمنية تطهير القلب، وكأنّ الحاجّ يريد القول: إلهي طهُر بدني وابيضّ ثوبي، فمكّنني من تطهير قلبي وباطني، فيكون شروعه في أعمال الحجّ بعد الإحرام بنيّة تطهير القلب والباطن، فإذا ما وصل إلى منسك الحلق يكون قد نزع عنه آخر مواضع زينته الدنيويّة فينزع ثوبه الأبيض بعد أن طهُر باطنه وابيضّ قلبه، ومن لم يصل إلى مقام التطهير بعد الوقوفين والرمي والهدي والحلق يكون قد أحلّ إحرامه ظاهراً لا باطناً، فإحلال الإحرام الواقعيّ إنّما يكون بتبديل لباس الإحرام الظاهر والناصع البياض بلباس التقوى القلبيّ، ومنه تفهم قوله تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾ (الأعراف: ٢٦).

ومن أسرار ثوبي الإحرام أنّهما يشيران إلى الكفاية والكفاف، فبهذا القليل يمكن للإنسان أن يستر عورته ويتزيّن أيضاً، فلا يبالغ الإنسان في اقتناء ملابسه الأخرى، وإنّما يقتصر على الحدّ المعقول منه، فإنّ الجمال يحقّقه ثوبا الإحرام على بساطتهما.

ومن أسرار بياض ثوبي الإحرام التذكير بثوبي الكفن، فيكون تنقّله في مواقع المناسك شبيهاً بالمواقف التي سيمرّ بها في النشر والحشر، وكما أنّ الموت مانعٌ تكوينيٌّ للحاجّ من أن يلحق الأذى بالخلائق فكذلك ينبغي التعاطي مع الإحرام، فإنّه مانعٌ تشريعيٌّ عن إلحاق الأذى بالخلائق.

## روحانيّة الوقوف في عرفة

جاء في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الحجّ عرفة**»[1]، بمعنى أنّ خلاصة الحجّ تكمن في عرفة، فإنّ عرفة تعني الاعتراف بالذنوب والتقصير والخلوص بالتوبة والعزم على التطهير وفتح صفحاتٍ جديدةٍ في الحياة، وهذا هو خلاصة ما يطلب من الحاجّ الوصول إليه.

لابدّ للحاجّ في عرفة أن يدرك أهمّيّة النزوح عن الماضي السحيق، ذلك الماضي المشوّه بالذنوب، فكما نزع ثوبه المخيط وارتدى ثوبي الإحرام فإنّ عليه في عرفة أن ينزع ثوب ماضيه الملوّث، ويرتدي ثوب التوبة والإنابة والإقرار بالذنوب والعزم على الإصلاح، وقد ورد في بعض الأخبار عند لبسك الإحرام أن تستحضر نيّة لبس رداء التوبة والطاعة.

ولعلّ تسمية وصف هذا المنسك بالوقوف للإشارة إلى العزيمة على التغيير نحو الأفضل، وإصلاح الباطن كما صلح الظاهر، فالوقوف فيه نوعٌ من الاستعداد للحركة بعكس الجالس أو النائم، فذلك يشير إلى حالةٍ من الكسل والاسترخاء، وبعكس الماشي أو الراكض، فإنّه قد يكون فيه الشخص متعباً، وأمّا الوقوف ففيه يكون الشخص على أهبة الاستعداد وفي كامل طاقته وقواه؛ ولذلك كنّا قد نبّهنا في مناسك الحجّ إلى أفضليّة عقد نيّة الوقوف بعرفة من حالة الوقوف، لينطبق قولك: «أقف» على واقع حالك.

## روحانيّة الإفاضة

بعد إتمام منسك الوقوف بعرفة تبدأ الإفاضة إلى مزدلفة، وحيث إنّنا خرجنا بتوبةٍ نصوحٍ فعلينا الإفاضة بتوبتنا النصوح، وشاهد توبتنا النصوح أن

---

(١) مستدرك الوسائل، للميرزا المحقّق الميرزا النوري: ج١٠، ص٣٤، ح٣.

نذكر الله عند إفاضتنا وعند وصولنا المشعر الحرام، فلا يفيض الحاجّ وفي قلبه شكٌّ من محو ذنوبه، فذلك الشكّ من سوء الظنّ بالله تعالى، ومن سوء الأدب في حضرته، فعرفة محضر تجلّي ضيافة الرحمن، وفيها تفيض موائده بالمغفرة والرحمات، فتكون في موضع لسان حالك ناطقاً فيه: غربت الذنوب بهذا الغروب، وآتت التوبة أكلها بالأمن والسكينة في القلوب، فإن امتلأ قلبك بذلك فاجعل لسان قلبك ينطق بمنسك الغفران: «أفضت».

## روحانيّة الوقوف في مزدلفة

وهنا موضع استدامة الدعاء، حيث الزلفى والقربى من الله تعالى، وقد أسّس للاقتران بالدعاء قرآنيّاً؛ قال تعالى: ﴿...فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ (البقرة: ١٩٨).

إنّ عرفة مكانٌ اقترن بعالمٍ بالتوبة والدعاء، نتزوّد به حتّى تكتمل حلقات الدعاء والذكر في مزدلفة المسمّاة بالمشعر الحرام، وعند مزدلفة تزدلف القلوب التقيّة الطاهرة من جنّتها الباطنة، وسوق صاحب الباطن الطهور إلى الجنّة قدرٌ مقدّرٌ، فهو القائل سبحانه: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ (ق: ٣١).

إنّها وقفةٌ تحتمي فيها في صحراء مزدلفة بالتزلّف لله وحده، فتهجر الكثرة بالزلفة، لتكون حاضراً وملتفتاً لحضورك في ساحة قدسه.

## روحانيّة رمي الجمرات

ومع أنّه في الظاهر يتحقّق الرمي لتلك الأحجار المشيرة في باطنها إلى الشهوات والملذّات، إلّا أنّ الصورة الباطنيّة التي توفّر الروحانيّة في الرمي تكمن في البراءة من النفس الأمّارة بالسوء، وإلّا فإنّك في الباطن لم ترم إلّا

نفسك، فعليك ـ أيّها الحاجّ ـ أن تعزم على قطع المتابعة لتلك النفس الشريرة، وتدلّل على ذلك برمي الجمرات، فكأنّك بكلّ جمرةٍ من الجمار المعدودة تضع حاجباً بينك وبين تلك النفس، فتكون المشارطة هي عود الأحجار عليك في صورة المتابعة للنفس الأمّارة في قابل الأيّام، وعندئذٍ ستفيض روحك بسعادة العتق من متابعة النفس المظلمة.

## روحانيّة الحلق أو التقصير

وهذه آخر الصور الجماليّة المزيّفة تزيحها عن نفسك، وتقطع تلك الوشيجة بالجمال المفتعل لتنتقل إلى الجمال المتأصّل، ومن علائم روحانيّة الحلق: الشعور العميق بسقوط الذنوب مع كلّ شعرةٍ تسقط منك، وهذا الشعور يصيبك منه اليسير اليسير في صورة التقصير؛ لذا ننصح بالحلق بدلاً عن التقصير طلباً لأعمق نقطةٍ في روحانيّة الحجّ.

في كلّ مرّةٍ كنت تقف طويلاً أمام المرآة لتزيين شعرك، وهذه المرّة الأولى التي ستقف فيها غير عابئٍ بمرآتك؛ لأنّك تنظر إلى مرآة الكمال في تساقط شعرك، وفي كلّ مرّةٍ تحلق فيها شعرك مجبوراً يصاحبك الحزن والتعاسة إلّا في مورد الحجّ ستحرص بنفسك في تزيين قلبك بحلق شعرك، وهذه هي الروحانيّة التي ترتقي بك نحو زينة الروح.

## روحانيّة المبيت في منى

وهنا المبيت في المأمن لتزفّ لك بشرى تحقيق أمنيّتك بغفران الذنوب وقطع المسافة والقرب من المحبوب، ففي منى منّة الله بالعطاء الجزيل، فاحرص على التواجد والمبيت ما أمكنك ذلك، ولو قدرت على أن لا تخرج ساعةً من أرض منى فافعل ولا تتردّد في ذلك، وأبدل صحبة المهاجرين عن

منى بصحبة المتمنّين في المبيت، ليطلع عليك نهار الثاني عشر من ذي الحجّة بنداء الثناء، ويحلّ الزوال فيه بحلّة مختومةٍ بقبول التوبة ونيل الحوبة.

## روحانيّة الطواف

الطواف حول قبلة التوحيد يقتضي من الحاجّ عدم الانحراف عن توحيده، وما الأمر بعدم التفات البدن وكراهة التفات الوجه يميناً وشمالاً إلّا للتنبيه إلى ضرورة حفظ رسوم التوحيد، فلا يستحقّ الأغيار منك وأنت تطوف بقبلة التوحيد نظرةً ولو كانت عابرةً، فإنّ الالتفات للأغيار ضربٌ من الأنس بهم، والأنس بهم يسلبك الأنس بالله تعالى.

وإيّاك أن تُلحق الأذى بغيرك فذلك مانعٌ باطنيٌّ قد يحجبك عن حجٍّ قابلٍ، وإيّاك أن تحتقر أحداً وإن كان خصماً أو عدوّاً، فذلك من قصور كمالك، فأبدله بطلب الرحمة والمغفرة له؛ فذلك أزكى لنفسك، وأصلح لحالك، وأوفق لما تطلبه من خيرٍ لنفسك.

## روحانيّة صلاة الطواف

إنّ القرآن الكريم مرآةٌ نقيّةٌ يرى الناظر صورته الجميلة أو القبيحة فيها؛ ولذلك يهدي به الله من اتّبع رضوانه سبل السلام، ويُضلّ به الفاسقين. وإنّ الكعبة مرآةٌ صافيةٌ يرى الناظر منظره الجميل أو القبيح فيها، يهدي بها الله من يشاء ويُضلّ بها من يشاء، وهم الذين نزل فيهم: ﴿**وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً...**﴾ (الأنفال: ٣٥). وهؤلاء لا يوفّقون للطواف حولها والصلاة نحوها، وما إلى ذلك من الشؤون العباديّة.

## روحانيّة السعي

ومن روحانيّة السعي أن تكون محصّلة سعيك إدامة السعي في تحصيل

مرضاة الله تعالى علماً ومعرفة وعملاً، فلا تكفّ عن السعي في تحقيق ذلك، فذلك هو الرزق المعنويّ الذي يراد للحاجّ أن يتزوّد به، ولقد كانت هاجر ـ رضوان الله عليها ـ تسعى بين الصفا والمروة لتحصيل الماء، والماء أصل عالم الإمكان وسرّه، فابحث في سعيك عن تحصيل سرّك، والعلم والمعرفة والعمل بما تعلم من أعظم سبل الوصول، فلا يكن همّك في الصفا الوصول إلى المروة، ولا يكن همّك في المروة الوصول إلى الصفا، وإنما همّك في الصفا والمروة تحقيق الهدف من السعي، وهو أن تعرف سرّك.

## روحانيّة الحجر الأسعد (الأسود) وتقبيله

وفي الحجر الأسعد[1] علاقةٌ وثيقةٌ بيوم العهد والميثاق، المسمّى بخطاب (ألستُ) المشار له في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾ (الأعراف: ١٧٢)، ومنه تفهم سرّ الذكر عند المرور به: «**أمانتي أدّيتها وميثاقي تعاهدته لتشهد لي بالموافاة**»، فعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «**إنّ الله تبارك وتعالى لمّا أخذ مواثيق العباد أمر الحجر فالتقمها، ولذلك يقال: أمانتي أدّيتها وميثاقي تعاهدته لتشهد لي بالموافاة**»[2].

والسلام على الحجر الأسعد وتقبيله لرمزيّةٍ فيه إلى يد الله تعالى ويمينه

---

(١) كان الحجر الأسود عند نزوله من الجنّة لونه أشدّ بياضاً من اللبن، وقد سمّي بالحجر الأسود بسبب اسوداد لونه من ذنوب المشركين والكافرين الذين يتمسّحون به؛ (انظر: من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق: ج٢، ص١٩٢، ح٢١١٤)، ولعلّ اسوداده إنّما كان من ظلم وكفر عامّة الناس بذلك العهد والميثاق.

(٢) الفروع من الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٤ ص١٨٤ ح١.

ـ والله تعالى كلتا يديه يمينٌ، كما جاء في الخبر[١] ـ فالحاجّ بقدر ما يقدّم رسوم الوفاء بالميثاق فإنّه يشار له بقبول عهده ووفائه من خلال استلامه للحجر وتقبيله، فمن لم يتمكّن من استلامه وتقبيله فعليه أن يشير له بيديه اليمنى مسلّماً على الحجر بذلك الورد الذي ذكرناه آنفاً.

## وقفة مع أمير الحجّ

لكلّ قافلة حجٍّ أميرٌ معلومٌ لدى أفراد القافلة، ولكن هنالك أميرٌ على الحجّ نفسه وعلى الحجيج جميعاً، وهو الإمام المفترض الطاعة، وأمير الحجّ والحجيج في عصر الغيبة الكبرى هو الإمام الحجّة بن الحسن عجّل الله فرجه الشريف، فعن عبد الله بن بكيرٍ عن عبيد بن زرارة قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: **يفقد الناس إمامهم، يشهد الموسم** ـ أي: موسم الحجّ ـ **فيراهم ولا يرونه**»[٢]؛ ولذلك ينبغي للحاجّ أن يلحظ نفسه في إمرة من هو، وأن يصل أميره بإدامة الدعاء له بدعاء الفرج المعروف[٣]، فذلك من رسوم متابعة

---

(١) روي عن رسول صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**إنّ كلتا يديه يمينٌ**». (عوالي اللآلي، ابن أبي جمهورٍ الأحسائيّ: ج١، ص٥٠، ح٧٠)؛ قال الجزريّ: «**كلتا يديه يمين**، أي: يديه ـ تبارك وتعالى ـ بصفة الكمال لا نقص في واحدةٍ منهما؛ لأنّ الشمال ينقص عن اليمين، وإطلاق هذه الأسماء إنّما هو على سبيل المجاز والاستعارة، والله منزّهٌ من التشبيه والتجسيم». (بحار الأنوار، العلّامة المجلسيّ: ج٥، ص٢٣٨)؛ وروي عن ابن عبّاسٍ أنّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الحجر الأسود يمين الله في الأرض، يصافح بها من يشاء من خلقه**». (عوالي اللآلي، ابن أبي جمهورٍ الأحسائيّ: ج١، ص٥١، ح٧٥).

(٢) الأصول من الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج١، ص٣٣٧، ح٦.

(٣) قال الشيخ المحدّث الثقة عبّاس القمّيّ: «واعلم أنّ العلماء قد ذكروا في كتبهم أنّ من تكاليف العباد في زمن الغيبة: الدعاء لصاحب الزمان عليه السلام والتصدّق عن وجوده

الأمير، وأن تتوسّل بالله العليّ القدير أن يجعلك من أعوانه وأنصاره.

## في وداع الكعبة المشرّفة

قلنا إنّ الحجّ رحلة التوحيد، وهذا ما ينبغي استحضاره على أكمل وجهٍ ساعة وداع الكعبة المشرّفة، وقد روي في ذلك عن إبراهيم بن أبي محمودٍ قال: «رأيت أبا الحسن ـ الإمام عليّاً الرضا عليه السلام ـ ودّع البيت فلما أراد أن يخرج من باب المسجد خرّ ساجداً ثمّ قام فاستقبل الكعبة فقال: **اللّهُمَّ إنّي أنقلب على أن لا إله إلّا أنت**»[1]، فيكون القدوم للكعبة بنيّة تحصيل التوحيد الخالص، ويكون وداعها بعد تحصيل التوحيد الخالص والمعاهدة على البقاء على ذلك.

## في وداع المسجد الحرام

وفي خواتيم رحلة التوحيد في مناسك الحجّ لا تخرج من المسجد الحرام إلّا وقد انعقدت في قلبك الرغبة بالعود، وأن تودّع بلوعة المفارق، ويكون

---

المقدّس، ومن جملة تلك الأدعية الواردة تقول دائماً بعد تمجيد الله تعالى والصلاة على النبيّ الأكرم وآله: **اللّهُمَّ كن لوليّك الحجّة بن الحسن ـ صلواتك عليه وعلى آبائه ـ في هذه الساعة وفي كلّ ساعةٍ وليّاً وحافظاً وناصراً ودليلاً وعيناً، حتّى تسكنه أرضك طوعاً وتمتّعه فيها طويلاً**». منازل الآخرة والمطالب الفاخرة، تأليف المحدّث الثقة الحاجّ الشيخ عبّاسٍ القمّيّ: ص٢٨٧.

(١) الفروع من الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٤، ص٥٣١، ح٢.

وفي ذلك يروي السيّد سامي خضرة: أنّه قد شوهد رجلٌ يقف تحت الميزاب، متعلّقاً بأستار الكعبة الشريفة، يدعو ربّه قائلاً: **اللّهُمَّ إنّي جئتك بلا إله إلّا الله، فأحيني على لا إله إلّا الله، وأمتني على لا إله إلّا الله، وابعثني على لا إله إلّا الله**، ثمّ اختطفه البكاء، وقبل أن يترك موقفه هذا، قال: **اللّهُمَّ إنّي أستودعك أمانة لا إله إلّا الله**. (انظر: لم لا نخشع في الصلاة، للسيّد سامي بن حسن خضرة: ص١٦. منشور في المكتبة الشاملة).

آخر دعائك طلب الجنّة، كما جاء ذلك في الخبر المرويّ عن قثم بن كعبٍ قال: «قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: **إنّك لتُدمن الحجّ؟** قلت: أجل. قال: **فليكن آخر عهدك بالبيت أن تضع يدك على الباب وتقول: المسكين على بابك، فتصدّق عليه بالجنّة**»[1].

## تذييلٌ

إنّ أسرار الحجّ ممّا يصعب حصرها، وما كُتب وأُفتي في بابٍ من أبواب الفقه بقدر ما جاء في الحجّ، فهو طريٌّ يأتينا في كلّ عامٍ بجديدٍ، وهذا ما أدهش زرارة وهو الفقيه، فقد روي عن بكير بن أعين، عن أخيه زرارة قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلني الله فداك، أسألك في الحجّ منذ أربعين عاماً فتفتيني، فقال: **يا زرارة، بيتٌ يُحجّ قبل آدم عليه السلام بألفي عامٍ تريد أن تفنى مسائله في أربعين عاماً**»[2]؛ فلا يقولنّ أحدٌ إنّه أحاط بكلّ مسائله فضلاً عن أسراره، وإنّما إحاطته ـ على فرض حصولها ـ لا تعدو ما وصلنا إليه وانتهى إلينا من مسائله وأسراره.

## صورٌ روحانيّةٌ من الزكاة

الزكاة فريضةٌ واجبةٌ، وتنقسم إلى زكاة أموالٍ وزكاة أبدانٍ، والأولى هي المقرونة بالصلاة في أكثر من موردٍ، كما في قوله تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ (البقرة: ٤٣)، وقد تسمّى أيضاً بالصدقات الواجبة، المشار لها في قوله تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ (التوبة: ١٠٣)؛ والثانية

---

(١) الفروع من الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٤، ص٥٣٢، ح٥.

(٢) من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق: ج٢، ص٥١٩، ح٣١١١، باب نوادر الحجّ.

هي المسمّاة بزكاة الفطرة، والتي تستخرج في ليلة الأوّل من شوّالٍ وتدفع في نهاره، وقد أشير لها بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (الأعلى: ١٤).

وروحانيّة زكاة الأموال تكمن في حرصك على الخروج من شهوة وسطوة حبّ المال المشار لها بقوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾ (الفجر: ٢٠)، فترتقي بزكاتك إلى مقام حبّ الطاعة بدلاً من حبّ المال.

وأمّا بالنسبة لزكاة الأبدان فروحانيّتها تكمن في حرصك على حفظ ما يتركه الصوم من أثرٍ على نفسك وبدنك، من خلال حفظ صومك نفسه ممّا علق به من شوائب النظرات والخطرات والزفرات، وكأنّك تريد بزكاتك أن تحفظ صومك في ظرفٍ طاهرٍ ليحمل إلى من وعد بأن يجازي على الصوم بنفسه.

فلا تدفع زكاتك وفي قلبك علقةٌ بذلك المال اليسير، بل ادفعه وأنت تحتضن سعادتك، فتلك هي روحانيّتك، وتلك هي زكاتك.

## مذاكرةٌ

١. ما هي صلة فريضة الحجّ بالتوحيد الخالص والتذلّل والخضوع؟
٢. ما هي أقسام الصور الروحانيّة للحجّ؟
٣. ما الذي استفدته من روحانيّة الإحرام؟
٤. أوجز روحانيّة الوقوف في عرفة والإفاضة.
٥. ما هي العلاقة الروحانيّة بين الوقوف في مزدلفة وتحقيق الزلفى من الله تعالى؟
٦. ما الذي ينبغي أن يتحقّق عند رمي الجمرات والحلق والتقصير من الناحية الروحانيّة؟
٧. لماذا الإصرار على المبيت في منى؟

٨. ما هي العلاقة الروحانيّة بين التوحيد وبين عدم الالتفات بالوجه والبدن في الطواف؟
٩. ما الذي نسعى إليه روحانيّاً في السعي؟
١٠. هل للحجر الأسعد (الأسود) صلةٌ بالعهد والميثاق؟
١١. من هو الأمير الحقيقيّ في الحجّ؟
١٢. كيف تودّع الكعبة المشرّفة روحانيّاً؟
١٣. ما الذي تتركه زكاة الأموال وزكاة الأبدان على روحانيّة المزكّي؟

# الدرس الحادي عشر

# أخلاقيّات القرآن الكريم

- أهداف الدرس
- تمهيدٌ
- مكانة القرآن الكريم
- رسالة القرآن وأهدافه الاجتماعيّة
- الكمال الإنسانيّ قرآنيّاً
- أصول الأخلاق في القرآن
- أخلاقيّات القرآن الكريم
- كيف لنا أن نعظّم القرآن؟
- علاقة أخلاقيّات القرآن الكريم بروحانيّة العبادات
- مذاكرةٌ

## أهداف الدرس

١. بيان مكانة القرآن الكريم، وتوجيه مرجعيّته الأولى.
٢. بيان أبعاد رسالة القرآن، وبعض أهدافه الاجتماعيّة.
٣. بيان مكمن الكمال الحقيقيّ من وجهة نظرٍ قرآنيّةٍ.
٤. بيان أقسام الأصول الأخلاقيّة القرآنيّة الأساسيّة والفرعيّة.
٥. بيان الأخلاقيّات العامّة والخاصّة للقرآن الكريم، والفرق بينهما.
٦. بيان الفرق بين الاستماع والإنصات للقرآن الكريم، وتحديد المطلوب تحقيقه.
٧. بيان كيفيّة تعظيم القرآن الكريم.
٨. بيان وجه العلاقة بين أخلاقيّات القرآن الكريم وروحانيّة العبادات.

## تمهيدٌ

القرآن الكريم والسنّة الشريفة هما الركنان الأساسيّان في تشكيل المنظومة الإسلاميّة (عقيدةً وشريعةً وأخلاقاً)، وهذا ما دعا أعلام الأمّة على مرّ العصور إلى الاهتمام الكبير بهما، جمعاً وحفظاً وتحقيقاً وفهماً وعملاً بهما، ونحن في هذا الدرس ارتأينا بيان أخلاقيّات القرآن والسنّة تجاهنا، وأخلاقيّاتنا تجاههما، مع بيان أهمّيّتهما وبعض متعلّقاتهما.

## مكانة القرآن الكريم

للقرآن الكريم مكانةٌ كبرى في المنظومة الإسلاميّة، فهو المرجعيّة الأولى فيها، وفي طوله تقع المرجعيّات المعرفيّة الأخرى، ولذا سمّي في الروايات

بالثقل الأكبر، وفي طوله تأتي مرجعيّة أهل البيت عليهم السلام الذين سمّتهم الروايات بالثقل الأصغر، وتراجمة القرآن، والقرآن الناطق[١].

ومقتضى مرجعيّته الأولى أن يكون مركز الحركة الفكريّة والتشريعيّة في الإسلام، وأرضيّة النظريّة الإسلاميّة وتطبيقها، سواءٌ على مستوى الهداية أو على مستوى العمل، وقد عبّر القرآن الكريم عن نفسه بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً**﴾ (الإسراء: ٩)، فهو هادٍ للّتي هي أقوم، وحامل البشرى للمؤمنين العاملين للصالحات.

وهو الكتاب السماويّ الأوحد الذي أثبت صلاحيّته لكلّ عصرٍ ومصرٍ، فهو غضٌّ لا يزداد على النشر والدرس إلّا غضاضةً[٢]، جديدٌ في قراءته وفي الاستماع إليه وفي فهمه أيضاً، حتّى قيل في حقّه بأنّه يأتي يوم القيامة بكراً[٣]، ولعلّ من أهمّ أسرار عظمته: أنّ العالم الآفاقيّ يمثّل كلمة الله المفصّلة، والعالم

---

(١) روي أنّه لمّا أراد أهل الشام أن يجعلوا القرآن حكماً بصفّين قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «**أنا القرآن الناطق**». (ينابيع المودّة لذوي القربى، للشيخ سليمان بن إبراهيم القندوزيّ الحنفيّ: ج١، ص٢١٤، ح٢٠).

(٢) سئل الإمام الصادق عليه السلام: ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلّا غضاضةً؟ فقال عليه السلام: «**لأنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ لم يجعله لزمانٍ دون زمانٍ، ولا لناسٍ دون ناسٍ، فهو في كلّ زمانٍ جديدٌ، وعند كلّ قومٍ غضٌّ إلى يوم القيامة**». (بحار الأنوار، للعلّامة محمّد باقر المجلسيّ: ج٩٢، ص١٥، ح٨).

(٣) نقل هذا المعنى الشيخ حسن زاده آملي عن الشيخ الأكبر ابن عربيٍّ من كتابه: (الدرّ المكنون في علم الحروف). انظر: شرح دفتر دل (شرح كتاب القلب)، للعلّامة الشيخ حسن زاده آملي: المجلّد الأوّل، النكتة: ٨١٩.

الأنفسيّ يمثل كلمة الله المجملة، والقرآن هو صورة ما في هذين العالمين إجمالاً وتفصيلاً، نظريّاً وتطبيقاً[١]، بل إنّ القرآن الكريم: «صورة حكم العلم المحيط بالأشياء على اختلاف طبقات الموجودات ولوازمها من الأحوال والأفعال والنسب والإضافات في كلّ عالم»[٢].

فالقرآن الكريم بمراتبه الوجوديّة يمثّل الحقيقة الجامعة للإجمال الأنفسيّ والتفصيل الآفاقيّ، وإنّ مرتبته الحقائقيّة تنتهي إلى حقيقةٍ واحدةٍ جامعةٍ بسيطةٍ مجرّدةٍ، تعكس التجلّي الأعظم لله تعالى، كما هو صريح الأحاديث الشريفة، منها قول أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام: «**تجلّى الله سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه**»[٣]، وقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**لقد تجلّى الله لخلقه في كلامه ولكن لا يبصرون**»[٤]، وهذا التجلّي إطلاقيٌّ كماليٌّ جماليٌّ جلاليٌّ لله سبحانه.

## رسالة القرآن وأهدافه الاجتماعيّة

إنّ رسالة القرآن ذات أبعادٍ ثلاثةٍ، وهي:

**أوّلاً**: تحقيق الهداية من خلال إخراج الناس من الظلمات إلى النور؛ قال تعالى: ﴿**الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ**

---

(١) انظر: الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة، للحكيم محمّد صدر الدين الشيرازيّ: ج٦ ص٢٩٠.

(٢) النفحات الإلهيّة، لصدر الدين محمّد بن إسحاق القونويّ، ص١٢، الرقم: (١١/ ٣)، في ذيل: (نفحةٌ ربّانيّةٌ كلّيّةٌ وردت في ضمن مشهدٍ أشهدته في واقعةٍ ربّانيّةٍ).

(٣) فروع الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٨، ص٢٨٦، ح٥٨٦؛ نهج البلاغة، للإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام: ج٢، ص٣٠، الخطبة: ١٤٧؛ تحقيق الشيخ محمّد عبده.

(٤) عوالي اللآلي، ابن أبي جمهورٍ الأحسائيّ: ج٤، ص١١٦، ح١٨١؛ بحار الأنوار، للعلّامة المجلسيّ: ج٨٩، ص١٠٧.

﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم: ١)، فهذا القرآن كتابٌ أوحيناه إليك ـ يا محمّد ـ لتخرج به البشر من الضلال والغيّ إلى الهدى والنور بإذن ربّهم وتوفيقه إيّاهم إلى الإسلام، الذي هو طريق الله الغالب المحمود في كلّ حالٍ.

**ثانياً**: أن يكون المرجع الحقّ الأوّل للإنسان في كلّ زمانٍ ومكانٍ، لأنّ فيه بيان كلّ شيءٍ وتفصيل كلّ شيءٍ؛ قال تعالى: ﴿...وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ...﴾ (النحل: ٨٩)، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف: ١١١).

**ثالثاً**: ليكون الإنسان إنساناً، فيخرج من دائرة النقص والقصور إلى دائرة الكمال والتمام؛ نظراً لما جاء به من أرفع مطالب التوحيد والمعارف الإلهيّة، وجميع الآيات الآنفة تدلّل على ذلك.

وأمّا أهدافه الاجتماعيّة فإنّها لا تخرج إجمالاً عن بناء الإنسان علميّاً ومعنويّاً، باعتباره نواةً في تكوين المجتمع، وقد عبّر عن هذا البناء بثلاثة أمورٍ، وهي: التزكية، وتعليم الكتاب، وبيان الحكمة؛ قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة: ٢)؛ فالتزكية والتطهير وتعلّم الحكمة تحتاج إلى مصدرٍ إلهيٍّ معصومٍ كاملٍ لا يأتيه الباطل أبداً، وهذا هو القرآن.

ولو نظرنا إلى الآية لوجدناها تعبّر عن المجتمع العربيّ آنذاك بالأمّيّ، والأمّيّ لا نظام له في حياته؛ لأنّ حياته قائمةٌ على أساس الجهل في كلّ شيءٍ[1]، ومنها حياته الاجتماعيّة، فجاء القرآن بالنظام العامّ، ومنه النظام

---

(١) من الملامح البارزة للأُميّة عدم القراءة والكتابة، ولكّنها في المقام تعني ما هو أشمل من ذلك، فأُميّة المجتمع القرشي آنذاك تعني أنّه لم يكن محكوماً لنظامٍ اجتماعيٍّ واضح، وإنّما

الاجتماعيّ، فنظّم الحياة الزوجيّة والعلاقات الأسريّة.

ففي بناء العلاقة الزوجيّة نجده يقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١)، وفي التعاطي مع الوالدين نجده يقول: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ (الإسراء: ٢٣ـ٢٤).

## الكمال الإنسانيّ قرآنيّاً

إنّ الكمال الحقيقيّ من وجهة نظرٍ قرآنيّةٍ يكمن في تحقيق الطاعة لله تعالى والخروج من دائرة المعصية، ففي ذلك تحصيلٌ للطريق الأمثل للكمال والارتقاء حتّى الوصول إلى مقام الإنسان الكامل، ودرجة كمالنا إنّما تقاس بقدر قربنا من الله تعالى، كما أنّ نقصنا يقاس بدرجة بعدنا عن الله تعالى.

وهذا القرب والبعد ليس له ثباتٌ في فلسفة الكمال الإلهيّ؛ لأنّ الملمح الأوّل في فلسفة الكمالات الإنسانيّة الإلهيّة هو عدم الثبات، فالإنسان مطلقاً

---

كان الحاكم فيهم روح العصبيّة القبليّة، وسلطة الأقوى، وامتهان الإنسان الضعيف عموماً والمرأة خصوصاً، وغير ذلك من الأُميّة الاجتماعية، ولا ريب أنّ هذه الأُميّة المنبوذة هي غير الأُميّة الشخصية التي كان عليها النبيّ محمّد ﷺ، فأُميّته لم تُشكّل له نقصاً في كمالاته، بل هي في الرؤية العرفانية تعني خلوّه من نقص الحاجة التي كان عليها الآخرون، وأنّها تعني أصالته ومرجعيّته لمن سواه في الكمالات المعرفيّة والمعنويّة، وهذا المعنى مُنسجم مع المعنى اللغوي المُفسِّر لكلمة (الأُمّي) بالانتساب إلى الأُمّ والمرجع والأصل، فهو المرجع المعرفيّ والمعنويّ، ولهذه الأُميّة التي لا تشكّل نقصاً معانٍ إيجابية أُخرى تعرّض لها الأعلام.

إمّا في ارتفاعٍ أو في انحدارٍ، فالمقيم للصلاة في حالة ارتقاءٍ دائمةٍ، والتارك لها في حالة انحدارٍ دائمةٍ، وإن كان معذوراً في الترك.

ولنتأمّل في كلمةٍ للإمام الصادق عليه السلام: «**من استوى يوماه فهو مغبونٌ، ومن كان آخر يوميه خيرهما فهو مغبوطٌ، ومن كان آخر يوميه شرّهما فهو ملعونٌ، ومن لم ير الزيادة في نفسه فهو إلى النقصان، ومن كان إلى النقصان فالموت خيرٌ له من الحياة**»[1]؛ فإنّها تشتمل على فلسفة الكمالات التي خلت أبجديّتها من التوقّف على كمالٍ ما، فهي إمّا في حال ارتفاعٍ أو في حال انخفاضٍ، وهذا ما يجعلها فلسفةً مليئةً بالحياة والحركة، ومحطّةً نستجلي من خلالها معنى الخلود وعظمته[2].

فهذا الارتفاع والانخفاض في تركيبة الإنسان يكون تبعاً لقدراته وأفعاله، فله أن يرتقي فوق منزلة الملائكة، وله أن يتسفّل دون مرتبة الأنعام، بل إلى أسفل من ذلك، فهو في ارتقاءٍ أو في تسفّلٍ مستمرٍّ، فلا يمكن تصوّر لحظة توقّفٍ، وبعبارةٍ أخرى: إنّه على حدٍّ واحدٍ من حركة الزمان التي لا تعرف التوقّف أبداً، أو بعبارةٍ عرفانيّةٍ: إنّ مقام النفس الناطقة مقام اللا يقفي، فلا يتصوّر في سيره انطفاءٌ أو سكونٌ.

## أصول الأخلاق في القرآن

قبيل التعرّض لأخلاقيّات القرآن ينبغي الوقوف بشكلٍ موجزٍ على الأصول الأخلاقيّة في القرآن، فمن مجموع النصوص القرآنيّة يمكن أن نتصيّد

---

(١) معاني الأخبار، للشيخ الصدوق: ص٣٤٢، ح٣.

(٢) تعرّض السيّد الأستاذ (دام ظلّه) لذلك الأمر ببياناتٍ أخرى في كتابه (الدعاء، معطياته وإشراقاته)، فراجع.

أصولاً أخلاقيّةً كثيرةً، ولكنّها تندرج ضمن قسمين أوّليّين، هما:

أوّلاً: الأصول الأخلاقيّة الأساسيّة.

ثانياً: الأصول الأخلاقيّة الفرعيّة.

أمّا الأصول الأخلاقيّة الأساسيّة فإنّها تتعلّق بوظيفتنا تجاه الله تعالى بصفته خالقاً، من قبيل شكره كمنعمٍ علينا بالوجود والخيرات، والخضوع له بالعبوديّة، والرضا بالقضاء والتسليم لأوامره، وما شابه ذلك، وهي المشار لها في أكثر من نصٍّ، من قبيل قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ...**﴾ (لقمان:١٢)، وقوله تعالى: ﴿**وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ**﴾ (لقمان: ١٤)، وقوله تعالى: ﴿**...اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ (سبأ: ١٣).

وأمّا الأصول الأخلاقيّة الفرعيّة فيمكن تقسيمها بلحاظ الموجودات الممكنة إلى ثلاثة أقسام، وهي:

أ. الأصول الأخلاقيّة المتعلّقة بعامّة الناس، القريب منهم والبعيد، من قبيل: التواضع معهم وإيثارهم على النفس، ومحبّتهم ومواساتهم، ومطلق حسن الخلق معهم. وتبدأ السلسلة بالوالدين، من قبيل قوله تعالى: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً**﴾ (الإسراء: ٢٣)، ثمّ الأقرباء، كما في قوله تعالى: ﴿**وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً**﴾ (الإسراء: ٢٦)، ثمّ مع الناس، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ (لقمان: ١٨)، أي: ولا تمل وجهك عن الناس إذا كلّمتهم أو كلّموك؛ احتقاراً منك لهم واستكباراً عليهم، ولا تمش في الأرض بين الناس مختالاً متبختراً، إنّ الله

لا يحبّ كلّ متكبّرٍ متباهٍ بنفسه وهيئته، وقوله تعالى: ﴿...فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ...﴾ (الأعراف: ٨٥).

ب. الأصول الأخلاقيّة المتعلّقة بالنّفس خاصّةً، وأهمّها تزكية النفس وتطهير القلب، وحفظ عناصر الخير، ومواجهة عناصر الشرّ، وتنمية الاستعدادات الخيّرة كالصبر والحلم والتأنّي؛ بغية تحصين النفس من جهةٍ، وجعلها فاعلةً بالإصلاح من جهةٍ أخرى، وهذا ما يمكن أن نتصيّده من قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٧ـ١٠)، ومن قوله تعالى: ﴿...وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان: ١٧)، وأيضاً من قوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾ (المزّمّل: ١٠).

ج. الأصول الأخلاقيّة المتعلّقة بكلّ الأمور المادّيّة (الأرض والطبيعة والعالم)، والتي يقع في طليعتها عدم الإفساد في الأرض، من قبيل قوله تعالى: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: ٥٦)، وقوله تعالى: ﴿...وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ٨٥)، وأيضاً عدم الإسراف والتبذير، كما في قوله تعالى: ﴿...وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١).

جديرٌ بالذكر أنّ هنالك آيةً اجتمعت فيها رؤوس الأخلاق، وهي: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠)، فإنّها قد اختصرت كلّ المطالب المتقدّمة.

## أخلاقيّات القرآن الكريم

يمكن تقسيم أخلاقيّات القرآن إلى أخلاقيّاتٍ عامّةٍ وخاصّةٍ، كالتالي:

## الأخلاقيّات العامّة

وهذه هي الأخلاقيّات التي يمارسها القرآن الكريم تجاه الإنسان على الصعيدين المعرفيّ والمعنويّ، فمن أخلاقيّاته في هذا الاتّجاه ما يلي:

١. النصح والإرشاد الدائم للكلّ، وعدم الغشّ والخداع أبداً، والانفتاح بكلّ ما فيه من خزائن على كلّ ذي بصيرةٍ، فلا يصحّ منّا الزهد بخزائنه، وعلى حدّ تعبير الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام: «**آيات القرآن خزائنٌ، فكلّما فتحت خزانة ينبغي لك أن تنظر ما فيها**»[1].

٢. أنّه قبلة التذكير بالله تعالى واليوم الآخر؛ قال تعالى: ﴿**...فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ**﴾ (ق: ٤٥).

٣. الانفتاح على القلوب المؤمنة بتعميق الهداية؛ لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً**﴾ (الإسراء: ٩)، وزفّ البشرى ومنح الشفاء والرحمة. ولا يكون من ذلك شيءٌ للقلوب الظالمة، بل لا يزيدهم إلّا خساراً؛ قال تعالى: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً**﴾ (الإسراء: ٨٢).

٤. أنّه يعرض هدايته على الإنسان ويترك له الخيار في القبول وعدمه؛ قال تعالى: ﴿**وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ**﴾ (النمل: ٩٢).

## الأخلاقيّات الخاصّة

ونعني بها مجموعة الوظائف التي ينبغي للمسلم الإتيان بها للتزوّد من

---

(١) أصول الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٢، ص٦٠٩، ح٢، كتاب فضل القرآن.

أخلاقيّاته العامّة التي تقدّم اليسير منها، ومن هذه الأخلاقيّات الخاصّة بالإنسان تجاه القرآن ما يلي:

**أوّلاً: أخلاقيّات التلاوة والترتيل**

القرآن الكريم عهد الله إلى خلقه فينبغي لهم تعاهده، كما جاء في الخبر المرويّ عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «**القرآن عهد الله إلى خلقه، فقد ينبغي للمرء المسلم أن ينظر في عهده وأن يقرأ منه في كلّ يوم خمسين آيةً**»(١).

وهنا ينبغي أن نقرأ القرآن مرتّلاً؛ لقوله تعالى: ﴿...**وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً**﴾ (المزمل: ٤)، وأن نقرأه بصوتٍ حسنٍ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لكلّ شيءٍ حليةٌ، وحلية القرآن الصوت الحسن**»(٢)، وفي خبرٍ عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**كان عليّ بن الحسين عليه السلام أحسن الناس صوتاً بالقرآن، وكان السقّاؤون يمرّون فيقفون ببابه يسمعون قراءته**»(٣).

إنّ الصوت الحسن أو تحسين الصوت في قراءته يزيد من حسن القرآن؛ فذلك أشبه: الخطّ الحسن الذي يزيد الحقّ وضوحاً، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**حسّنوا القرآن بأصواتكم، فإنّ الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً**»(٤)، كما ورد استحباب قراءته بحزنٍ وتباكٍ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنّ هذا القرآن نزل بحزنٍ، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا**»(٥).

ومن أخلاقيّات التلاوة: الاستعاذة بالله تعالى من الشيطان الرجيم،

---

(١) المصدر السابق: ج٢، ص٦٠٩، ح١.

(٢) المصدر السابق: ج٢، ص٦١٥، ح٩.

(٣) المصدر السابق: ج٢، ص٦١٦، ح١١.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام، للشيخ الصدوق: ج١، ص٧٤، ح٣٢٢.

(٥) المصدر السابق.

ولكن ما هو السرّ في ذلك؟

لا ريب أنّ القرآن الكريم هو من أعظم مصاديق الصراط المستقيم، فإنّ كلّ معصومٍ هو صراطٌ مستقيمٌ لا اعوجاج فيه، والقرآن معصومٌ، بل له أشرف مراتب العصمة؛ لأنّه كلام الله تعالى وعلمه، وقد توعّد الشيطان بالجلوس لبني آدم على عتبة الصراط المستقيم ليمنع بني آدم من السير عليه؛ قال تعالى: ﴿**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ (الأعراف: ١٦)، من هنا لزم التعوّذ من الشيطان لدفعه والخلاص من مكره ووسوسته.

وأخيراً من أخلاقيّات التلاوة: أن نقرأ القرآن في المصاحف، فذلك أفضل حالاً وأكثر أجراً وأعمق ارتباطاً وأبلغ تعاهداً، وقد روي عن إسحاق بن عمّارٍ أنّه قال للإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام «جُعلت فداك، إنّي أحفظ القرآن على ظهر قلبي، فأقرأه على ظهر قلبي أفضل أو أنظر في المصحف؟ قال: فقال لي: **بل اقرأه وانظر في المصحف فهو أفضل، أما علمت أنّ النظر في المصحف عبادةٌ**»[1].

## ثانياً: أخلاقيّات الاستماع إليه

قال تعالى: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ (الأعراف: ٢٠٤).

وهنا أمران، الأوّل بالاستماع إليه عند تلاوته، والثاني الإنصات له، أمّا الاستماع فواضحٌ، ولكن ما هو الإنصات، وما هو سرّه، وما هو فرقه عن الاستماع، وما هو المطلوب منّا كوظيفةٍ أخلاقيّةٍ تجاهه؟

هنالك مرتبةٌ دانيةٌ لازمةٌ عند سماع القرآن، وهي مرتبة الاستماع غير

---

(١) أصول الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٢، ص٦١٣، ح٥.

المشروط بالفهم والتدبّر، وهنالك مرتبةٌ عاليةٌ مشروطةٌ بالفهم والتدبّر، وهي مرتبة الإنصات، وهي المرتبة التي تهدف إلى الوصول إلى الرحمة الإلهيّة، فالاستماع الفارغ من التدبّر والفهم قد يتحقّق والمستمع لاهٍ عن مضامين القرآن، فيحرم من فيض القرآن ومعطياته، ولكن الإنصات المصحوب بالتدبّر والتفكّر يجعلك مستودعاً للأسرار القرآنيّة الإلهيّة، وهذه هي الرحمة.

ثمّ إنّ الإنصات للقرآن يفضي إلى حالةٍ من التأثّر والاستجابة، وفي ذلك إشارةٌ قرآنيّةٌ لطيفةٌ في قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾ (المائدة: ٨٣).

ولا ريب أنّ المطلوب الحقيقيّ منّا ـ كوظيفةٍ أخلاقيّةٍ تجاه القرآن ـ هو الاستماع والإنصات له معاً، فالآية صريحةٌ بالأمرين معاً، ولكنّها ذكرت الإنصات ـ المتوقّف على الاستماع ـ بعد الاستماع لبيان عدم كفاية الإنصات، فلو تحقّق الإنصات فذلك دليلٌ على تحقّق الاستماع أيضاً؛ لما عرفت من كون الإنصات متوقّفاً على الاستماع، ولعلّ هنالك نكتةً عميقةً جدّاً تفصل بين الاستماع والإنصات، وهي أنّ الاستماع: هو التوجّه الذهنيّ إلى ألفاظ الكلمات، والإنصات: هو التوجّه الذهنيّ لمعانيها، فأرادت الآية أن تقول: لا يكفي سماع الألفاظ وإنّما لابدّ من التوجّه لمعانيها، كما أنّ التوجّه للمعاني هو الآخر لا يكفي في الأخلاق القرآنيّة بدون الاهتمام بصوت اللفظ، فاللفظ ومعناه مطلوبان معاً، فيكون مفاد الآية: استمعوا لألفاظه، وتوجّهوا لمعانيه بالتفكّر والتدبّر فيه.

**ثالثاً: أخلاقيّات الحفظ**

وأمّا حفظ القرآن الكريم فهو من فضائل أخلاقيّاتنا تجاه القرآن، وقد كان الإمام الصادق عليه السلام يحثّ أصحابه على ذلك كثيراً، فيقول لهم: «**القرآن القرآن، إنّ الآية من القرآن والسورة لتجيء يوم القيامة حتّى تصعد ألف درجةٍ**

ـ يعني في الجنّة ـ **فتقول: لو حفظتني لبلغت بك هاهنا**»[١].

ومن أخلاقيّات الحفظ: أن يكون حفظه تقرّباً إلى الله تعالى، فهو كتابه وكلامه فلا ينبغي أن يحفظ لغير ذلك، ومنها أيضاً: المداومة على الحفظ والحيلولة دون النسيان، فلا يُعلم مع النسيان إمكان الحفظ مرّةً أخرى، وقيل بأنّ من الآثار الوضعيّة لترك ما حُفظ من القرآن ونسيانه عمداً وقصداً أو تهاوناً: الحجب عن حفظها مرّةً أخرى، وقد روي عن أبي بصيرٍ قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**من نسي سورةً من القرآن مُثّلت له في صورةٍ حسنةٍ ودرجةٍ رفيعةٍ في الجنّة، فإذا رآها قال: ما أنت؟ ما أحسنك! ليتك لي! فيقول: أما تعرفني؟ أنا سورة كذا وكذا، ولو لم تنسني رفعتك إلى هذا**»[٢].

## رابعاً: أخلاقيّات الفهم

وهذا الأمر يستدعي التدبّر والتأمّل، ومن لم يرتقِ لذلك لا تعدو قراءته للقرآن الكريم قراءة شعرٍ أو نثر ؛ حيث لا يُطلب منه سوى إسماعه للآخرين، وقد روي عن عبد الله بن سليمانَ قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿**وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً**﴾، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: **بيّنه تبياناً، ولا تهذّه هذّ الشعر، ولا تنثره نثر الرمل، ولكن أفزعوا قلوبكم القاسية، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة**»[٣].

وقد كان ابن عبّاسٍ يقول: «الذي يقرأ القرآن ولا يُحسن تفسيره كالأعرابيّ يهذّ الشعر هذّاً»[٤]؛ وكان عندما يمرّ بقوله تعالى: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ**

---

(١) المصدر السابق: ج٢، ص٦٠٨، ح٣.

(٢) المصدر السابق: ج٢، ص٦٠٧، ح٢.

(٣) المصدر السابق: ج٢، ص٦١٤، ح١، باب: (ترتيل القرآن بالصوت الحسن).

(٤) الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطيّ: ج٢، ص٣٤٩؛ وبحار الأنوار،

﴿يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ٢٦٩)، كان يقول في معنى الحكمة: «إنّه يعني تفسيره، فإنّه قد قرأه البرّ والفاجر»[١]؛ وطالما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحذّرنا من المرور على الآيات دون تفكّرٍ وتأمّلٍ، بل ويتوعّد ذلك بالويل، فقد روي عنه صلى الله عليه وآله أنّه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٠)، أنّه قال: «**ويل لمن لاكها بين فكّيه ولم يتأمَّل ما فيها**»[٢].

## كيف لنا أن نعظّم القرآن؟

يتحقّق مقدارٌ كبيرٌ من التعظيم للقرآن الكريم من خلال معرفة وظائفنا تجاهه، وهي:

**الوظيفة الأولى**: الجانب النظريّ، وهو المتعلّق بفهم القرآن، فالواجب على كلّ مسلمٍ أن يسعى لفهم القرآن، ولو بقدر ما يحتاجه وبما يناسب قدراته المعرفيّة، إلى أنْ يبلغ القارئ مرحلة التحقيق.

**الوظيفة الثانية**: الجانب العمليّ الشخصيّ، من خلال التطبيق، فنكون قرآنيّين علماً وعملاً.

**الوظيفة الثالثة**: الجانب العمليّ التعليميّ، بإيصال ما تعلّمناه للآخرين، ونشر المعارف القرآنيّة.

**الوظيفة الرابعة**: تعاهد القرآن، وذلك من خلال تلاوته يوميّاً، والسعي

---

للعلّامة المجلسيّ: ج٨٩، ص١٠٦.

(١) الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطيّ: ج٢، ص٣٤٩؛ ومنية المريد، للشيخ زين الدين بن عليّ العامليّ (الشهيد الثاني): ص٣٦٨.

(٢) بحار الأنوار، للعلّامة المجلسيّ: ج٦٦، ص٣٥٠. واللوك: إدارة الشيء في الفم. (انظر: مجمع البحرين، للشيخ فخر الدين الطريحيّ: ج٤، ص١٥٤).

لحفظه بقدر المستطاع.

فهذه الوظائف متصيّدةٌ من جملة رواياتٍ مرويّةٍ عن الرسول صلى الله عليه وآله وعترته الطاهرة عليهم السلام، وقد أشرنا لها آنفاً، وإذا ما عملنا بها فسنعظّم القرآن الكريم، فبقدر ما نحقّقه منها نكون قد عظّمناه.

وملخّص الوظائف كلّها تكمن في تعلّمه وتعليمه، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «**خياركم من تعلّم القرآن وعلّمه**»[1]، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**ينبغي للمؤمن أن لا يموت حتّى يتعلّم القرآن أو أن يكون في تعليمه**»[2].

## علاقة أخلاقيّات القرآن الكريم بروحانيّة العبادات

إنّ ما قدّمناه من بياناتٍ إجماليّةٍ في كمال القرآن وأصوله وأخلاقيّاته، سواءٌ ما تعلّق به أو ما يتعلّق بنا، وما تضمّنته هذه البيانات ـ على إجمالها ـ من أمورٍ دقيقةٍ وعميقةٍ يتجلّى لنا فيها عمق الصلة بين أخلاقيّات القرآن وروحانيّة العبادات، والتي يمكن تلخيصها بأمرين، هما:

**الأمر الأوّل**: ما لم نعرف وظيفتنا الأخلاقيّة ـ المعرفيّة والمعنويّة ـ تجاه القرآن الكريم، لا يمكننا أن نعيش الروحانيّة المطلوب منّا تحقيقها في العبادات؛ فإنّ أصول العبادات قرآنيّة التأسيس، فكيف لنا التعاطي معها دون الوقوف على وظيفتنا الأخلاقيّة تجاه القرآن؟

**الأمر الثاني**: إنّ جميع العبادات بصفتها الروحانيّة تصبّ في تحقيق الأهداف الأخلاقيّة القرآنيّة، فما نسير باتّجاهه من سموٍّ ورفعةٍ بواسطة الأخلاق القرآنيّة هو عين ما نطلبه في روحانيّة العبادات، وبالتالي فإنّ هذه

---

(١) وسائل الشيعة، للحرّ العامليّ: ج٦، ص١٦٧، ح٦.

(٢) المصدر السابق: ج٦، ص١٦٧، ح٤.

الثنائيّة بين أخلاقيّات القرآن وروحانيّة العبادات تمثّل حقيقةً واحدةً معروضةً على مستويين: قرآنيٍّ وعباداتيٍّ.

## مذاكرةٌ

١. أوجز مكانة القرآن الكريم، وبأيّ معنىً تفسّر مرجعيّته الأولى؟
٢. ما هي أبعاد رسالة القرآن، وهل له أهدافٌ اجتماعيّةٌ؟
٣. أين يكمن الكمال الحقيقيّ من وجهة نظرٍ قرآنيّةٍ؟
٤. ما هو الملمح الأوّل في فلسفة الكمالات الإنسانيّة الإلهيّة؟
٥. ما هي أقسام الأصول الأخلاقيّة القرآنيّة الفرعيّة؟
٦. من أيّ أقسام الأصول الأخلاقيّة يدخل قوله تعالى: ﴿**وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا**﴾؟
٧. ما هي الآية الجامعة لرؤوس الأخلاق؟
٨. ما هو الفرق الأساسيّ بين الأخلاقيّات العامّة والأخلاقيّات الخاصّة للقرآن؟
٩. ما هي أخلاقيّات التلاوة والترتيل؟
١٠. ما هو الفرق بين الاستماع والإنصات للقرآن، وأيّهما مطلوبٌ منّا تحقيقه؟
١١. ما هي النكتة العميقة الفاصلة بين الاستماع والإنصات للقرآن الكريم؟
١٢. من أيّ أقسام أخلاقيّات القرآن يدخل قول الإمام عليٍّ عليه السلام: «**بيّنه تبياناً**»، في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً**﴾؟
١٣. كيف لنا أن نعظّم القرآن؟
١٤. هل يمكن لك أن تلخّص وظائفنا الأخلاقيّة تجاه القرآن الكريم بكلمتين؟
١٥. صوّر لنا علاقة أخلاقيّات القرآن الكريم بروحانيّة العبادات.

# الدرس الثاني عشر

# أخلاقيّات المحبّة والرفقة والصداقة والخلّة

- أهداف الدرس
- تمهيدٌ
- معنى المحبّة والرفقة والصداقة والخلّة
- ضرورة التروّي في انتخاب الصديق
- حدود الصداقة
- هويّة المحبوب والرفيق والصديق والخليل
- ضرورة الاعتدال في المحبّة والرفقة والصداقة والخلّة
- المخاطر والمحاذير في الرفقة والصداقة والخلّة
- علاقة المحبّة والرفقة والصداقة بروحانيّة العبادات
- مذاكرةٌ

## أهداف الدرس

١. بيان وجه الحاجة للمحبوب و الرفيق والصديق والخليل.
٢. بيان الآثار التي تتركها المحبّة والرفقة والصداقة والخلّة ـ سلباً وإيجاباً ـ على روحانيّة العبادات.
٣. بيان المراد من الحبّ والرفقة والصداقة والخلّة.
٤. بيان الطوليّة بين المعرفة والحبّ والإخلاص، وكون الإخلاص هو ثمرة الحبّ، وأنّ الحبّ ثمرة المعرفة.
٥. بيان الأشرفيّة بين اللذّات الحسّيّة والعقليّة والمعنويّة الروحيّة ولذّة الشهود.
٦. بيان أنّ كشف حقيقة الحبّ مرتبطٌ بما يتميّز به الإنسان في علاقته مع الله.
٧. بيان كون الحبّ واضحاً في لفظه ومعناه وآثاره، ولكنّه خافٍ في كنهه ومغزاه.
٨. بيان معنى الرفقة بالمعنى العرفانيّ.
٩. بيان الفرق بين الصداقة والخلّة.
١٠. بيان أهمّيّة التروّي في انتخاب الصديق، وحدود الصداقة.
١١. بيان هويّة المحبوب والرفيق والصديق والخليل.
١٢. بيان مستلزمات المحبّة والرفقة والصداقة والخلّة.
١٣. بيان ضرورة الاعتدال في المحبّة والرفقة والصداقة والخلّة.
١٤. بيان المخاطر والمحاذير في الرفقة والصداقة والخلّة.
١٥. بيان علاقة المحبّة والرفقة والصداقة بروحانيّة العبادات.

## تمهيدٌ

لا ينفكّ الإنسان السويّ عن الارتباط بمحبوبٍ أو رفيقٍ أو صديقٍ أو خليلٍ، وما شئت فسمِّ من علاقات الارتباط والوصل، وهذه العلاقات المتفاوتة في المضمون والملازمات لابدّ من التوقّف عندها؛ لما لها من أثرٍ عظيمٍ على هويّتنا، فإنّها ليست علاقاتٍ عابرةً، وإنّما هي علاقاتٌ ترتبط بشكل حاضرنا وصورة مستقبلنا، علاقاتٌ لها صلةٌ وثيقةٌ بما نكون عليه من أخلاقٍ ومن ولاءٍ في العقيدة ومن عملٍ بالشريعة، فالتأثّر إمّا أن يكون إيجابيّاً فنتكامل، أو سلبيّاً فنتسافل.

بعبارةٍ أخرى: إذا كان في المحبوب صالح دينك ودنياك تمسّكت به وبما لك من حقوقٍ، وأدّيت له ما عليك من واجباتٍ، وهكذا الحال في الرفيق وفي الصديق، وهذا ما ينعكس بالضرورة على روحانيّة العبادات، فقد يجهد الإنسان نفسه كثيراً ويطوف في باحات الكمال طويلاً، ولكنّه سرعان ما يتهاوى جرّاء رفقةٍ أو صداقةٍ أو خلّةٍ، وقد يحصل العكس تماماً، فيرتقي الداني بخلّة ناصحٍ أمينٍ إلى آفاق الكمال.

كلّ هذا يدعونا لمعرفة حدود هذه الأمور ـ ولو إجمالاً ـ لنكون على حذرٍ في طبيعة تشكيل هذه العلاقات، كما نكون على بيّنةٍ في كيفيّة حفظ ما هو صحيحٌ ومطلوبٌ منها.

### معنى المحبّة والرفقة والصداقة والخلّة

#### أوّلاً: المراد من الحبّ

الحبّ لغةً: هو الوداد والميل الشديد[1]، ويقابله البغض والتنفّر، وأمّا

(١) انظر: لسان العرب، لابن منظورٍ الأفريقيّ: ج١، ص٢٨٩.

اصطلاحاً فهو الميل القلبيّ والباطنيّ نحو المحبوب، فلا يكون الشيء محبوباً إلّا إذا مالت النفس إليه، وهذا الميل ذو درجاتٍ ومراتب، فإذا قوي هذا الميل واشتدّ سُمّي عشقاً[١].

وهذا الوداد والميل الباطنيّ والعشق ممّا يتفرّع عن أصل الحبّ، متوقّفٌ على حصول معرفةٍ سابقةٍ بالمحبوب، فلا يمكن أن يكون حبّ الشيء وليد الجهل به؛ ولذا ورد في الحديث النبويّ الشريف: «**ما اتّخذ الله وليّاً جاهلاً**»[٢].

والحبّ الذي لا ريب في وقوعه وأهمّيّته هو حبّ الإنسان لتحصيل كماله، وحيث إنّ الحبّ هو ودٌّ وميلٌ، فإنّ المحبوب سوف يتنوّع بحسب القوّة المدركة له، فيجد نفسه منساقاً نحو ما يحبّ، تلمّساً للّذّة الحسّيّة أو العقليّة التي يوفّرها محبوبه، وفي ذلك كماله بحسب فهمه وإدراكه، فإذا ما وجد كماله في اللذّات الحسّيّة دون ما سواها، فإنّه يتعسّر عليه فهم وإدراك ما تحمله الأمور الأخرى من كمالاتٍ وتقدّمها على ما هو حاصلٌ عليه.

وكشاهدٍ على ذلك: أنّ الصبيّ يجد الكمال في لعبة الكرة، ولا يدرك ما في لذّة الزواج، والمقتصر على ذلك لا يدرك لذّة طلب العلم، والذي توقّفَ على ذلك لا يدرك لذّة المناجاة مع الله تعالى، والذي توقّف على ذلك لا يدرك لذّة الشهود.

قال الفيض الكاشانيّ: «فأمّا معنى كون معرفة الله وصفاته وملكوت سماواته وأسرار ملكه أعظم لذّةً من الرئاسة، فهذا يختصّ بمعرفته من نال رتبة المعرفة وذاقها، ولا يمكن إثبات ذلك عند من لا قلب له؛ لأنّ القلب

---

(١) المصدر السابق.

(٢) شرح أصول الكافي، للمولى محمّد صالح المازندرانيّ : ج٨، ص٣٤٨، ح١، باب الحبّ في الله والبغض في الله.

معدن هذه القوّة، كما أنّه لا يثبت رجحان لذّة الوقاع على لذّة اللعب بالصولجان عند الصبيان...»[١].

تلخّص أنّه لا ريب في أشرفيّة اللذّة العقليّة على الحسّيّة، وأشرفيّة اللذّة المعنويّة الروحيّة على العقليّة، وأشرفيّة لذّة الشهود على سائر اللذّات الأخرى، وبالتالي فإنّ نوع اللذّة المطلوبة أو المدرَكة سوف تنعكس بشكلٍ كاملٍ على روحانيّة العبادات، فمن اقترنت لذّته بالحسّ أو العقل فقط كيف له أن يدرك اللذّة المعنويّة الروحيّة؟! والذي لم يرتق إلى مشاهدة المحبوب الحقيقيّ ـ ولو من باب (اعبد ربّك كأنّك تراه) ـ كيف له إدراك ذلك؟!

هذا ما يمكن ذكره في تصوير معاني الحبّ لغةً واصطلاحاً، أمّا حقيقة الحبّ فمن الصعوبة بمكان تصويرها وتلمّسها فضلاً عن الإحاطة بها، رغم أنّنا نعيش تفاصيل كثيرةً منها، كالعلقة الناشئة بيننا وبين الله سبحانه وتعالى وأنبيائه ورسله وأوصيائه وأوليائه وملائكته، وسائر الموجودات العلويّة مرتبةً وشرفاً، نعيش آثارها ولا ندرك سرّها.

بعبارةٍ أخرى: إنّ حقيقة الحبّ وسرّه وكنهه مرتبطةٌ بما يتميّز به الإنسان في علاقته مع الله تعالى، فحبّ الله تعالى هو الأصل والأساس والمنطلق لكلّ الموجودات والمفردات الأخرى التي يمكن أن تكون متعلّقاً للحبّ، وحقيقة ذلك لا يدركها إلّا حقيقة الأشياء، وهو الإنسان الكامل؛ لأنّه يمتلك معرفةً حقائقيّةً، وعليه فالحبّ واضحٌ لفظه ومعناه وآثاره، ولكنّه خافٍ في كنهه وحقيقته ومغزاه، كما هو الحال في أصل الوجود الواضح مفهوماً المبهم مضموناً.

---

(١) المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء، للمولى محسن الفيض الكاشانيّ: ج٨، ص٣١.

وما دمنا عرفنا إجمالاً معنى الحبّ وتعرّضنا إلى ما نعيشه من آثاره، نحتاج إلى بيان الثمرة الحقيقيّة للحبّ، للوصول إلى مصداقيّةٍ حقيقيّةٍ للحقّ، بمعنى أنّ هذه الثمرة ستكون مقياساً حقيقيّاً للتثبّت من صحّة وصدق هذه العاطفة النبيلة، فما هي ثمرة الحبّ؟

**الإخلاص ثمرة الحبّ**

اتّضح أنّ الحبّ وليد المعرفة، بمعنى: أنّ الحبّ هو ثمرة المعرفة، أو قل: بأنّ المعرفة تورث الحبّ، فما هي ثمرة الحبّ، أو ما الذي يورثه؟

إنّ ثمرة الحبّ هو الإخلاص للمحبوب، فما لم يورث الحبّ إخلاصاً حقيقيّاً للمحبوب فذلك ليس بحبٍّ، وإنّما هو توهّمٌ، وقد يكون مرضاً نفسيّاً أو نفاقاً، فهنالك من يدّعي الحبّ لشيءٍ ولكنّه يناصبه العداء، أو يوالي أعداءه، كمن يدّعي جهراً أنّه يحبّ الله ولكنّه متابعٌ ومطيعٌ للشيطان، ولا ريب أنّ هذا التناقض بين المدّعى والواقع يتقاطع تماماً مع ما تقتضيه الفطرة السليمة التي تفرض ترتّب الأثر وتحقيقه ثمرة الحبّ، وهو الإخلاص للمحبوب.

من هنا نحن نرى بالوجدان أنّنا نخلص لمن نحبّه، بل وتزداد درجة إخلاصنا بازدياد درجة حبّنا له، وهذا الترتّب الطوليّ بين المعرفة والحبّ والإخلاص هو ترتّبٌ ذاتيٌّ، وسنّةٌ إلهيّةٌ، ومسلكٌ قرآنيٌّ منسجمٌ تمام الانسجام مع فطرة الإنسان.

وعليه فمن يدّعي الحبّ لله تعالى لابدّ من الإخلاص له، وكشاهدٍ على ضرورة تحقيق ذلك هو ما يحصل بالصلاة، ففي الصلاة يجب أن يكون المتوجّه إليه هو الله وحده، فإذا قُصد بها وجهٌ آخر طلباً للمنزلة والمحبوبيّة عنده فإنّ مثل هذه الصلاة تكشف عن عدم إخلاص صاحبها لله تعالى، وعدم إخلاصه

هذا يكشف عن عدم حبٍّ لله تعالى، أو أنّه يكشف عن حبٍّ لا قيمة له، وعدم الحبّ كاشفٌ بدوره عن عدم المعرفة بالله تعالى؛ لما عرفت من تلك العلاقة الطوليّة بين المعرفة والحبّ والإخلاص.

ومن دواعي الإخلاص للمحبوب: الإعلان والإخبار بهذا الحبّ لمحبوبه؛ فعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إذا أحببت رجلاً فأخبره بذلك؛ فإنّه أثبت للمودّة بينكما**»[١].

جديرٌ بالذكر أنّ حبّ الله يكون مورثاً لأعلى درجات الإخلاص؛ لأنّ محبّة الله تعالى تطهّر القلب من كلّ التعلّقات الأخرى، حيث لا يُبقي الحبّ في قلب المحبّ شيئاً أو متعلّقاً لغير المحبوب، والنتيجة الحتميّة لذلك هو «أنّ المحبّة الإلهيّة تبعثهم على أن لا يريدوا إلّا ما يريده الله، وينصرفوا عن المعاصي»[٢]، فيعود القلب سليماً كما خُلق أوّل مرةٍّ ليلقى ربّه كما أُريد له؛ قال تعالى: ﴿**إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ (الشعراء: ٨٩)، وهنا يؤكّد الإمام الصادق عليه السلام هذا المعنى فيقول: «**السليم الذي يلقى ربّه وليس فيه أحدٌ سواه**»[٣]، أو هو على حدّ تعبير رسول الله صلى الله عليه وآله: «**دينٌ بلا شكٍّ وهوى، وعملٌ بلا سمعةٍ ورياءٍ**»[٤]، وعندئذٍ تُسقى القلوب الطاهرة شراباً يسانخها في الطهر، ﴿**وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً**﴾ (الإنسان: ٢١).

وبذلك نكون قد عرفنا أنّ المعرفة الإلهيّة هي الأصل الأصيل المورث للحبّ، وأنّ الحبّ بدوره يورث الإخلاص في قلب المحبّ لمحبوبه، فعدم

---

(١) أصول الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٢، ص٦٤٤، ح٢، باب: (إخبار الرجل أخاه بحبّه).

(٢) الميزان في تفسير القرآن، للسيّد العلّامة الطباطبائيّ: ج١١، ص١٧٨.

(٣) أصول الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٢، ص١٦.

(٤) مستدرك الوسائل، للمحدّث حسين النوري: ج١، ص١١٣، ح١٢٤.

الإخلاص عدمٌ للحبّ، وعدم الحبّ عدمٌ للمعرفة الإلهيّة، وهذا ما يدركه الإنسان ويخزنه وجدانه، ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (القيامة: ١٤).

## ثانياً: المراد من الرفقة

الرفق: ضدّ العنف، وقد رفق به يرفق، ويقال أيضاً: أرفقته، أي نفعته. والرفقة: الجماعة ترافقهم في سفرك. والرفيق هو المرافق لك، والجمع الرفقاء، فإذا تفرّقتم ذهب اسم الرفقة[1].

وقد وردت الرفقة والرفقاء في القرآن الكريم في موردٍ واحدٍ، يمدحهم فيها، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ (النساء: ٦٩).

ومنه اشتقّ معنى الرفيق الأعلى، حيث قيل إنّه من تقدّم ذكرهم في الآية الكريمة، وهم: النبيّون والصديّقون والشهداء والصالحون، وفي ورد الحديث القدسيّ المرويّ عن الإمام الصادق عليه السلام من أنّ موسى عليه السلام سأل جبرائيل: ما لمن حجّ هذا البيت بنيّةٍ صادقةٍ ونفقةٍ طيّبةٍ؟ قال: فرجع إلى الله عزّ وجلّ فأوحى الله تعالى إليه: قل له: «**اجعله في الرفيق الأعلى مع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً**»[2]؛ وقيل هم جماعة المقرّبين، وقيل إنّ الرفيق الأعلى هم الملائكة والنبيّون الذين يسكنون أعلى علّيّين[3].

ولكنّ الرفقة بالمعنى العرفانيّ تأخذ بعداً آخر ـ وإن توافق مع المعنى اللغويّ

---

(١) انظر: الصحاح تاج اللغة، للجوهريّ: ج٤، ص١٤٨٢.

(٢) وسائل الشيعة، للحرّ العامليّ: ج١١، ص١٤٤، ح٣.

(٣) انظر: شرح أصول الكافي، للمولى محمّد صالح المازندرانيّ: ج٧، ص٢٠.

بالمعنى العامّ ـ فالرفقة عندهم هو رفق السفر إلى الله تعالى، فيقول واحدهم مـثلاً: كنت مع الرفقاء، جاء الرفقاء، أي: أصحاب الطريقة والسير والسلوك.

**ثالثاً: المراد من الصداقة والخلّة**

الصداقة هي علاقة مودّةٍ ومحبّةٍ بين الأصدقاء[١]، وقيل إنّ: «الصداقة قوّة المودّة مأخوذةً من الشيء الصدق وهو الصلب القويّ، وقال أبو عليّ رحمه الله: الصداقة اتّفاق القلوب على المودّة»[٢].

وقيل: إنّ الفرق بين الصداقة والخلّة هو: «أنّ الصداقة اتّفاق الضمائر على المودّة، فإذا أضمر كلّ واحدٍ من الرجلين مودّة صاحبه فصار باطنه فيها كظاهره سمّيا صديقَين، ولهذا لا يقال (الله صديق المؤمن) كما أنّه وليّه، والخلّة: الاختصاص بالتكريم؛ ولهذا قيل: إبراهيم خليل الله؛ لاختصاص الله إيّاه بالرسالة وفيها تكريمٌ له...»[٣].

والظاهر من ذلك: أنّ الخلّة أرفع درجةً من الصداقة، أو قل: هي أرفع درجات الصداقة، فكلّ خليلٍ صديقٌ، وليس كلّ صديقٍ خليلاً، فالصداقة قد يشوبها خللٌ وجفاءٌ، ولكنّ الخلّة نافيةٌ لذلك، بمعنى أنّها صداقةٌ لا خلل فيها.

قال المازندرانيّ: «الخليل الصديق، من الخلّة ـ بالضمّ ـ وهي الصداقة والمحبّة المختصّة التي لا خلل فيها، أو التي تخلّلت القلب فصارت خلاله، أي: في باطنه...»[٤]، وإنّما كان العلم خليل المؤمن؛ لأنّه ينفعه غاية النفع

---

(١) انظر: القاموس الفقهيّ، للدكتور سعدي أبو حبيب: ص٢٠٩.

(٢) انظر: الفروق اللغويّة، أبو هلال العسكريّ: ص٣١٠ الرقم: (١٢٥١).

(٣) المصدر السابق: ص٣١٠ الرقم: (١٢٥٠).

(٤) شرح أصول الكافي، للمولى محمّد صالح المازندرانيّ: ج١٠، ص٤٤٤.

كالخليل[١].

وعليه تكون الشروط والحدود والرسوم المنظورة في الصداقة هي آكد وألزم في الخلّة، مثلاً: إنّ الصديق لا يكون صديقاً إلّا أن يكون صادقاً في قوله وفعله وصحبته مع صديقه، أي: يكون صادقاً في مودّته، فتكون الخلّة آكد في تحقّق ذلك، ففي الصداقة يفترض تحقّق ذلك، وأمّا في الخلّة فلا يتوقّع حصول غير ذلك.

من هنا تكون المودّة بين الأخلّاء آكد وأجلى، على أنّ هذه المودّة هي مادّة الصداقة وأرضيّتها، فلا تتصوّر الصداقة بدون ذلك؛ ولذلك فإنّ أيّ قصورٍ في المودّة أو ضعفٍ فيها سوف يفضي إلى وقوع التحاسد بين الأصدقاء؛ فعن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أنّه قال في ذلك: «**حسد الصديق من سُقم المودّة**»[٢]، أي: لولا ضعف المودّة ما كان الحسد، ولذلك قيل: بأنّ أوّل الصداقة انصراف النظر عن رؤية التفاوت، وإلّا فإنّ الصداقة متوقّفةٌ على الصدق، والصدق يهدي إلى البرّ، كما قال أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام: «**الصدق يهدي إلى البرّ، والبرّ يدعو إلى الجنّة، وما يزال أحدكم يصدق حتّى لا يبقى في قلبه موضع إبرةٍ من كذبٍ، حتّى يكون عند الله صادقاً**»[٣].

## ضرورة التروّي في انتخاب الصديق

إنّ الصديق بمقتضى الحال هو مستودع الأسرار التي لا يبوح بها البعض لغير الصديق، فالصديق ـ كما قيل ـ نسيب الروح، والإنسان لا يرى بينه وبين روحه شيئاً، وهذا ما يوجب الدقّة والتأنّي بانتخاب الصديق، فمن أودعْتَه

---

(١) انظر: شرح أصول الكافي، للمولى محمّد صالح المازندرانيّ: ج٨، ص١٤٣ و١٤٤.

(٢) نهج البلاغة، خطب الإمام عليّ عليه السلام: ج٤، ص٤٩، الرقم: (٢١٨).

(٣) مستدرك الوسائل، للميرزا حسينٍ النوريّ: ج٨، ص٤٥٥، ح٧.

سرّك أودَعْته نفسك، والسرّ أسيرك فإن أذعته صرت أسيره، فانظر لمن تسرّه بذلك؛ ولذلك نجد رسول الله صلى الله عليه وآله ينبّهنا على ذلك بقوله: «**انظروا مَن تحادثون؟ فإنّه ليس من أحدٍ ينزل به الموت إلّا مُثّل له أصحابه إلى الله إن كانوا خياراً فخياراً، وإن كانوا شراراً فشراراً، وليس أحدٌ يموت إلّا تمثّلتُ له عند موته**»[١].

وللحكيم لقمان عليه السلام وصيّةٌ رائعةٌ لابنه نأخذ منها محلّ الشاهد، حيث يوصيه في علاقاته الاجتماعيّة وصداقاته قائلاً: «**يا بنيّ، لا تقترب فتكون أبعد لك، ولا تبعد فتهان، كلّ دابّةٍ تحبّ مثلها، وإنّ ابن آدم يحبّ مثله، ولا تنشر بزك** [أي: متاعك] **إلّا عند باغيه، كما ليس بين الذئب والكبش خلّةٌ كذلك ليس بين البارّ والفاجر خلّةٌ...**»[٢].

وينبغي الحذر الشديد من مصادقة ومؤاخاة من لا يرجى من صداقتهم إلّا الحرمان من الكمال، والندم على العمل، فضلاً عن هدر والوقت والجهد، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**لا ينبغي للمرء المسلم أن يؤاخي الفاجر ولا الأحمق ولا الكذّاب**»[٣]، والحذر الحذر من مصادقة الفاجر فإنّه لا يكفّ عنّك حتّى يراك مثله، وليس فيه ما يرجى؛ عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام: «**لا ينبغي للمرء المسلم أن يؤاخي الفاجر، فإنّه يزيّن له فعله، ويحبّ أن يكون مثله، ولا يعينه على أمر دنياه، ولا أمر معاده، ومدخله إليه ومخرجه من عنده شينٌ عليه**»[٤]، فإنّ الفجور شرٌّ بغيضٌ، والشرّ أشبه بالنار في الهشيم، لا تترك أخضر ولا يابساً،

---

(١) الأصول من الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٢، ص٦٣٨، ح٣. باب: من يجب مصادقته.
(٢) المصدر السابق: ج٢، ص٦٤٢، ح٩.
(٣) المصدر السابق: ج٢، ص٦٤٠، ح٣.
(٤) الأصول من الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٢، ص٦٤٠، ح٢.

فيسري سمّه إلى بطانتك فاحذر منه، وقد روي عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام أنّه قال: «**قال عيسى بن مريم** عليه السلام: **إنّ صاحب الشرّ يعدي، وقرين السوء يردي، فانظر من تقارن**»[1].

وأخيراً يقدّم لنا الإمام جعفرٌ الصادق عليه السلام وجهاً دقيقاً لانتخاب الصديق، حيث يقول لبعض أصحابه: «**من غضب عليك ثلاث مرّاتٍ فلم يقل فيك شرّاً فاتّخذه لنفسك صديقاً**»[2].

## حدود الصداقة

كلّ علاقةٍ لها رسومٌ وحدودٌ ومنها تتّضح الحقوق والواجبات المتبادلة، وبقدر حفظ هذه الحدود والرسوم تكون الضمانة في حفظ الصداقة، فما هي هذه الحدود والرسوم؟

يطالعنا في ذلك الإمام جعفرٌ الصادق عليه السلام في بيانٍ مركّزٍ ووافٍ وشافٍ، يقول فيه: «**لا تكون الصداقة إلّا بحدودها، فمن كانت فيه هذه الحدود أو شيءٌ منها فانسبه إلى الصداقة، ومن لم يكن فيه شيءٌ منها فلا تنسبه إلى شيءٍ من الصداقة، فأوّلها: أن تكون سريرته وعلانيته لك واحدةً، والثاني: أن يرى زينك زينه وشينك شينه، والثالثة: أن لا تغيّره عليك ولايةٌ ولا مالٌ، والرابعة: أن لا يمنعك شيئاً تناله مقدرته، والخامسة: وهي تجمع هذه الخصال أن لا يسلمك عند النكبات**»[3].

وقد جاء في وصيّةٍ للإمام عليّ عليه السلام إلى ولده الإمام الحسن عليه السلام كتبها إليه

---

(١) الأصول من الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٢، ص٦٤٠، ح٤.

(٢) وسائل الشيعة، للحرّ العامليّ: ج١٢، ص١٤٧، ح٥.

(٣) الأصول من الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٢، ص٦٣٩، ح٦.

عند منصرفه من صفّين، يوصيه فيها: «**ولا يكوننّ أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته**»[١]، وقد علّق الشيخ محمّد عبده على ذلك بقوله: «مراده: إذا أتى أخوك بأسباب القطيعة فقابلها بموجبات الصلة حتّى تغلبه، ولا يصحّ أن يكون أقدر على ما يوجب القطيعة منك على ما يوجب الصلة، وهذا أبلغ قولٍ في لزوم حفظ الصداقة»[٢].

وكلّ ما تقدّم من نصوصٍ في حقيقة الصداقة وحدودها ورسومها وآثارها فإنّها ـ كما تقدّم ـ آكد مطلوبيّة، وأعظم حضوراً، فلا يتّخذ أحدنا خليلاً إلّا بعد التأنّي الشديد والتروّي، فإنّ الخلّة تعني شيئاً من التوحّد في الشخصيّة، وفيها مقدارٌ كبيرٌ من التفاني، فيرى الخليل في خليله مرآةً تحكيه، وقلباً يؤويه، ووقاءً يحميه، فانظر من يكون خليلك؛ ولذلك ينبّهنا رسول الله صلى الله عليه وآله مرّةً أخرى حول أثر الصداقة والخلّة، حيث يقول: «**المرء على دين خليله وقرينه**»[٣].

وقد ورد هذا المعنى من حيث سريان الأثر، في القرآن الكريم؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿**يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً**﴾ (الفرقان: ٢٨).

## هويّة المحبوب والرفيق والصديق والخليل

مرّت بنا بياناتٌ عدّةٌ في هويّة المحبّة والرفقة والصداقة والخلّة، وهذا منعكسٌ تماماً على شخصيّة المحبوب والرفيق والصديق والخليل، وبالتالي فإنّه من شخصيّة كلّ واحدٍ تتّضح معالم شخصيّة المحبّ والمرافق والمصادق، فمن أقصر حبّه على شيءٍ ما كان موضعه هو موضع محبوبه، وهكذا في الرفقة

---

(١) نهج البلاغة، خطب الإمام عليّ عليه السلام: ج٣، ص٥٤، الرقم: (٣١).

(٢) المصدر السابق.

(٣) الأصول من الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٢، ص٦٤٢، ح١٠.

والصداقة والخلّة، وهذا أمرٌ خطيرٌ جدّاً، فكلّ واحدٍ من هذه العيّنات الأربع أشبه بالمرآة ترى فيها نفسك، ولا ترى غيرك، وهذا ما يجعل الأمر في غاية الأهمّيّة والخطورة، فأيّ مرآةٍ نتّخذها لنرى فيها أنفسنا؟

وقد مرّ بنا حديثٌ شريفٌ يمسّ هذا المستوى من الأهمّيّة والخطورة، وهو قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**انظروا من تحادثون؟ فإنّه ليس من أحدٍ ينزل به الموت إلّا مُثّل له أصحابه إلى الله إن كانوا خياراً فخياراً، وإن كانوا شراراً فشراراً، وليس أحدٌ يموت إلّا تمثّلت له عند موته**»[1].

وإذا كان الأمر كذلك فعلينا أن نتّخذ محبوباً ورفيقاً وصديقاً وخليلاً يسعدنا إذا رأينا ساعة نزول الموت بنا، فمن كان حبيبه رسول الله صلى الله عليه وآله وعترته الطاهرة عليهم السلام تمثّلوا له وسرّ بهم، ومن كان حبيبه خصمهم وعدوّهم تمثّل له ما يسوؤه، والكلام هو الكلام في الرفيق والصديق والخليل.

## مستلزمات المحبّة والرفقة والصداقة والخلّة

من أعظم مستلزمات هذه الصلات الوثيقة: الإخلاص للمحبوب، والنصيحة للرفيق، والوفاء للصديق، والتفاني للخليل؛ فمن كان محبوبه هو رفيقه وصديقه وخليله، لزمه كلّ ذلك.

ومن المستلزمات الأخرى: أن تنسى إحسانك لهم ما استطعت، وتذكر إحسانهم إليك، ومن المستلزمات أيضاً: التغافل عن أخطائهم، وإيجاد العذر لتقصيرهم، والثناء عليهم والذود عنهم عند غيابهم، وتحفظ كراماتهم وتُحسن معاشرتهم، ولا تكلّفهم ما تكره لنفسك، ولا تتقاعس عن معونتهم في كلّ ما تقدر عليه.

---

(١) الأصول من الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج٢، ص٦٣٨، ح٣، باب: من يجب مصادقته.

## ضرورة الاعتدال في المحبّة والرفقة والصداقة والخلّة

وهذا الأمر في غاية الأهمّيّة، فإنّ الإفراط والتفريط منبوذان عقلاً ونقلاً، وعقلائيّاً، فهنالك من يحبّ حتّى يجنّ في محبوبه، فيرى كلّ ما يفعله المحبوب الخطّاء صحيحاً، وهنالك من يبغض فلا يرى عملاً صالحاً في بغيضه، وكلا الأمرين غير صالحين، فلابدّ من التوازن والاقتصاد في الحبّ والرفقة والصداقة والخلّة، وقد وردت عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام كلمةٌ عظيمةٌ في هذا المراد، يقول فيها: «**أحبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما**»[١].

والهون هو الرفق والسهل والسكينة، والمراد هو أن أحببه حبّاً مقتصداً، فلا إفراط في حبّه، وأبغضه بغضاً مقتصداً، فلا تبالغ في حبّه إلى درجةٍ لا تبقي من نفسك لنفسك شيئاً، فتكون أسيره وذليله فيما لو اختلفتما، كما لا تبالغ في بغضه إلى درجةٍ تقطع الصلة بينكما فلا تكون رجعةٌ، فعسى أن تحتاجه يوماً، وعلى حدّ تعبير أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام: «**إيّاك أن تحرج صديقك إحراجاً يخرجه عن مودّتك، واستبق له من أنسك موضعاً يثق بالرجوع إليه**»[٢].

إذن عليك بالوسطيّة في ذلك، «**إذا أحببت فلا تكثر**»[٣]؛ و«**إن استنمت إلى ودودك فأحرز له من أمرك، واستبق له من سرّك ما لعلّك أن تندم عليه وقتاً ما**»[٤].

فهل نمنعه من سرّنا بشكلٍ كاملٍ، وأيّ سرٍّ نُطلعه عليه إن جاز لنا ذلك؟

كما قلنا: لا إفراط ولا تفريط، فلا نمنعه فيكون كالغريب، ولا نجعله

---

(١) نهج البلاغة، خطب الإمام عليّ عليه السلام: ج٤، ص٦٤، ح٢٦٨.

(٢) غرر الحكم، كلمات الإمام عليّ عليه السلام؛ جمع عبد الواحد الآمديّ: الرقم (٢٦٨٧).

(٣) المصدر السابق: الرقم (٣٩٧٩).

(٤) المصدر السابق: الرقم (٣٧٢١).

كأنفسنا فنكون أسراء له، وإنّما الوسطيّة الوسطيّة في ذلك، وأمّا نوع السرّ الذي يمكن إطلاعه عليه فهو ما دلّنا عليه الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «**لا يطّلع صديقك من سرّك إلّا على ما لو اطّلع عليه عدوّك لم يضرّك، فإنّ الصديق ربّما كان عدوّاً**»[1].

## المخاطر والمحاذير في الرفقة والصداقة والخلّة

مرّت عدّة إشاراتٍ لذلك، ولكنّ الأمر في غاية الأهمّيّة؛ ولذلك احتاج إلى إبرازٍ وتركيزٍ بشكلٍ موجزٍ؛ بغية إلفات النظر إلى خطورة هذا الأمر الذي له صلةٌ وثيقةٌ ـ كما عرفت ـ بحاضرك ومستقبلك، بل له علاقةٌ وثيقةٌ بروحانيّة عباداتك.

إنّ المخاطر التي نريد التنبيه إليها لا تقتصر على أمور الدنيا لهون الخطب، وإنّما هي تتعلّق بدينك، ومعنى ذلك أنّها تتعلّق بآخرتك.

ومنه نفهم وجه الدعاء بالويل على النفس لذلك الذي ترك رفقة الرسول صلى الله عليه وآله واتّخذ أحد المنافقين له خليلاً يخصّه بالمحبّة، كما يخصّ النبيّ صلى الله عليه وآله بالعداوة، وإذا به يستصرخ مستنجداً، كما يصوّره لنا القرآن الكريم، ليكون عبرةً لنا على مرّ التاريخ؛ قال تعالى: ﴿**يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً**﴾ (الفرقان: ٢٨)؛ ولكن: ﴿**...فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ**﴾ (ص: ٣).

إذن هنالك آثارٌ للمحبّة والرفقة والصداقة والخلّة في الدنيا، كما أنّ هنالك آثاراً للمحبّة والرفقة والصداقة والخلّة في الآخرة.

## علاقة المحبّة والرفقة والصداقة بروحانيّة العبادات

وهنا حجر الزاوية ورأس المطلب وغاية المرسى، فإنّ لكلّ ما تقدّم من محبّةٍ ورفقةٍ وصداقةٍ وخلّةٍ ـ سواءٌ كان فيها الطرف الآخر صالحاً أو طالحاً ـ

(١) وسائل الشيعة، للحرّ العامليّ: ج١٢، ص١٤٧، ح٦.

آثاراً كبيرةً تظهر على الوضع الروحانيّ بشكلٍ عامٍّ، وعلى روحانيّة العبادات بشكلٍ خاصٍّ، فلا يغترّنّ أحدٌ بكثرة الأحبّاء أو بتنوّع الرفقاء، أو بحسن ظاهر الأصدقاء، أو بلطافة الأخلّاء، وإنّما الحجر الزاوية في كلّ ذلك هو فيما يتركه هؤلاء على روحانيّة عبادتك، فهل فيهم من يقرّبك إلى الله تعالى ويذكّرك بالله تعالى؟ فإن كان كذلك فتمسّك به، وعضّ عليه بالنواجذ، وأمّا من كان يزيدك بعداً عن الله تعالى، ويهلك ويطفئ فيك روحانيّتك، فالفرار الفرار منه ولا تعقّب.

## مذاكرةٌ

١. ما هو وجه الحاجة للمحبوب و الرفيق والصديق والخليل؟
٢. ما هو المراد ـ بإيجازٍ شديدٍ ـ من الحبّ والرفقة والصداقة والخلّة؟
٣. ما هي نوع العلاقة بين المعرفة والحبّ والإخلاص؟
٤. كيف ترتّب الأشرفيّة بين اللذّة الحسّيّة والعقليّة والمعنويّة والشهود؟
٥. هل الحبّ واضحٌ في كنهه ومغزاه؟
٦. ما هي الرفقة بالمعنى العرفانيّ؟
٧. ما هي حدود الصداقة؟
٨. ما هي مستلزمات المحبّة والرفقة والصداقة والخلّة؟
٩. ما وجه ضرورة الاعتدال في المحبّة والرفقة والصداقة والخلّة؟
١٠. ما هي المخاطر والمحاذير في الرفقة والصداقة والخلّة؟
١١. ما هي علاقة المحبّة والرفقة والصداقة بروحانيّة العبادات؟

# المصادر


١. القرآن الكريم.
٢. إحياء علوم الدين، للإمام أبي حامد محمّد بن محمّد الغزاليّ، صحّحه واعتنى به محمّد بن مسعود الأحمديّ، نشر مؤسسة الريّان للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ، بيروت.
٣. الاختصاص، للشيخ المفيد، أبي عبد الله محمد بن النعمان العكبري، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر جماعة المدرسين، قم.
٤. أخلاق نيكوماخوس، أرسطو طاليس.
٥. أسرار الصلاة، آية الله عبد الله الجواديّ الآمليّ، نشر دار الإسراء، الطبعة الرابعة، ١٤٢٧هـ، قم المقدّسة.
٦. الأصول من الكافي، للشيخ أبي جعفر بن يعقوب الكلينيّ، نشر دار الكتب الإسلامية، الطبعة السادسة، طهران.
٧. الأعلام، قاموس تراجم، خير الدين الزركليّ، نشر دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م، بيروت.
٨. أمالي الصدوق، لأبي جعفر محمد بن علي المعروف بالشيخ الصدوق، نشر مؤسسة الأعلمي، الطبعة الخامسة، بيروت.
٩. الأمالي، لشيخ الطائفة محمّد بن الحسن الطوسيّ، تحقيق قسم الدراسات الإسلاميّة، مؤسّسة البعثة، نشر دار الثقافة، الطبعة الأولى، قم المقدّسة.
١٠. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، للعلّامة المولى الشيخ محمّد باقر المجلسيّ، نشر مؤسّسة الوفاء، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، بيروت.

١١. تأسيس ميتافيزيقيا الأخلاق، تأليف عمّانوئيل كانت، ترجمة حميد عنايت وعلي فيض.
١٢. التبيان في تفسير القرآن، للشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسيّ، نشر مكتب الإعلام الإسلامي، طهران.
١٣. التحصيل، بهمنيار بن المرزبان، تصحيح وتعليق: مرتضى مطهّري، منشورات كلّيّة الإلهيّات والمعارف الإسلاميّة، العدد: ٢٩.
١٤. تفسير الجلالين، لجلال الدين محمّد بن أحمد المحلّيّ وجلال الدين عبد الرحمن السيوطيّ، نشر دار المعرفة، بيروت.
١٥. تفسير الصافي، تأليف فيلسوف الفقهاء وفقيه الفلاسفة أستاذ عصره ووحيد دهره المولى محسنٍ الملقّب بـ «الفيض الكاشانيّ» المتوفّى سنة ١٠٩١ هـ، منشورات مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت ـ لبنان.
١٦. تفسير القمّيّ، نشر مكتبة الهدى.
١٧. التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، فخر الدين محمّد الرازيّ، (طبعة الأحد عشر مجلّداً)، منشورات محمّد علي بيضون، الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، بيروت.
١٨. تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم للسيّد حيدر الأمين، حقّقه وقدّم له وعلّق عليه السيّد محسن الموسويّ التبريزيّ.
١٩. تفسير سورة الحمد، السيّد الإمام روح الله الموسويّ الخمينيّ، جمع وتحقيق السيّد أحمد صولي الحسينيّ العامليّ، نشر دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ، بيروت.
٢٠. التلويحات، السهروردي، نقلاً عن كتاب (رحيق مختوم، شرح حكمه‌ى متعاليه، القسم الأوّل من الجزء الأوّل، للحكيم آية الله جوادي آملي

(بالفارسيّة).
٢١. التنبيه على سبيل السعادة، أبو نصر محمّد بن محمّد الفارابيّ، تحقيق وتعليق الدكتور جعفر آل ياسين، نشر دار المناهل، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.
٢٢. تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، لأبي عليٍّ أحمد بن محمّد بن يعقوب الرازيّ، المشهور بمسكويه، قدّم له الشيخ حسن تميم القاضي الشرعيّ.
٢٣. حاشية إعانة الطالبين، للعلّامة أبي بكر المشهور بالسيّد البكريّ ابن السيّد محمّد شطّا الدمياطيّ، نشر دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، بيروت.
٢٤. الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة، تصحيح وتعليق آية الله حسن زاده آملي.
٢٥. خاتمة المستدرك للنوريّ، تحقيق مؤسّسة آل البيت لإحياء التراث.
٢٦. الخرائج والجرائح، قطب الدين الراونديّ، تحقيق مؤسسة الإمام المهديّ عليه السلام، قم المقدّسة.
٢٧. الخصال، للشيخ الصدوق، طبع جامعة المدرّسين، قم المقدّسة.
٢٨. دروسٌ في الحكمة المتعالية، شرح كتاب بداية الحكمة، السيّد كمال الحيدريّ، دار الصادقين.
٢٩. الدعاء (إشراقاته ومعطياته)، من أبحاث المرجع الدينيّ آية الله المحقّق السيّد كمال الحيدريّ، بقلم الدكتور طلالٍ الحسن، نشر دار مشعر (مركز أبحاث الحجّ)، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ، قم المقدّسة.
٣٠. الدعوات، لقطب الدين الراونديّ، تحقيق مدرسة الإمام المهديّ، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، قم المقدّسة.

٣١. دلائل الإمامة، للمحدّث محمّد بن جرير الطبريّ، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، قم.
٣٢. رسائل الشهيد الثاني، للشهيد السعيد الفقيه زين الدين عليٍّ الجبعيّ العامليّ، تحقيق مركز الأبحاث والدراسات الإسلاميّة، نشر مؤسّسة بوستان كتاب، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، قم المقدّسة.
٣٣. وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، للفقيه المحدّث الشيخ محمّد بن الحسن الحرّ العامليّ، تحقيق ونشر مؤسّسة آل البيت لإحياء التراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ، قم المقدّسة.
٣٤. سنن الترمذيّ، محمّد بن عيسى الترمذيّ، تحقيق عبد الوهّاب عبد اللطيف، نشر دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ.
٣٥. السنن الكبرى، للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائيّ، تحقيق الدكتور عبد الغفّار سليمان البنداريّ وسيّد كسروي، نشر دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
٣٦. السنن الكبرى، للمحدّث الحافظ أحمد بن الحسين بن عليّ البيهقيّ، نشر دار الفكر، بيروت.
٣٧. سنن النبيّ صلى الله عليه وآله، تأليف الأستاذ العلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ، تحقيق الشيخ محمّد هادي الفقهيّ، طبع ونشر مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، ١٤١٦هـ، قم المشرّفة.
٣٨. شجرة طوبى، للشيخ محمّد مهديّ الحائريّ، نشر المكتبة الحيدرية، الطبعة الخامسة، النجف الأشرف.
٣٩. شرح إحقاق الحقّ، للسيّد شهاب الدين النجفي المرعشيّ، نشر مكتبة المرعشي، قم.

٤٠. شرح أصول الكافي، محمّد صالح المازندرانيّ، تعليق: الميرزا أبي الحسن الشعراني، نشر مؤسسة التاريخ العربي، الطبعة الثانية، بيروت.
٤١. شرح الأزهار، للإمام أحمد المرتضى، نشر غمضان؛ ١٤٠٠هـ، صنعاء.
٤٢. شرح الأسماء الحسنى، للحكيم الملّا هادي السبزواريّ، تحقيق الدكتور نجف قلي حبيبي،انتشارات جامعة طهران، الطبعة الثانية، ١٣٧٥ش، طهران.
٤٣. شرح مقدّمة القيصريّ على فصوص الحكم، للأشتيانيّ.
٤٤. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، نشر دار إحياء الكتب العربيّة، بيروت.
٤٥. الشفاء، الإلهيّات، لابن سينا، الفصل الأوّل من المقالة الأولى، منشورات مكتبة آية الله المرعشيّ النجفيّ، قم المقدّسة: ١٤٠٤.
٤٦. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لإسماعيل بن حماد الجوهريّ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، نشر دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
٤٧. صحيح البخاريّ، محمّد بن إسماعيل البخاريّ، نشر دار الفكر، ١٤٠١هـ، بيروت.
٤٨. صحيح مسلمٍ، أبو الحسين مسلم بن الحجّاج بن مسلم القشيريّ النيسابوريّ، نشر دار الفكر، بيروت.
٤٩. صحيفة الإمام، للسيّد الإمام الخمينيّ قدس سره.
٥٠. الصحيفة السجّاديّة، للإمام علي بن الحسين عليه السلام، جمع الأبطحي، تحقيق ونشر مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام بإشراف محمد علي الأبطحي، الطبعة الأُولى، ١٤١١هـ، قم المقدّسة.

٥١. عدّة الداعي ونجاح الساعي، أحمد بن محمّد بن فهد الحلّي الأسديّ، تحقيق وتصحيح أحمد الموحّدي القمّيّ، نشر مكتبة الوجداني، قم المقدّسة.
٥٢. علل الشرائع، لأبي جعفر محمد بن علي ابن الحسين بن موسى بن بابويه القمي (الشيخ الصدوق)، علّة خلق الخلق واختلاف أحوالهم، المكتبة الحيدرية، ١٩٦٦م، النجف الأشرف.
٥٣. عوالي اللئالي، لابن أبي جمهورٍ الأحسائيّ، تحقيق البحّاثة الشيخ مجتبى العراقيّ، نشر مطبعة سيّد الشهداء، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ، قم المقدّسة.
٥٤. عيون أخبار الرضا عليه السلام، للشيخ الأقدم الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، تحقيق الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الأُولى، ١٤١٤هـ، بيروت.
٥٥. الفروع من الكافي، لثقة الإسلام الشيخ أبي جعفر محمد بن يعقوب الكلينيّ، تحقيق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ، قم.
٥٦. فلاح السائل، للسيد ابن طاووس الحسنيّ.
٥٧. القواعد والفوائد (في الفقه والأُصول والعربيّة)، تأليف الإمام أبي عبد الله محمّد بن مكّي العامليّ (الشهيد الأوّل)، تحقيق الدكتور السيّد عبد الهادي الحكيم، منشورات مكتبة المفيد، قم المقدّسة.
٥٨. كتاب (الجهاد الأكبر)، للسيّد الإمام الخمينيّ قدس سره.
٥٩. كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيديّ، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، نشر مؤسسة دار الهجرة، الطبعة

الثانية، ١٤٠٩هـ، إيران.
٦٠. كشف الخفاء ومزيل الإلباس عمّا اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، للمفسّر المحدّث الشيخ إسماعيل بن محمّد العجلونيّ الجرّاحيّ، نشر دار الكتب العلميّة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ، بيروت.
٦١. كمال الدين وتمام النعمة، للشيخ الأقدم أبي جعفر بن علي بن الحسين بن بابويه المعروف بالشيخ الصدوق، تحقيق علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٥هـ، قم.
٦٢. كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال للعلّامة علاء الدين علي المتقّي بن حسام الدين الهندي، مؤسّسة الرسالة، ١٣٩٩هـ.
٦٣. لسان العرب، محمّد بن مكرم بن منظور الأفريقيّ، نشر دار صادر، ١٤١٤هـ، الطبعة الثالثة، بيروت.
٦٤. لم لا نخشع في الصلاة؟! للسيّد سامي بن حسن خضرة. منشورٌ في المكتبة الشاملة.
٦٥. مجمع البيان في تفسير القرآن، لأمين الإسلام أبي الفضل بن الحسن الطبرسيّ، نشر مؤسّسة الأعلميّ، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، بيروت.
٦٦. المحاسن، أحمد بن محمّد بن خالدٍ البرقيّ، دار الكتب الإسلاميّة، قم المقدّسة.
٦٧. المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء، للمولى محمّد محسن بن المرتضى المعروف بالفيض الكاشاني، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفاري، نشر مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ.
٦٨. مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، (باب النيّة)، نشر دار الكتب

الإسلاميّة، طهران.
٦٩. المسائل المهنّائيّة، لآية الله الحسن بن يوسف بن عليّ بن المطهّر (العلّامة الحلّيّ)، (مخطوطٌ بمكتبة السيّد الحكيم العامّة في النجف، ضمن مجموعٍ برقم: «١١٠٧»).
٧٠. مستدرك الوسائل، للمحدّث الميرزا حسين النوريّ، تحقيق ونشر مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
٧١. مستدرك سفينة البحار، تحقيق: الشيخ حسين علي النمازيّ، مؤسّسة النشر الإسلامي، ١٤١٩هـ، قم.
٧٢. مسكّن الفؤاد عند فقد الأحبّة والأولاد، تأليف الشهيد الثاني الشيخ زين الدين عليّ بن أحمد الجبعيّ العامليّ، تحقيق ونشر مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، قم المقدّسة.
٧٣. مصباح الشريعة، المنسوب للإمام الصادق عليه السلام، مؤسّسة الأعلميّ، بيروت.
٧٤. مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية، للسيّد الإمام الخمينيّ، نشر مؤسّسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني، الطبعة الرابعة.
٧٥. معاني الأخبار، للشيخ الصدوق، تحقيق عليّ أكبر الغفاريّ، نشر مؤسّسة النشر الإسلاميّ، الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ، قم المقدّسة.
٧٦. المعتبر في شرح المختصر، تأليف نجم الدين أبي القاسم جعفر بن الحسن المحقّق الحلّيّ، حقّقه وصحّحه عدّةٌ من الأفاضل تحت إشراف آية الله ناصر مكارم الشيرازيّ، من منشورات مؤسّسة سيّد الشهداء عليه السلام، طبعة ١٣٦٤ش، قم المقدّسة.
٧٧. المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد الطبرانيّ، تحقيق: إبراهيم الحسينيّ،

نشر دار الحرمين.
٧٨. المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيّوب اللخميّ الطبرانيّ، تحقيق حمدي عبد الحميد السلفيّ، طبع دار إحياء التراث العربيّ، نشر مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية، القاهرة.
٧٩. مقدّمة في علم الأخلاق، للسيّد كمال الحيدريّ، دار فراقد، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ، قم المقدّسة.
٨٠. مكارم الأخلاق، تأليف: الشيخ الجليل رضي الدين أبي نصر الحسن بن الفضل الطبرسيّ، الطبعة السادسة، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.
٨١. مراتب السير والسلوك، للسيّد كمالٍ الحيدريّ، تحت عنوان (معنى الاحتجاب والفناء)، بقلم طلال الحسن، دار فراقد، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ، قم المقدّسة.
٨٢. من لا يحضره الفقيه، للشيخ الأقدم أبي جعفر بن علي بن الحسين بن بابويه (المعروف بالشيخ الصدوق)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر جامعة المدرسين، الطبعة الثانية، ١٤٩٤هـ، قم.
٨٣. منازل الآخرة والمطالب الفاخرة، تأليف المحدّث الثقة الحاجّ الشيخ عبّاس القمّيّ، تعريب وتحقيق السيد ياسين الموسويّ، طبع ونشر مؤسّسة النشر الإسلاميّ (التابعة لجماعة المدرّسين)، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، قم المشرّفة.
٨٤. موسوعة الخطب والدروس، جمعها ورتّبها الشيخ عليّ بن نايفٍ الشحود، (منقولةٌ من المكتبة الشاملة).
٨٥. الميزان في تفسير القرآن، للسيّد العلّامة محمّد حسين الطباطبائيّ، نشر مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، قم المقدّسة.

٨٦. نهج البلاغة، للإمام عليّ بن أبي طالبٍ عليه السلام، جمع الشريف الرضيّ، تحقيق الشيخ محمّد عبده، نشر دار المعرفة، بيروت.
٨٧. نوادر المعجزات للطبريّ، نشر وتحقيق مدرسة الإمام المهديّ، قمّ.

# الفهرس

**شكرٌ وتقدير** ..... ٥
**المقدّمة** ..... ٧
هذا الكتاب ..... ١١

**دروسٌ في روحانيّة العبادات**

**الدرس الأوّل**

**واقعيّة العبادات وموقعها في السلّم الكماليّ**

أهداف الدرس ..... ١٧
واقعيّة العبادات ..... ١٧
العبادات في السلّم الكماليّ ..... ١٨
واقعيّة العبادات وفلسفة الكمالات الإلهيّة ..... ٢٠
العبادات... طريقٌ وهدفٌ قريبٌ ..... ٢١
مذاكرةٌ ..... ٢٣

**الدرس الثاني**

**العبادات في رسومها القرآنيّة**

أهداف الدرس ..... ٢٧
قرآنيّة العبادات ..... ٢٧
الرسم الأوّل: العبادة فرع التوحيد ..... ٢٨
الرسم الثاني: خلوص العبادة من مظاهر الشرك مطلقاً ..... ٢٨
الرسم الثالث: الاعتقاد الراسخ بأنّ عبادته هي الصراط المستقيم ..... ٣٤
الرسم الرابع: أن لا يقع شكٌّ أو استهزاءٌ بفاصلٍ أو منسكٍ عباديّ ..... ٣٤

الرسم الخامس: اقتران العبوديّة لله تعالى باجتناب الطاغوت..... ٣٥
الرسم السادس: إدامة العبادة ..... ٣٦
الرسم السابع: اقتران العبادة بالشكر ..... ٣٧
الرسم الثامن: اقتران العبادة بالتقوى والطاعة ..... ٣٨
الرسم التاسع: الإكثار من أسمى مظاهر العبوديّة المتمثّل بالسجود ... ٣٨
مذاكرة..... ٣٩

**الدرس الثالث**

**العبادات في رسومها الروائيّة**

أهداف الدرس ..... ٤٣
العبادات في رسمها الروائيّ ..... ٤٣
الرسم الأول: حسن النيّة بالطاعة ..... ٤٤
الرسم الثاني: العبادة إرفاقيّةٌ وليست قهريّةً..... ٤٤
الرسم الثالث: العبادة إدامة التفكّر بالله تعالى..... ٤٥
الرسم الرابع: الدعاء مخّ العبادة..... ٤٦
الرسم الخامس: العبادة انتظار الفرج ..... ٤٨
الرسم السادس: التنعّم بالعبادة وعشقها..... ٤٩
الرسم السابع: اقتران العبادة بالخوف من الله تعالى ..... ٤٩
بكائيّات الإمام عليٍّ السجّاد عليه السلام ..... ٥٠
الرسم الثامن: العبادة إلحاق الاستغفار بكلمة التوحيد ..... ٥٢
الرسم التاسع: العبادة مراتب أشدّها الورع ..... ٥٣
الرسم العاشر: دوام العمل بالفرائض أعلى مراتب العبادة..... ٥٤
الرسم الحادي عشر: الاقتصاد في العبادة..... ٥٤

الرسم الثاني عشر: عبادة السرّ مقدّمةٌ على عبادة العلن..... ٥٥
الرسم الأخير: ولاية أهل البيت شرط قبول الأعمال العباديّة ..... ٥٦
مذاكرةٌ..... ٥٧

**الدرس الرابع**

**أهل البيت مثلٌ أعلى في العبادات**

أهداف الدرس ..... ٦١
علاقة أهل البيت عليهم السلام بالمعرفة والعبادة الملكوتيّتين ..... ٦١
أهل البيت عليهم السلام مثلٌ أعلى في العبادات ..... ٦٥
كيفيّة المتابعة للمثل الأعلى..... ٦٦
أوّلاً: قاعدة التأسّي ..... ٦٧
ثانياً: قاعدة لا يسقط الميسور بالمعسور ..... ٦٧
ثالثاً: قاعدة الإقبال..... ٦٨
رابعاً: قاعدة: العبادة إرفاقيّةٌ وليست قهريّةً ..... ٦٨
خامساً: قاعدة النفحات..... ٦٨
سادساً: قاعدة المشارطة والمراقبة والمحاسبة ..... ٦٩
سابعاً: قاعدة الأولويّات ..... ٦٩
ثامناً: قاعدة المسارعة في الخيرات ..... ٧١
ثمن المتابعة للمثل الأعلى..... ٧٢
أوّلاً: حبّ الله ونيل مغفرته..... ٧٢
ثانياً: الفلاح في الدارين ..... ٧٢
ثالثاً: نفي الخوف والحزن عنهم..... ٧٣
ثمن عدم المتابعة للمثل الأعلى..... ٧٣

مذاكرةٌ..... ٧٤

**الدرس الخامس**

**أخلاقيّات العبادات وبعدها العرفانيّ**

أهداف الدرس ..... ٧٧
تصوير أخلاقيّات العبادات ..... ٧٧
مثلٌ أعلى في العبادة الأخلاقيّة ..... ٨٠
النموذج الأوّل: شوقه للصلاة..... ٨٣
النموذج الثاني: حسن تلاوته للقرآن..... ٨٤
النموذج الثالث: اعتداله في عبادته..... ٨٤
العبادات في رؤيةٍ عرفانيّةٍ..... ٨٥
مثلٌ أعلى في العبادة العرفانيّة..... ٨٦
مذاكرةٌ..... ٨٧

**الدرس السادس**

**أخلاقيّات المسجد والأماكن المقدّسة**

أهداف الدرس ..... ٩١
مسجديّة المسجد ..... ٩١
أخلاقيّات المسجد مفهوماً ومصداقاً ..... ٩٢
المستوى الأوّل: مصاديق المسجديّة قرآنيّاً ..... ٩٣
أوّلاً: أخذ الزينة..... ٩٣
ثانياً: تعاهد المساجد..... ٩٣
ثالثاً: تقوائيّة المسجد..... ٩٤
المستوى الثاني: مصاديق المسجديّة روائيّاً..... ٩٥

أوّلاً: الكفّ عن حديث الدنيا ..... ٩٥
ثانياً: تجنيب المسجد الأطفال والمجانين ..... ٩٦
ثالثاً: تجنيب المسجد الروائح الكريهة..... ٩٦
رابعاً: عدم اتّخاذ المسجد ممرّاً..... ٩٧
خامساً: أفضليّة دخول المساجد على طهارةٍ..... ٩٧
عمارة المسجد ..... ٩٨
نموذجٌ جديدٌ لعمارة المسجد ..... ٩٩
المستوى الثالث: الآداب العامّة.....١٠٠
١. الشروع بالدعاء عند الذهاب إلى المسجد .....١٠٠
٢. المشي إلى المسجد والخروج منه بسكينةٍ ووقارٍ .....١٠١
٣. الذهاب مشياً إلى المسجد.....١٠١
٤. صيانة المسجد من الأوساخ .....١٠٢
٥. الدخول إليه بالرجل اليمنى، والخروج منه باليسرى .....١٠٢
٦. الدعاء عند دخول المسجد وعند الخروج منه.....١٠٢
٧. التوجّه للمسجد عند سماع الأذان والصلاة في الصفوف الأولى...١٠٣
٨. السلام على المصلّين.....١٠٤
٩. عدم الخروج من المسجد بعد اقتراب موعد الأذان .....١٠٤
١٠. تسوية الصفوف.....١٠٤
١١. عدم حجز مكانٍ فيه دون الصلاة فيه .....١٠٥
١٢. الصلاة في أقرب المساجد ما عدا صلاة الجمعة .....١٠٥
كيف نكون مسجديّين؟ .....١٠٦
الطريق الأوّل: تأصيل حالة التديّن .....١٠٦

الطريق الثاني: التفقّه في الدين ولزوم المراقبة .....١٠٨
اشتداد المسجديّة في المساجد الأربعة .....١٠٨
الأماكن المقدّسة.....١٠٩
موعظةٌ.....١٠٩
مذاكرةٌ.....١٠٩

**الدرس السابع**

**صورٌ روحانيّةٌ للطهارة والصلاة**

أهداف الدرس .....١١٣
معنى الروحانيّة .....١١٣
صورٌ روحانيّةٌ من الطهارة.....١١٤
معنى الماء الطهور .....١١٤
الوضوء.....١١٥
الغسل .....١١٦
التيمّم .....١١٦
مكان المصلّي .....١١٧
صورٌ روحانيّةٌ من الصلاة .....١١٧
هويّة الصلاة .....١١٧
ثمار الصلاة .....١١٨
أوّلاً: حطّ الذنوب .....١١٨
ثانياً: الوقوف على باب ملك الملوك .....١١٨
ثالثاً: قبول الأعمال الأخرى أو النظر فيها .....١١٨
رابعاً: العطايا الثلاث.....١١٩

وقت الصلاة..... ١١٩
النيّة ..... ١٢٠
تكبيرة الإحرام..... ١٢١
الخشوع ..... ١٢٢
القراءة..... ١٢٣
الركوع ..... ١٢٣
القنوت ..... ١٢٤
السجود ..... ١٢٤
السجدة اليونسيّة..... ١٢٥
التشهّد..... ١٢٥
التسليم ..... ١٢٦
التعقيبات..... ١٢٦
صلاة الأولياء..... ١٢٧
صلاة مودّعٍ..... ١٢٧
مذاكرةٌ..... ١٢٨

**الدرس الثامن**

**المحافظون على الصلاة**

أهداف الدرس ..... ١٣١
تمهيدٌ..... ١٣١
معنى الإقامة والأداء والفرق بينهما ..... ١٣١
توضيح المسألة منطقيّاً..... ١٣٢
علاقة إقامة الصلاة في صناعة الإنسان..... ١٣٤

علاقة إقامة الصلاة بالحاكم والمحكوم .....١٣٥
دور الصلاة في علاقة الإنسان الطوليّة مع ربّه .....١٣٦
الدور الاجتماعيّ للصلاة.....١٣٧
معنى فلاح المصلّين .....١٣٩
الفلاح في بعده المادّيّ والاجتماعيّ.....١٤١
الصلاة وصنع النموذج البشريّ الإيجابيّ .....١٤٢
المستخفّون بالصلاة .....١٤٢
كيفيّة التعاطي مع تارك الصلاة .....١٤٤
مذاكرةٌ.....١٤٥

**الدرس التاسع**

**صورٌ روحانيّةٌ للصوم**

أهداف الدرس .....١٤٩
تمهيدٌ.....١٤٩
صورٌ روحانيّةٌ من الصوم .....١٥٠
أوّلاً: معنى الامتناع عن الطعام والشراب.....١٥٠
ثانياً: معنى الصوم عن الكلام .....١٥٣
ثالثاً: العلاقة بين العفّة وروحانيّة الصوم.....١٥٤
مذاكرةٌ.....١٥٦

**الدرس العاشر**

**صورٌ روحانيّةٌ للحجّ والزكاة**

أهداف الدرس .....١٥٩
تمهيدٌ.....١٥٩

الصور الروحانيّة العامّة للحجّ .....١٦١
الصور الروحانيّة الخاصّة للحجّ .....١٦٣
روحانيّة الإحرام .....١٦٣
روحانيّة الوقوف في عرفة.....١٦٥
روحانيّة الإفاضة.....١٦٥
روحانيّة الوقوف في مزدلفة.....١٦٦
روحانيّة رمي الجمرات.....١٦٦
روحانيّة الحلق أو التقصير .....١٦٧
روحانيّة المبيت في منى.....١٦٧
روحانيّة الطواف .....١٦٨
روحانيّة صلاة الطواف.....١٦٨
روحانيّة السعي .....١٦٨
روحانيّة الحجر الأسعد (الأسود) وتقبيله.....١٦٩
وقفة مع أمير الحجّ .....١٧٠
في وداع الكعبة المشرّفة .....١٧١
في وداع المسجد الحرام.....١٧١
تذييلٌ.....١٧٢
صورٌ روحانيّةٌ من الزكاة .....١٧٢
مذاكرةٌ.....١٧٣

**الدرس الحادي عشر**

**أخلاقيّات القرآن الكريم**

أهداف الدرس .....١٧٧

تمهيدٌ.....١٧٧
مكانة القرآن الكريم.....١٧٧
رسالة القرآن وأهدافه الاجتماعيّة .....١٧٩
الكمال الإنسانيّ قرآنيّاً .....١٨١
أصول الأخلاق في القرآن .....١٨٢
أخلاقيّات القرآن الكريم .....١٨٤
الأخلاقيّات العامّة .....١٨٥
الأخلاقيّات الخاصّة.....١٨٥
أوّلاً: أخلاقيّات التلاوة والترتيل .....١٨٦
ثانياً: أخلاقيّات الاستماع إليه .....١٨٧
ثالثاً: أخلاقيّات الحفظ .....١٨٨
رابعاً: أخلاقيّات الفهم .....١٨٩
كيف لنا أن نعظّم القرآن؟ .....١٩٠
علاقة أخلاقيّات القرآن الكريم بروحانيّة العبادات .....١٩١
مذاكرةٌ.....١٩٢

**الدرس الثاني عشر**

**أخلاقيّات المحبّة والرفقة والصداقة والخلّة**

أهداف الدرس .....١٩٥
تمهيدٌ.....١٩٦
معنى المحبّة والرفقة والصداقة والخلّة.....١٩٦
أوّلاً: المراد من الحبّ .....١٩٦
الإخلاص ثمرة الحبّ .....١٩٩

ثانياً: المراد من الرفقة ..... ٢٠١
ثالثاً: المراد من الصداقة والخلّة..... ٢٠٢
ضرورة التروّي في انتخاب الصديق ..... ٢٠٣
حدود الصداقة..... ٢٠٥
هويّة المحبوب والرفيق والصديق والخليل ..... ٢٠٦
مستلزمات المحبّة والرفقة والصداقة والخلّة ..... ٢٠٧
ضرورة الاعتدال في المحبّة والرفقة والصداقة والخلّة ..... ٢٠٨
المخاطر والمحاذير في الرفقة والصداقة والخلّة ..... ٢٠٩
علاقة المحبّة والرفقة والصداقة بروحانيّة العبادات..... ٢٠٩
مذاكرةٌ..... ٢١٠
**المصادر** ..... ٢١١
**الفهرس** ..... ٢٢١